فرانكو "بيفو" بيراردي

معزوفة مقلقة

السميورأسمالية وأمراض جيل ما بعد - ألفا

Telegram:@mbooks90

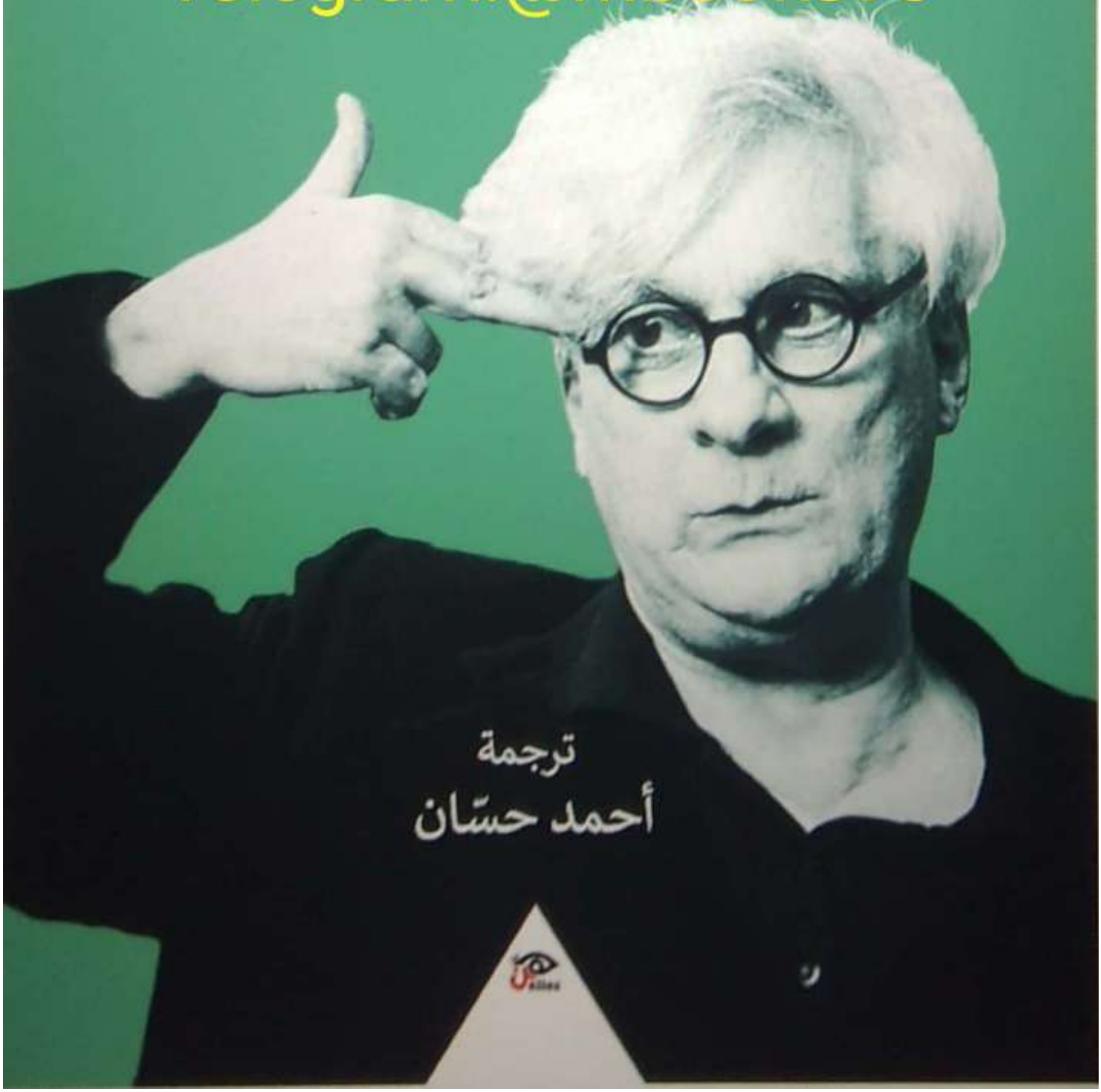

ترجمة

أحمد حسّان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مَعزُوفةٌ مُقلقلةٌ

السميورأسمالية وأمراض جيل ما بعد - ألفا(1)

---

(1) جيل ألفا هو أول جيل يولد بعد حلول الألفية الجديدة. (المترجم)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

00 تشعبات

تقديم

سلسلةٌ لانهائيةٌ من التشعّبات: هكذا يمكننا أن نروي حكايةَ حياتنا، وغرامياتنا، لكن كذلك تاريخَ التمردات، والهزائم، واستعادات النظام. في أية لحظةٍ مُعطاةٍ تنفتحُ أمامنا مساراتٌ، ويواجهنا باستمرار بديلُ الذهابِ إلى هنا أو الذهاب إلى هناك. عندئذ نقرّرُ، ننتزعُ أنفسَنا من منظومةٍ من الإمكانات اللانهائية ونختارُ مسارًا منفردًا. لكن هل نختار حقًا؟ هل هي مسألة اختيار، حين نذهب إلى هنا بدل هناك؟ هل هو اختيارٌ حقًا، حين تذهب الجماهيرُ إلى مراكزِ التسوُّق، حين تتحوّل الثوراتُ إلى مذابح، حين تخوض الأممُ الحرب؟ لسنا نحن من نقرّر بل التسلسلات: آلاتُ تحريرِ الرغبات وآليّاتُ السيطرة على المخيلة. التشعُّب الجوهري هو دائمًا هذا: بين آلاتِ تحرير الرغبة وبين آلياتِ السيطرةِ على المخيّلة. في عصرنا، عصر التحول الرقمي، تتولّى الآلياتُ - الذاتيةُ التقنية السيطرةَ على النفس الاجتماعية.

تُوهِنُ تدفقاتُ التبعيةِ المُولِّدةُ للمرض المخيّلةَ الجماعية، فتُجبر الجسدَ الراغبَ على الخضوع. وكلما تكثّفت شبكةُ الإمكانات، بفضل العولمة، وتكنولوجيات الشبكة والحراك الاجتماعي والموطني، كلما وجدنا أنفسَنا واقعين فيْ أحبولة الآلياتِ الذاتية التي تتحكّم في الخيارات الفردية: الآليات الذاتيةُ التكنولوجية، والمالية، والنفسية تحوّلُ الحشدَ multitude إلى سِرب(1)swarm.

سيكونُ ممكنًا أن نُعيدَ حكيَ تاريخ القرن العشرين من وجهةِ نظر تشعّباته. التشعّبات بين التخيُّلات الطوباوية وبين الديستوبيا [dystopia اليوتوبيا المعكوسة] الواقعية تتمثلُ باستمرارٍ في تواريخ الطلائع الفنية والحركات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثورية. فقد وضعت عاطفةُ تفكيكِ البنيات لدى المستقبلية الإيطالية نفسَها في خدمة الدعايةِ، آليةِ التحكمّ في المخيلة الجماعية. ووضعت البهجةُ الإبداعية للمستقبلية الروسية نفسَها في خدمة الإرهابِ البلشفي. وغذّت السوريباليةُ هندسةَ الخيال. وحوّل التمرّدُ المساواتي نفسَه إلى ديكتاتوريات دولتية. وزوّدت الحركاتُ الإبداعية السميو -رأسمالية بالقوة العاملة.

خلال الأعوام القليلة الماضية سعيتُ إلى إعادة بناءِ متاهة التشعّبات الطوباوية التي أعقبت الانفجارَ الإبداعي لعام 1968، حتى اللحظة الفاصلة لعام 1977 حين تحوّلت كل يوتوبيات القرن العشرين إلى نقيضها. وبدءًا من إعادة بناء هذه المتاهة، حاولتُ مُساءلةَ التشعبات الراهنة، التشعبات التي تنفتحُ باستمرار في توالد الإمكانات. وفي هذا الكتاب، جمعتُ سويًا آثارَ هذا العمل. ربما لا تزال مشوَّشة، كما هو حال الآثار. وبكونها مكتوبةً خلال الأعوام التي تلت تمرد سياتل(2)، أول فعلِ تنظيمِ ذاتي واعٍ، جماهيري للعمل الإدراكي، فإنها تعبُر مجالاتٍ تخصّصية متنوعة، من التحليل الثقافي - الاجتماعي إلى علم المرض النفسي، إلى سوسيولوجيا الاتصال، إلى النظرية السياسية.

Telegram:@mbooks90

القسم الأول مُكرّس لعام النُذُر المسبقة premonitions، لعام 1977، عام حركاتِ الاستقلال الذاتي والإذاعات الحرة الإيطاليتين الذي كان أيضًا عام لا مستقبل No Future لـسيد فيشاس (3)Sid Vicious، عام مقتل شلاير Schleier ومأساة شتامهايم (4)Stammheim. يعيدُ «حين بدأ المستقبل» بناءَ التشعبات التي قدّمت نفسها أمام الحركات حين اجتمع، في سبتمبر من ذلك العام، مائةُ ألف شخص في بولونيا ليُسائلوا المستقبلَ دون أن يجدوا أي إجابةٍ. لم تختر الحركاتُ بل تبِعت الآثارَ التي راكبتها فوق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الواقع الرؤيةُ الإيديولوجيةُ المنقوشة على خلاياهم العصبية: العنفَ المسلّح، والهيروين، والنَدم الجماعي.

والقسم الثاني مُكرّسٌ للتحول الاجتماعي والانتاجي للأعوام الثلاثين الأخيرة: من تمرد العمال ضد خط التجميع، إلى إعادة الهيكلة التقنية ما بعد- الصناعية، إلى نشوء الكوجنيتاريا [الإدراكيتاريا] cognitariat، طبقةِ العمل الذهني الافتراضية غير القابلة للتنظيم. هنا يُواجِه الحكيم، والتاجر، والمحارب بعضَهم على خشبةِ مسرح تاريخ أواخر القرن العشرين. يجري اعتقالُ الإبداعيةِ العلمية والفنية من جانب السوق والحرب. ويقودنا هذا إلى سؤال كيف يمكن إعادةُ بناء الاستقلال الذاتي ضمن نطاق شروط السميو - رأسمال semio-capital .

ويحلّل القسم الثالث سيرورةَ تشكُّل مجالَ المعلومات المتصل بالشبكة: التحوّلَ الذي يتلو انتشار تكنولوجيات الوسائط الرقمية، إقامة أنساقٍ لتخلُّل العقل الجماعي من جانب المجال - التقني ونشوء كفاءةِ وسائطِ جماهيرية أدّت إلى تشكُّل حركةٍ نشطة في الوسائط.

ويدور القسم الرابع حول المجال النفسي، الحس الوجداني sensibility لأولى أجيال الوسائط: الجيل الفيديو - إلكتروني، الجيل الذي وُلد بعد مجيء التلفزيون الملوّن، أولئك الذين ولدوا عند نهاية السبعينات أو أوائل أعوام الثمانينات. ويخص في المقام الأول الجيل الاتصالي، الذي وُلد خلال التسعينات ونما في تكافلٍ عضوي مع شبكة التنبيهات العصبية الافتراضية: عمليات الترقيع التخيلية، والنفسية، والحيوية bionic.

ويمضي القسمُ الخامس إلى قلب المرضِ النفسي المنتشر في الأجيال التي تعلّمت من آلةِ كلماتٍ أكثر مما تعلمته من أمهاتها، كما كتبت عالمةُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأنثروبولوجيا روز جولدن Rose Golden عام 1975. والحجة هنا تخصُّ اختفاءَ الأمِ والانفصامَ التالي بين تعلُّم اللغة وبين الوجدانية.

المنظور الذي ينشأ من هذه الفصول له طابعُ كارثةٍ للنزعة الإنسانية الحديثة، لكن كل وضعِ كارثةٍ ينفتحُ على تشعُّبٍ ثنائي. يمكن أن ينهارَ إلى لولبٍ جهنمي إذا ظل رهينةً للعقائد الجامدة الاقتصادية السائدة واستمرَّ على الطريق المؤدي إلى تزايدٍ للقوى في الاتجاه الخاطئ. أو يمكن توكيدُ قطيعةٍ معرفية، يمكن أن ينشأ نموذجُ معياري ما بعد - اقتصادي وتتكشف رؤيةٌ جديدةٌ تمامًا للعلاقات بين الكائنات الإنسانية. ولا يمكن لذاتِ هذه القطيعة إلّا أن تكون العمالةَ الإدراكية. وحدةُ الاستقلالُ الذاتي لقوةِ العمل الذهني عن السيطرةِ الاقتصادية هو ما يمكنه أن يوقفَ الآليةَ الانتحارية للحربِ والهوس بالنمو التي تدمّر الكوكب. العمالة الإدراكية، الشبكية، المقلقلة precarious هي الوظيفة التقاطعية(5) transversal القادرة على إعادة توليف العناصر الاجتماعية في تحوّلٍ دائم وفقا لمبدأٍ لا - تراكمي، ولا - تنافسي، ولا - عدواني.

إلاّ أن الاستقلالَ الذاتي المتزايِد للوظيفةِ الإدراكية التقاطعية لا يمكنهُ تحقيقُ ذلك قبل أن تكون الصدمة trauma قد أنتجت تأثيراتها. وهذه التأثيرات يمكن أن تكون غير قابلةٍ للانعكاس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نهاية السياسة الحديثة

إن أحزابَ اليسار التى، خلال مسار القرن العشرين، خانَت وبعثرت توقّعات الطبقةِ العاملة ومُثلَها العليا كي تتجنب الاختفاءَ التام، تسعى اليوم بصورةٍ يائسة إلى التقاطِ نفس الخيط مع الأجيال الجديدة. لكن ورثةَ اللينينية والاشتراكية الديموقراطية لم يعودوا قادرين على تفسير العلاماتِ الصادرة عن الواقع الاجتماعي الجديد، ويتأرجحون بين موقفٍ «إصلاحي» للخضوع للرأسمالية - المفرطة الليبرالية وبين موقفٍ «مُقاوم» يُعيدُ طرحَ الإيديولوجيات القديمة بشكلٍ دفاعي مُتخلّف.

بدا أن المشاركةَ في الحياة السياسية تتضاءلُ باضطراد ولا يبدو أن ثمةَ أي علاجٍ لهذا العزوف. لا يتخلّى سكانُ البلدان الغربية عن ممارسة الحقِ الانتخابي في التصويت. لكن التصويت علامةٌ متناقصةٌ باستمرارٍ للمشاركة السياسية الحقيقية، لأن الجميع يدركون أنهم بدل أن يكونوا قادرين على الاختيار بين بدائل حقيقية، لا يتمكنون إلّا من اختيار وجوهٍ وأسماء من سيفرضون عليهم قراراتٍ حتميةٍ ومعبأةٍ سلفًا.

منذ عام 1981، حين تخلّى فرنسوا ميتران François Mitterrand، بعد ستة أشهر من انتخابه رئيسًا للجمهورية الفرنسية، عن البرنامج الاشتراكي المقدّم للناخبين، معترفًا بشكلٍ صريح باستحالة الحكم دون اتّباع القواعد التي تفرضها القوى الاقتصادية الكبرى، صار بديهيًا أن اليمين واليسار كلمتان مجرّدتان من الدلالة الجوهرية. إذا كان للخطاب السياسي أى معنى، فإنه يشير إلى قدرة البشر المتحدين على الاختيار بين البدائل. وبقدر ما لم تعد هذه البدائلُ موجودةً بسبب سيادة الآليات الذاتية، لا تعود السياسةُ موجودةً عند هذه النقطة وتصبح المشاركةُ السياسية طقسًا دون مغزى يشارك فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المواطنون من خلال الامتثال فحسب.

يكمن أصلُ السياسة الحديثة في المنظور الثقافي الذي استهلّته النزعة الإنسانية، وباكتشاف بُعد الإرادة الحرة. في الخطاب في الكرامة الإنسانية الذي كتبه پيكو ديللا ميراندولا Pico della Mirandola في العقد الأخير من القرن الخامس عشر، لا يحدُّ الإمكانيةَ الإنسانية أيُّ نموذجٍ بدئيٍ، ولا معيار، ولا ضرورة، لأن الخالق لم يحدّد بأية صورةٍ الطريقَ الذي يجب أن تتبعه السلطةُ الإنسانية: لم أمنحك، يا آدم، لا دورًا محدّدًا، ولا هيئتك ذاتها، ولا امتيازًا يخصّك، لأن هذا الدور، هذه الهيئة، هذا الامتياز هو ما سترغبُه على وجه الدقة، طبقًا لوعدك ومشورتك، لإنجازاتك ومَصُونَاتك. الطبيعة المحدّدَة للكائنات الأخرى متضمّنةٌ في المعايير المقرَّرة من قِبلي. وأنت ستُحدِّد طبيعتَك بنفسك، دون عائقٍ مفروض، طبقًا لإرادتك الخاصة، السلطةِ التي ستنصحك. أنت موضوعٌ في منتصف العالم، لأنك من هناك يمكنكَ أن تتبيَّنَ كلَّ ما في العالم. لم أجعلك لا سماويًا ولا أرضيًا، لا فانيًا ولا خالدًا، لأنك أنت ذاتك، كصانعٍ حرٍ ذي سيادة، ستشكّلُ وتنحتُ ذاتَك على الشكل الذي ستكونُ قد اخترتَه سلفًا. يمكنك أن تنحطَّ إلى شيءٍ أدنى، مثل الوحوش؛ ويمكنك أن تُعيد توليدِ نفسِك، طبقًا لإرادتك، إلى شيءٍ أسمى، مثل المقدسات. في الإنسان الوليد، وضع الرب بذورَ كل الأنواع وجرثومةَ كلِّ حياةٍ (بيكو ديللا ميراندولا، خطابٌ في الكرامة الإنسانية)

في اليوم الذي خلق فيه الربُ الإنسانَ، طبقًا لبيكو، كان قد انتهى من النماذج البدئية التى في حوزته، ومخلوقُه الأثير، الأخير والأشد تعقيدًا، لم يكن يمكن تحديدُه لا بأي نموذجٍ بدئي ولا بأية ماهيةٍ. ومن ثم يجب أن يترك الربُ للإنسانِ الحريةَ لتحديد نفسه، ليُقيم بحريةٍ حدودَ أفعاله وخطوطَ مصيره. لم تكن الصيرورةُ الإنسانية لا محدودةً ولا محسومةً من قِبل الإرادة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإلهية، لكنها متروكةٌ للإرادة الحرة للإنسان. تستهلُّ الحداثةُ نفسَها تحت علامة هذا الوعي: الإنسانُ مشروعٌ، وليس تطويرَ وتحقيقَ مخططٍ في الإرادة الإلهية أو في طيّات **الوجود**. ضمن إطار خواء **الوجود** هذا تتفتّح قصةُ الحداثة. يقول هيدجر Heidegger:

بوصفه **مو - جودًا ek-sisting [موجودًا - هناك]**، يتكبّد الإنسانُ **الدا - زاين Da-sein [الوجود - هناك]** من حيث أنه يأخذ الدا، فضاءَ الوجود، في «رعايته». لكن **الدا - زاين** ذاته يحدث جوهريًا بوصفه «**مقذوفًا**». يتفتّح جوهريًا في قذفِ **الوجود** بوصفه الإرسالَ القدري. (1993: 231)

في اختلافِ الموجودات بالنسبة **للوجود**، يكمنُ تجاوزُ وتفرّد الوجود - هناك (الدا- زاين)، الوجود في موقف. لكن التطور التقني للذكاء الإنساني يُعِدُّ نهاية الحرية الإنسانية بوصفها مؤسّسةً على عدم التحدُّد. شيّدت الحريةُ الإنسانية، في مسار العصر الحديث، مصيرًا يُشيّءُ نفسَه في التكنولوجيا حتى النقطة التي اخترقَت فيها اللغةَ، طاويةً إياها في آلياتها الذاتية. بفضل التقنية، أنتجت إرادةُ القوة أدواتَ نهايتها الخاصة ونهايةِ الحرية الإنسانية، وكذلك نهاية الإنسان ذاته، بقدر ما يكون الإنسانُ هو تلك الحرية التي تُلغيها التكنولوجيا.

لكن ثمة سببًا أشدَّ جذريةً ولا يمكن تجاوزُه يتعذّر نظرًا له ترجمةُ الرسالة السياسية للحداثة إلى لغة الأجيال الأخيرة: الجيل الفيديو - إلكتروني، المولود عند نهاية السبعينات، والجيل الاتصالي المولود في أولى أعوام التسعينات. أصبح الإرسال بين - الأجيال مستحيلًا بسبب مشكلة التشكيلات formats الإدراكية وليس فقط بسبب مشكلة المضامين. فعقل الجيل الذي تشكّل ضمن الشروط التقنية للفيديو- إلكترونيات، ثم ذلك الذي يأخذ في التشكّل داخليًا وفقًا للشروط الاتصالية للنت، يعمل بطريقةٍ لا تتّسق بصورةٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متزايدة مع العقل الأبجدي، النقدي، التاريخي، بمعنى عقل البشرية الحديثة، التي آمنت بالإمكانية السياسية للاختيار بين البدائل.

لطالما وجدتُ أن مفهومَ الجيلِ مشكوكٌ فيه. في الحقبة الصناعية الماضية، كان مفهوم الطبقة الاجتماعية يحدّد سيرورات تحديد الهوية والنزاعات بصورة أفضل بكثير. والطبقات الاجتماعية لا تتطابق تمامًا مع الأجيال، لأن خطوط تشكيل وعي الطبقة الاجتماعية تمر من خلال سيروراتِ إنتاج وتوزيع الدخل، وليس من خلال العضوية الجيلية. في الحقبة الصناعية، كان للتتابع الجيلي أهميةٌ هامشية ولا يمكنه أن يحدد تأثيرات التمايز الجذري، كما لا يمكنه التأثير في الأشكال الدالّة سياسيًا للوعي وتحديد الهوية. طالما كانت الذاتية السياسية تتشكل داخل التقسيم الاجتماعي للعمل، كانت الذاتية الجيلية مجرد مفهومٍ سوسيو -بيولوجي، غير ملائمٍ لتحديد الخصائص التاريخية للوعي الذاتي.

لكن التحول ما بعد- الصناعي أربك أطراف المشكلة. على مستوىً موضوعي، لم تنقص بالتأكيد تقسيماتُ الشرائح الاجتماعية والاقتصادية، لكن ذلك لم يعد بمقدوره إنتاج تأثيراتٍ حاسمة لتحديد الهوية على مستوى الوعي. فالتشظّي والتقلقلُ المتزايد للعمليات الإنتاجية جعلا الهويةَ الاجتماعية بالغةَ الهشاشة، في نفس الوقت الذي يتم فيه جعل الهوية أكثر تخيليةً والوعي مُتّجهيًا vectoral (6). في السيرورات ما بعد الحداثية لتحديد الهوية، فإن ما نكونه أقلُ أهميةً مما يمكننا أن نكونه، واليوم يمر تشكيلُ الذاتية من خلال وسمٍ تمايزي من نمطٍ جيلي، أشد دلالةً بكثير مما كان في الماضي.

بمفهوم الأجيال نشيرُ إلى تجمّع بشري يتقاسم بيئةً تأهيلية تكنولوجية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإدراكية، وتخيلية محدّدة زمنيًا. في حقبة الحداثة الماضية كانت هذه البيئة التأهيلية تتغير ببطء عبر الزمن، بينما كانت العلاقات الإنتاجية والاقتصادية والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية تتغير بصورةٍ أبرز. لكن فور أن أفسحت التكنولوجيات الأبجدية المجال للرقمنة، تدخّل هذا التحول ليُعدّل جذريًا صيغ التعلُّم، والتذكر، والتبادل اللغوي، وصارت الكثافة التأهيلية للانتماء الجيلي أشد حسمًا.

عند هذه النقطة لم نعد نُحدّد مفهوم الأجيال بظاهرةٍ بيولوجية بسيطة، بل بالأحرى بظاهرةٍ تكنولوجية وإدراكية، هي التأسيس - الذاتي العابر - للذوات لأفقٍ مشترك للإمكان الواعي والخبراتي. تحوّل البيئة التكنو- إدراكية يُعيد تحديد إمكانات وحدود اكتساب الفردية.

لهذا السبب، فإنني أعتقد أن من الضروري تحديد الأشكال الجديدة للوعي الاجتماعي بدءًا من الانتماء الجيلي. ولذا سأتحدث عن إزاحتين حاسمتين في تبدّلٍ أدّى إلى استنزاف المقولات الإنسانية النزعة والمنظورات التي قامت على أساسها السياسة الحديثة. ويتأسس هذان المعبران في إدراجsubsumption (7) العقل البشري الآخذ في التشكّل ضمن تشكيلين تكنولوجيين متتابعين لمجال الميديا. الأول هو ما أسمّيه الفيديو- إلكتروني، وأعني تكنولوجيات الاتصال المرئي عن بعد. إنها مرحلة عبور يتحدث عنها مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan في دراسته الأساسية لعام 1964، بعنوان **فهم الميديا** *Understanding Media*.

ينظر ماكلوهان إلى الانتقال من المجال الأبجدي إلى المجال الفيديو- إلكتروني ويستنتج أنه حين يتبعُ ما هو تزامنيّ ما هو تتابعي، تتبع قدرةُ المعالجة الأسطورية قدرةَ المعالجة النقدية. تفترض الملكةُ النقدية سلفًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بَنيَنةً معينةً للرسالة: تتابعيةَ الكتابة، وبطءَ القراءة، وإمكانَ الحكم تتابعيًا على صدق أو زيف الأقوال. في هذه الشروط يصبح ممكنًا التمييزُ النقدي الذي أضفى طابعه على الأشكال الثقافية للحداثة. لكن في مجال الاتصال الفيديو- إلكتروني، يحلُ محلَ النقد باضطرادٍ شكلٌ من التفكير الأسطوري تُصبح فيه القدرةُ على التمييز بين صدق وزيف العبارات مستحيلةً فضلًا عن كونها عديمة المغزى.حدث هذا العبورُ في المجال التقني وفي مجال الميديا لأعوام الستينات والسبعينات، وبدأ الجيل الذي وُلد عند نهاية السبعينات يُبدي العلامات الأولى للحصانةِ من قيم السياسة والنقد التي كانت محوريةً للأجيال الأسبق للقرن العشرين.

وكان التحوّلُ الأشدّ جذريةً هو انتشار التكنولوجيات الرقمية وتشكيل شبكة الإنترنت الكوكبية خلال التسعينات. هنا، تتغيّر تمامًا الصيغُة الوظيفية للعقل البشري، ليس فقط لأن شروط الاتصال تصبح أكثر تعقيدًا، وتشبّعًا، وتسارعًا بصورة لانهائية، بل بالأحرى لأن العقلَ الطفولي يبدأ في تشكيل نفسه في بيئةِ وسائطِ مختلفةٍ تمامًا عن بيئة البشرية الحديثة. والدراسات التي جمعتُها في القسم المتعلق بالمجال النفسي مُكرّسةٌ لهذا الجيل الاتصالي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

01 التشعّب الأول: 77 عام النذير

حين بدأ المستقبل

ما حدث في إيطاليا عام 1977 يصعب فهمه في إطار المفاهيم السياسية الحديثة. في ذلك الوقت، كانت إيطاليا تمر بفترة نزاعيةٍ بعمق، وظهرت حركةٌ قوية للطلبة وشباب البروليتاريين، متحديةً السلطةَ الاقتصادية وسلطة الدولة.

يُسجَّلُ عام 1977 عمومًا باعتباره عامَ عنف. وكان في الحقيقة العامَ الذي بدأت فيه الألوية الحمراء حملاتها الدموية، المجنونة، ولم تكن أعمال الشغب التي انفجرت في شوارع روما، وبولونيا، والعديد من المدن الأخرى في حينه تجمعاتٍ سلمية ونزهاتِ أصدقاءٍ على الإطلاق. لكن العنف لم يكن موضوعًا حين اندلعت الحركة. بل أصبح موضوعًا حين استجابت الشرطة بعنفٍ للمظاهرات، حين أمرت الحكومة بالقمع وقتلت الشرطةُ الطلبةَ بالرصاص في بولونيا وفي روما، وفي غيرهما.

كان ثمة سخطٌ في الهواء. ولم يكن ذلك فحسب لأن 15% من السكان، وبالأخص الشباب، كانوا عاطلين. كان ثمة نوعٌ من السخط الوجودي، موجةٌ من العصيان لم تكن مقتصرةً على إيطاليا.

وبدل التشديد على الجانب العنيف لعام 1977، أفضّلُ التركيزَ على الوجوه المتنافرة للسيرورة الثقافية التي انبثقت حين باغتَ من وُلدوا في فترة ازدهار المواليد(8) في كل أرجاء العالم نذيرُ أن الأفقَ الحداثي يُقاربُ الانحلال.

أود الحديث عن المشهد العام لأعوام السبعينات، وهنا أريد أن أموضِع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الانتفاضة الإيطالية. ليس عام 1977 عامًا إيطاليًا: فهو العام الذي خلق فيه ستيف ووزنياك وستيفن جوبز Steve Wozniak & Steven Jobs العلامةَ التجارية آبل Apple وعلاوة على ذلك، خلقا أدوات نشر تكنولوجيا المعلومات؛ وكتب فيه آلان مينك وسيمون نورا Alain Minc & Simon Nora كتاب *L'informatisation de la societé* **جعل المجتمع معلوماتيًا**، وهو نص يُنظِّر للتحلُّل القادم للدول القومية بسبب التأثيرات السياسية للعلوم الناشئة للاتصالات عن بعد.

وفي ذلك العام كتب يوري أندروبوف، السكرتير العام لجهاز المخابرات السوفيتية KGB، خطابًا لليونيد بريجنيف، مجادلًا بأن الاتحاد السوفيتي يواجه خطر الاختفاء إذا لم يتم جسر الفجوة مع الولايات المتحدة في مجال المعلوماتية. وكان العام الذي كتب فيه جان فرانسوا ليوتار كتاب *La condition postmodern* **[الوضع ما بعد الحداثي]**. العام الذي توفي فيه تشارلي تشابلن؛ رحل الرجلُ ذو قبعة اللبّاد والعصا. كان هذا عام نهاية القرن العشرين: نقطة تحوّل الحداثة.

ما هو خاصّ في الوضع الإيطالي ليس دخان المظاهرات وقنابل المولوتوف. ففي تلك الخبرة يمكنك أن ترى كلا وجهي العصر المتغير: الجانب الطوباوي السعيد للإبداعية واليأس وفقدان الأمل، والإرهاب.

شهد عام 1977 آخر تمردات بروليتاريي القرن العشرين ضد الحكم الرأسمالي وضد الدولة البورجوازية، لكنه شهد في نفس الوقت أولى تمردات الكوجنيتاريا [الإدراكيتاريا]، العمالِ الذهنيين، وذكاءِ العلم التقنية Technische Wissenschaft Intelligenz.

في الثقافة الناتجة خلال ذلك العام، يمكننا أن نرى نذيرَ سيرورةٍ ثقافيةٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جديدة ومشهد اجتماعي جديد. بطريقةٍ بلاغية، يمكنني أن أدعوه أولَ تمردٍ للعصر الحديث الذي نحياه الآن. لكنني لا يمكن أن أكون واثقًا من ذلك، فلا أدري إذا كان العصر الذي نعيشه الآن سيكون عصر عصيانٍ من جديد. ربما نعم، وربما لا.

بمعنى معيَّنٍ يمكن القول بأننا نشهد تحقّق حلمٍ سيء، تحقق خيالٍ ديستوبي كان حاضرًا في الحركة التي انفجرت عام 1977. لأن تلك الحركة لم تكن، كما تقول الأسطورة، حدثًا سعيدًا، لم تكن التعبير الحر عن الإبداعية.

Telegram:@mbooks90

فقد كانت تنطوي على استشعار نزع توطينٍ اجتماعي عميق، على تغيُّرٍ اقتصادي مُقدَّرٌ له أن يُدمّر المشهد الإنساني للمدن؛ وأن يُخضِع كل شذرةٍ من الزمن.

في تقويم ذلك العام ذاته يمكننا أن نرى المرحلة السعيدة، التي بدأت عام 1976 وليس عام 1977. لكن في الشهور التالية للانتفاضات العنيفة في روما وفي بولونيا، في مارس 1977، يمكن أن نرى أيضًا إدراكًا متغيرًا، شعورًا بالرعب. في ذلك الانتقال ثمة شيءٌ يُفلت تمامًا من الإطار السياسي.

في عام 1977 أنتج إنجمار برجمان فيلم **بيضة الأفعى** ***The Serpent's Egg***، وربما لم يكن واحدًا من أفضل أفلام برجمان، لكنه رغم ذلك استبصارٌ بالغ الأهمية في بناء العقل الشمولي. وحين شاهدته، نهاية ذلك العام، شعرت بأن شيئًا في ذلك الفيلم يتحدث معي، معنا، مباشرةً.

بيضة الأفعى هو فيلم عن فترة حضانة النازية خلال الأعوام من 1923 إلى 1933. في تلك الأعوام، كانت بيضة الأفعى تنفتح ببطءٍ، لتلد وحشًا. وفي الفترة التي تلت انتفاضة الطلبة في مارس 1977، شعرنا بشيءٍ مشابه. تبيّنا رائحة شموليةٍ جديدة في طور التكوين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلال أشهر ربيع عام 1977، تم اعتقال عشرات المناضلين والمثقفين، وأغلقت بالقوة محطات إذاعة الحركة، وأطلقت الحركة نداءً لاجتماع عالمي ضد القمع جرى في بولونيا في سبتمبر. اجتمع مائة ألف شخص في بولونيا، متوقّعين سماع كلمةٍ تحررٍ سحرية لكن لم يتسنَ العثور على الكلمة السحرية.

بعد اجتماع سبتمبر أدركنا هزيمة الحركة، وانتشار العنف، والقوة المتزايدة للألوية الحمراء التي كانت تكتسب طاقةً ومناضلين من هزيمة الحركة.

وفي ألمانيا، كان خريف عام 1977 شهرًا بالغ الكآبة. اختطف فصيلُ الجيش الأحمر وقتلَ هانس مارتين شلاير Hans Martin Schleyer، رجل الشركات الضخمة الهام، وبعدها بأيام مات أندرياس بادرAndreas Baader، وكارل هانس راسبه Carl Hans Raspe، وجودرون إنسلين Gudrun Ensslin في زنازين سجنهم في شتامهايم، وربما قتلوا بأيدي حراسهم.

يحكي الفيلم المؤثر الذي صنعه شلوندورف، وفاسبيندر وآخرون، بعنوان ألمانيا في الخريف الاستشعارَ الواسعَ الانتشار للنهايةِ القادمة للتضامن الاجتماعي. ففي ذلك الفيلم يمكنك أن تستشعر الحزنَ المباغت، والضباب، والسحب التي تُخيّم على حيوات الناس، ويصبح سجن شتامهايم نوعًا من الاستعارة للسجن اليومي الذي تصيره الحياة الاجتماعية.

العودة إلى تلك الحركة وإعادة تقييمها قد يكون مثيرًا للاهتمام إذا استطعت العثور ضمن تلك الأوقات على نذيرٍ لما يجري في أيامنا هذه، نذيرٍ لتحوّلٍ أنثروبولوجي يتفتح في القرن الجديد الذي نسكنه. وفضلًا عن ذلك، خلقت تلك الحركة أيضًا بعض الترياقات لمشكلات اليوم وبعض الإمكانات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للنظر في اتجاهٍ آخر.

النزاع الاجتماعي والإطار السياسي

لستُ مؤرخًا، ولذا لا يمكنني إعادةَ بناءِ التتابع التاريخي بطريقةٍ دقيقة، لكنني سأبذل كل جهدي.

إذا نظر المرء إلى الوضع الاجتماعي في إيطاليا خلال فترة 76 -1975 لوجد أن البطالة تبلغ 15%، أغلبها بين الشباب. منذ عام 1969 كانت مصانع المدن الشمالية تغلي. في ميرافيوري، وألفا روميو، وبترولكيميكو، أهم معاقل الطبقة العاملة، نظّم المناضلون الشباب نضالاتٍ جذرية مستقلة ذاتيًا، وعادة ما كانوا ينتقدون الأجندة النقابية والأجندة السياسية للحزب الشيوعي الإيطالي (PCI). وربما كان احتلال فيات ميرافيوري عام 1973 أكثر فعلٍ مؤثر ضد الحكم الرأسمالي في تلك الأعوام. فقد قررت أغلبية العمال في أضخم مصانع إيطاليا احتلالَ المكان خلال مواجهةٍ طويلة مع الملاّك. كانت فيات مركزَ السلطة الاقتصادية، وصار ذلك النضالُ رمزًا لمقاومة الشعب ضد الحكم الرأسمالي.

كان الشباب الذين استأجرتهم فيات خلال السنوات الأسبق في أغلبهم مهاجرين قادمين من الجنوب؛ من كالابريا، وصقلية، ونابولي. كان صعبًا على أولئك الشبان أن يستبدلوا الشاطئ المشمس للجنوب الإيطالي، والكسل، وحشية الحياة في قرى البحر المتوسط، بحياة التوتر، والضباب، والدخان للمدينة الصناعية.

كان الاحتلالُ ناجحًا. وأجبر النقابةَ والمديرين على التفاوض وفق شروطِ المحتلين. وبعد نضال مارس عام 1973، حين قرر التنظيمُ المستقل ذاتيًا للعمال احتلال المصنع، أوقف مديرو فيات استئجار قوة العمل. لا مزيد من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التشغيل.

في ذلك العام، هاجمت سوريا ومصر إسرائيل في عيد يوم كيبور. وأثارت تأثيرات الحرب الناشبة الامتعاض في كل أرجاء العالم. فقد ارتفعت أسعار البترول بجنون. وتلقى الاقتصاد الغربي ضربةً موجعةً أدت إلى كسادٍ وأزمة بطالة مرتفعة في كل مكان. أعلنت الحكومة الإيطالية أن فترة تقشفٍ أصبحت ضرورية وأن على الناس أن يقدموا تضحيات من أجل الاقتصاد، ويجب أن تظل الأجور منخفضة، وأن يعمل العمال بجدٍ أكبر. بعدها، أطلق بعض الناس في مظاهرةٍ في شوارع بولونيا صيحة:

Loro dicono austerity, noi diciamo dissolutezza - sfrenatezza festa. يقولون «التقشف»، ونجيب: **«الحلّ، حرية العمل، العيد».**

.Un’onda di leggerezza si diffonde -

موجةٌ من الخفة واللامسئولية.

لا نريد بذل التضحية للرب اقتصاد. لا نؤمن بدوجما الإنتاجية. لن نمنح حياتنا للناتج القومي الإجمالي

.Se l’economia è malata che crepi -

إذا كان الاقتصاد مريضًا، فليتحطم.

تصادف أن كنتُ في تورينو عام 1973. في ذلك العام، في كل أرجاء أوروبا، اجتاحت مصانع السيارات موجةٌ من النزاعات الاجتماعية. في فيات تورينو، وأوبل روسلزهايم، وفولكس فاجن ورينو بيّانكور، أوقفت فورةٌ هائلة لعمال صناعة السيارات الشباب خطوطَ التجميع ودفعت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرأسماليةَ الصناعية الحديثة صوب نهايتها. وفي مصنع ميرافيوري خلال أيام الاحتلال، رأيتُ للمرة الأولى أناسًا يتنكّرون **كهنود مدن** indiani metropolitani؛ عمالٌ شباب، بشعرٍ طويل ووشاحٍ أحمر حول رقبتهم، يعزفون الطبول داخل ورش المصنع.

ميدانٌ ممتلئ بآلاف السيارات الجاهزة للاختبار- صفاراتها تدوي؛ المئات منها. ثم خرج حشدُ العمال الشباب من المصنع يدقون طبولًا حديدية. هذا الفعل لرفض حزن المصنع هو المقدّمة المنطقية لانفجار عام 1977.

هذا الجيل الجديد من العمال لم تكن له علاقة كبيرة بالتقاليد القديمة للأحزاب العمالية. كما لم يكن يربطه شيءٌ بالإيديولوجيا الاشتراكية لنظام ملكية الدولة. كان الرفضُ الواسع النطاق لحزن العمل هو العنصر الرئيسي وراء احتجاجهم. أولئك العمال الشباب كانت تربطهم علاقةٌ أكبر بحركة الهيبي؛ علاقةٌ أكبر بتاريخ الطليعة.

حاولت النزعات المستقبلية، والسوريالية، والدادائية إعادة اختراع سيرورة التنظيم السياسي. وقد كتب أومبرتو إيكو Umberto Eco ورقة حول هذا الموضوع، بعنوان C'è una nouvalingua: l'italo-indiano، (ثمة لغةٌ جديدة: الإيطالية - الهندية) يشدّد فيها على البعد اللغوي للتمرد الجديد. يقول: أناس الحركة الجديدة هم الأطفال الذين قرأوا قصائد المستقبليين، ويستخدمون الوسائط الإلكترونية لأول مرة. وهذا يخلق نوعًا من الطليعة. بفضل تكنولوجيا وسائط الاتصال الجماهيري، تصبح اللغة الموقعَ الرئيسي للمواجهة الاجتماعية - الشعر (اللغة التي تخلق عوالم مشتركة) دخل مجال التغيير الاجتماعي.

كانت هذه نقطة البداية لخلق السميورأسمالية semiocapitalism،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النظام الجديد الذي يتميّز باندماج الميديا ورأس المال. وفي هذا المجال، يلتقي الشعرُ بالإعلان ويلتقي التفكيرُ العلمي بالمشروع.

وفي نفس الوقت، بينما كان المجتمع الإيطالي في دوامة النزاع والتجديد، كان الإطار السياسي مسدودًا. كان الشيوعيون والمسيحيون الديموقراطيون، كنيستا الحزن هاتان، متحالفين في الهدف المشترك لاحتواء وقمع الحركة الاجتماعية التي كانت تنفجر في كل مكان.

يجب أن نقول شيئًا عن الحزب الشيوعي الإيطالي، الذي كان معروفًا بأن له نوعٌ مختلفٌ من الشيوعية. في الستينات، كان الحزب الشيوعي الإيطالي يُمتدح على نطاق واسع لأن له بعض الاستقلال النسبي عن حكم موسكو. وكان هذا صحيحًا جزئيًا. فالحزب الذي أعاد تأسيسه بالميرو تولياتي Palmero Togliatti في الأربعينات كان مختلفًا بعض الشيء عن الحزب الكلاسيكي اللينيني فيما يخص مشكلات التنظيم الداخلي والسلطة السياسية. لكن حين يتعلق الأمر بالعلاقة بين المجتمع والدولة، تصرّف الحزب الشيوعي الإيطالي دومًا كحزبٍ ستاليني: وحين تعلق الأمر بالاستقلال الذاتي الاجتماعي، كانت الستالينية هي اللغة الوحيدة التي يعرفونها.

كان الحزب الشيوعي الإيطالي مُجددًا في مجال التمثيل السياسي، لكنه لم يخلق لغةً جديدة في علاقته بالمجتمع. ومن هنا، حين انفجرت الحركة في المصانع وفي الجامعات كنضالٍ جذري ضد العمل وضد الدولة، كانت استجابة الحزب الشيوعي الإيطالي استجابة حزبٍ ستاليني كلاسيكي، يدافع عن الدولة ويدعم القمع ضد الحركة.

كانت الحكومة في تلك الأعوام نتيجة تحالف بين الحزب الشيوعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإيطالي وبين المسيحيين الديموقراطيين. واستهدفت سياسة المصالحة التاريخية تجنّب المواجهة الاجتماعية. لكن تأثير هذه السياسة كان توافقَ البرلمان ضد الحركة وضد كل فعلٍ نزاعي اجتماعيًا. ومن هنا، لم يوجد الكثير من التوسط السياسي في النزاع الاجتماعي، لأن الأغلبية الساحقة، 100% من البرلمان تقريبًا، كانت متحدةً ضد المجتمع. وهذا يفسّر الخلفية السياسية لانفجار عام 1977.

في عام 1975 أجازت هذه الأغلبية قانونًا (قانون ليجى ريالي Legge Reale، على اسم النائب الذي اقترحه). منح هذا القانون الشرطة الحق في إطلاق الرصاص على الناس الذين يُفترض أنهم يُشكلون تهديدًا. وكانت النتيجة قتل مئات الشباب المشكوك في أنهم يحملون سلاحًا رغم أنهم عادةً لا يحملونه فعليًا.

هنا يمكن رؤية ظروف الانفجار: 15% بطالة، أغلبها بين الشباب، ونزاعٌ اجتماعي منتشر في كل مكان، وحكومةٌ قوية يساندها برلمان مرّرت فيه الأحزابُ السياسية الموحّدة قوانين قمعية.

لكنني مهتمٌ أيضًا بتوضيح الخلفية الاجتماعية والثقافية. كان الإطار العام للتغيير الاجتماعي هو العلاقة بين العمال الشباب الرافضين للعمل في المصانع، والطلبة، والباحثين، والعمال الذهنيين. Operai e studenti uniti nella lotta (العمال والطلبة متحدون في النضال). لم يكن هذا شعارًا فارغًا، بل صورة جيدة للوضع الموسوم بانبثاق حركةٍ ذات ذهنيةٍ جماعية كفاعلٍ اجتماعي.

أما هانس يورجن كرال Hans Jürgen Krahl، أحد زعماء حركة الطلبة في ألمانيا، فكان مؤلف نصٍ بالغ الأهمية في تلك الأوقات هو: Thesen

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Uber Technisch Wissenschaft Intelligenz (أطروحات في ذكاء العلم التقني). وفيه قال كرال إن مشكلة التنظيم السياسي لم تعد منفصلةً عن الآلة الاجتماعية (مثلما كانت في العصر اللينيني)، لكنها متجذّرةٌ في التنظيم الذاتي للعمل الذهني. كان العمل الإدراكي يتزحزح صوب مركز المشهد الاجتماعي.

إذا استطعنا ربطَ رفضِ العمل بالذكاء العلمي - التقني لاكتشفنا أن العملَ الذهني ليس عملًا بل حريةً. فتطبيق التكنولوجيا على الأتمتة automation يخلق شروط تخفيض زمن العمل. والعلاقة بين الطلبة والعمال لا تقوم على الإيديولوجيا، بل على فهم أرضيةٍ مشتركة في مجال المعرفة، والتكنولوجيا، والتحرر من العمل.

آخر عِصيانٍ في القرن العشرين

في ربيع عام 1975، بدأنا نطبع مجلة عنوانها **آ/ترافرسو A/traverso** . منحتنا ماكينة الأوفست الجديدة إمكانية توضيب الصفحة بطريقةٍ أكثر حريةً من ماكينة طباعة الحروف القديمة. استخدمنا تقنية الكولّاج الدادائية، بأخذ حروفٍ من الصحف، وقطع صور، ومزجها ولصقها على الصفحة ثم تصويرها وطبعها بكاملها. كان الناس الذين كتبوا في المجلة هم نفس الناس الذين أطلقوا راديو أليس في فبراير عام 1976، وهم مجموعةٌ من الشعراء البروليتاريين الشباب: راغبين مستقلين ذاتيًا، creativi trasversali [مبدعين تقاطعيين]، إخوةً أصغر للطلبة ذوي ربطات العنق لعام 1968. كانت قراءاتهم أقل سأمًا من إخوتهم الأكبر. لم يكونوا يقرأون الكثير من ماركس ولينين، بل ويليام بوروز William Burroughs ورولان بارت Roland Barthes. وعلى صفحات **آ/ترافرسو**، تكرر مفهومٌ محوري بألف طريقة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Collective happiness is subversion, subversion is collective happiness

السعادة الجماعية تخريب، التخريب سعادة جماعية

وحين بدأ **راديو أليس** البث في فبراير 1976، اجتمع دستة من العماليين - الأناركيين، ما بعد – الهيبي - والـپانك - الأوائل في شقة بالطابق العلوي عند سقف مدينة بولونيا العتيقة، وأرسلوا إشاراتٍ ملتبسة. كانت الإثارة تتزايد. كان السياق السياسي (المصالحة التاريخية للشيوعيين والكاثوليك) أضيق من أن يتسع للمجتمع الذي يفور. كانت النزاعات تنتشر في المصانع، وفي احتلالات المباني، وفي أحداث الاستحواذ المتناثرة في كل أنحاء البلاد.

Il comunismo è libero e felice dieci cento mille Radio Alice – الشيوعية حرة وسعيدة: عشرة مائة ألف راديو أليس

كانت المستقبلية والدادابية هي النقاط المرجعية لهذه الحركة الجديدة التي شهدت توالدًا لكتابةٍ ووسائط جديدتين من قبيل مجلةٍ أخرى هي Il Corrispondente Operaio **(المراسل العمالي)**. كان هدفنا أن نكتب في الصميم من مسافة قريبة - أن نصوِّب على الجذور - بشريط صوتٍ لجيوفانا ماريني وجيفرسون آيربلين(9)Giovanna Marini & Jefferson Airplane. سعينا إلى إلغاء الانفصال بين الفن والحياة اليومية، أو في الحقيقة، إلى إلغاء الفن والحياة اليومية ذاتها.

في العشرينات كانت الطليعةُ ظاهرةً نخبوية، ومع حلول السبعينات أخذت تصبح خبرةً جماهيرية في خلق بيئةٍ سميوطيقية للحياة. بفضل محطات الإذاعة، بفضل المجلات المستقلة ذاتيًا التي تنتشر في كل مكان، تم إطلاق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيرورةٍ واسعة النطاق للسخرية الجماهيرية.

كانت السخرية تعني تعليق الثِقل السيمانطيقي للعالم. تعليق المعنى الذي نمنحه للإيماءات، للعلاقات، لشكل الأشياء. رأينا فيها تعليقًا لمملكة الضرورة وكنا مقتنعين أن السلطة هي سلطةً بقدر ما يأخذُ السلطةَ على محمل الجد من ليست لديهم سلطة.

وفي الحقيقة، حين تصبح السخريةُ لغةً جماهيرية، تفقد السلطةُ أرضيتها، وسطوتها، وقوتها. كان ذلك زمن انشقاقٍ، زمن انشقاقٍ ما هو ساخرٌ عما هو دوجمائيٍ، زمن الماو - دادائية: الانشقاق عن تعصُّب السياسة ورفض العمل: الانشقاق عن تعصب الاقتصاد.

ماذا يعني أن تكون ثريًا؟

أصبح التناقض بين البروليتاريين الشباب وبين العمال الصناعيين القدامى واضحًا في أكتوبر عام 1976 خلال النضال في مصنع إنّوشنتي Innocenti، وهو مصنع لإنتاج السيارات في ميلانو. لم يتعود الشباب، المستأجرون حديثًا، على الاستغلال ونظّموا أنفسهم دفاعيًا بالتغيّب: بالهروب الجماعي من العمل. فُصل بعضهم فتلت ذلك الإضرابات كاستجابة. لكن العمال القدامى لم يشاركوا في الإضرابات معتقدين أن المخرّبين الشباب ليس لهم الحق في المطالبة بوظائفهم ما داموا لا يحبون العمل. لم تعد مسألة الشباب مجرد مشكلة سوسيو - ثقافية، بل أخذت تصبح عنصرًا في إعادة تعريف الإطار السياسي للحركة العمالية ذاته، وعنصرًا في إعادة التركيب الاجتماعية.

كان الشباب يعانون تأثيرات الانكماش الاقتصادي الذي بدأ عام 1973 في أعقاب صدمة البترول بسبب حرب يوم كيبور. كانت البطالة مرتفعةً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين الشباب، وبدأ العمل المُقلقل precarious في الانتشار للمرة الأولى. لم تقاتل الحركة من أجل التشغيل الكامل بل من أجل النقود. وأخذت تنتشر أعمال الاستحواذ القانوني وغير القانوني وتَشارُك السلع. تشارك الشبابُ في كل شيء: المنازل، والملابس، وأشياء الحياة اليومية. كان الناس يعملون أقل ويخصصون وقتًا أكبر للمتعة. لم يكن ثمة أي شعور مطلقًا بالتضحية، بصرف النظر عن الانكماش الاقتصادي: لا فقر، ولا نكران ذات. لم يكن يُنظر إلى الثراء على أنه امتلاك أشياء كثيرة لاستهلاكها، بل على أنه امتلاك الوقت للمتعة. لم يكن الثراء يعني امتلاك كمية كبيرة من النقود، بل ما يكفي للعيش دون العمل أكثر مما يجب.

هنا ترون أي سؤالٍ مُلغزٍ تم طرحه: لماذا تكون هناك فتراتٌ تجذب فيها الأجسادُ البشرية بعضها، وترقد فيها الأرواح سويًا بحبور، وفتراتٌ يبدو فيها أن التقمص الذاتي [المواجدة] empathy يتلاشى وتبقى الكائنات البشرية وحيدة ويائسة؟ أية ديناميات تُنتج المعمار الثقيل الوطأة للاكتئاب وأيها يحكمُ المعمار الخفيف للعيش معًا بسعادةٍ؟

قاد العداء المتزامن تجاه النظام الرأسمالي وتجاه الحزب الشيوعي الإيطالي الحركة إلى قطع كل علاقاتها باليسار التاريخي. وبلغ القتال ضد الحزب الشيوعي الإيطالي ذروته في فبراير عام 1977، حين تم طرد الزعيم الشيوعي للنقابات، لوتشيانو لاما، من جامعة روما، حين كان قد ذهب مع الكثير من الحراس الشخصيين ليستعرض ويروِّج للأجندة السياسية للحزب الستاليني - الإصلاحي، الذي كان يسيطر على الحكومة مع المسيحيين الديموقراطيين.

كانت أجندة الحزب الشيوعي الإيطالي تستهدف تحريض العمال ذوي الوظيفة المنتظمة ضد البروليتاريين الشباب غير النظاميين، والعاطلين،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمقلقلين، والمنخفضي الأجر. تجمع آلاف الطلبة، وهنود المدن والعمال الشباب في الميدان الكبير وأحدثوا ضوضاء جهنمية فيما حولهم. أصبح الجو متوترًا، واضطر الزعيم للمغادرة. رفضت الحركة التمييز بين العمال النظاميين والعاطلين. «كلنا مقلقلون» هكذا صاحوا. وبعد ثلاثين عامًا نعرف كم كانوا على صواب.

كانت مدينة بولونيا رمزًا للسلطة الرأسمالية - الشيوعية. في تلك الأعوام كانت بولونيا تعج بالحيوية. كانت الجامعة تمتلئ بطلابٍ قادمين من الأقاليم الجنوبية للبلاد، وآخرين قادمين من الخارج. وكان يدرّس في تلك الفترة أساتذةٌ ذوي شهرةٍ وحكمةٍ كبيرتين. وقد افتُتح للتو قسمٌ للفنون والموسيقى، كان جاذبًا للعديد من الطلبة الذين يريدون مزج الشعر بالعمل السياسي، والالتزام الاجتماعي بالفن.

وبولونيا هي أيضًا مدينة شديدة المحافظة. إنها الإقليم الذي خُلقت فيه الفاشية وانطلقت منه، وبعد الحرب العالمية الأولى، تحوّلت الطبقةُ الاجتماعية التي ولّدت الفاشية إلى هذا المزيج الخاصِ من الستالينية الإصلاحية التي جسّدها الحزب الشيوعي الإيطالي.

طوال تاريخها كانت بولونيا دومًا مدينةً منقسمةً بين الناس البدو والمستقرين. فأول جامعة في العالم (يُقال إنها تأسست هنا) كان قد خلقها حشدٌ من البدو والرهبان الذين أتوا من كل أنحاء أوروبا ليستمعوا إلى الحكماء والشعراء والأطباء. وجاء القساوسة الجوّالون من المدن الألمانية، والصحراوات العربية، والأندلس، وصقلية، والأراضي البولندية.

وخلال العصر الحديث تمكنت بولونيا من الازدهار بفضل توازنٍ متقلقل بين العمال البدو والتجار والمزارعين والمصرفيين المستقرين. واليوم يمثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البدو الطلبة، والباحثون، والعمال المهاجرون الذين يعيشون في المدينة لفترةٍ تطول أو تقصر، لكنهم لا يصبحون أبدًا من أبنائها حقًا. يجلب البدوُ المعرفةَ، والنقود، والطاقة، بينما يُمسك السكانُ المستقرّون بزمام السلطة ويستغلون البدو (فالطلبة يدفعون إيجارًا مرتفعًا بشكلٍ لا يُصدّق من أجل غرفة للنوم). ليس ذلك عادلًا، لكنه يعمل بوجهٍ عام.

أحيانًا تسوء العلاقات، وتتدهور الأمور في المدينة. وفي ربيع عام 1977 كان في بولونيا نوعٌ معين من الهياج بسبب كل تلك الأفكار التي يتم تداولها في المجال ـ العصبي.

كانت الجامعة تمتليء بالتيرّوني terroni (القادمين من الجنوب)، والألمان، والكوميديين، والموسيقيين، ورسامي الكاريكاتور أمثال أندريا بازبينزا زفيليبو سكوتزاري. كان الفنانون يحتلون المنازل في وسط المدينة، ويديرون أماكن إبداعية مثل راديو أليس وتراومفابريك Traumfabric.

كان بعض الناس يقرأون كتبًا من قبيل ضد- أوديب Anti-Oedipus، والبعض يتلون قصائد مایاكوفسكي وآرتو، ويستمعون إلى موسيقى كيث جاريت وذا رامونز، ويستنشقون مواد تحفز الأحلام. كان الوضع الاجتماعي متوترًا. كان الانكماش الاقتصادي يحتدم في كل أنحاء العالم. وكان الطلبة التيرّوني يعيشون كل أربعةٍ في غرفة. كان الحزب الشيوعي الإيطالي متحالفًا مع المسيحيين الديموقراطيين، والنظام السياسي في إيطاليا يتحول إلى كتلةٍ محافظة، والجناح اليميني والجناح اليساري متحدين ضد الانتفاضة الاجتماعية. شن الحزب الشيوعي في بولونيا حملات ضد المحرّضين، واتهم الطلبة بتلقي الأموال من الأجهزة السرية لدولٍ أجنبية. إلّا أن ذلك الحزب بدأ يتدهور في بولونيا مثلما في بولندا وتشيكوسلوفاكيا، حيثما كانت الأحزاب الستالينية تضطهد الناس بالعنف والامتثال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الرسائل الساخرة إلى الرسائل المغالية

من فبراير إلى مارس عام 1977، تمكنت مجموعة صغيرة من المخربين - السميوطيقيين من تحويل النزاعات الاجتماعية إلى أحداثٍ لا يمكن التنبؤ بها من خلال تعطيل الحياة اليومية المدينية وتحريف رسائل الميديا. وعند نهاية فبراير أطلقت **آ/ترافرسو** مجلةً جديدة، بعنوان طويل مغالٍ، «الثورة عادلة، وممكنة، وضرورية: انظروا يا رفاق، الثورة محتملة». أطلقت عددًا من المطالب من قبيل:

نريد نزعَ ملكية كلِّ أصول الكنيسة الكاثوليكية

خفّضوا ساعات العمل، ارفعوا عدد الوظائف

ارفعوا كمية الأجور

حوّلوا الإنتاج وضعوه تحت سيطرة العمال

تحرير كمية الذكاء الضخمة التي تهدرها الرأسمالية: التكنولوجيا استُخدمت حتى الآن كوسيلةٍ للسيطرة والاستغلال. ويجب أن يتم تحويلها إلى أداةٍ للتحرر.

العمل أقل ممكنٍ بفضل تطبيق السيبرنطيقا والمعلوماتية.

صفرُ عملٍ مقابل الدخل

أتمِتوا كل الإنتاج

كل السلطة للعمل الحي

كل العمل للعمل الميت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونحن نكتب هذه المطالبات الصاخبة كنا نعلم أننا نلعب بالكلمات كما لو كنا نلعب بالنار. وقد اندلعت النار.

يوم 11 مارس قُتل طالبٌ بيد الشرطة في بولونيا خلال مظاهرة. وفيما بعد الظهر التالي في كل مكان بالجامعة قررت اجتماعات الطلبة الرد بالقتال: أغرق عشراتُ الآلاف من الناس شوارعَ المدينة، مُحطِّمين واجهات البوتيكات الفاخرة والبنوك.

ويوم 12 مارس غزا الطوفانُ شوارعَ العديد من المدن. بينما في بولونيا أقام الطلبة المتاريس في الشوارع المحيطة بالجامعة المحتلة، وفي روما تجمع مائة ألف شخص للتظاهر والقتال. عندها ضربت قوى القمع من جديد.

أغلقت الشرطة راديو أليس ليلة 12 مارس. وخلال الأيام التالية أعيد فتح وإغلاق الراديو عدة مرات. أُلقي القبض على من وُجدوا داخل محطة الراديو وأودعوا السجن خلال الأشهر التالية. تم تفتيش المكتبات. واعتُقل مئات المناضلين.

وفي يوليو أطلقت مجموعة من المثقفين الفرنسيين تضم جواتاري، ودولوز، وبارت، وسارتر، وسولير، وكريستيفا بيانًا ضد القمع في إيطاليا. قررت الحركة الدعوة إلى لقاءٍ عالمي حول نفس الموضوع. كان القمع يتحول إلى مصدرِ القلق الرئيسي، وكانت هذه بداية الهزيمة.

حمل عدد يوليو من آ/ترافرسو عنوانا اعتُبر استفزازًا «الثورة انتهت. ربحنا».

لم يكن هذا العنوان استفزازًا فحسب. بل كان أيضًا تقييمًا لمعنى الفعل المستقل ذاتيًا: التمرد ليس وسيلةً صوب السلطة السياسية. الثورة لا تدور حول انهيار الدولة. وأفضل طريقة لتعريف التمرد الجديد هي المفهوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدولوزي لخط الهروب: الخروج من مملكة الاستغلال وخلق مجالٍ اجتماعي جديد، لا علاقة له بالسلطة، أو العمل، أو السوق. وفي الحقيقة حمل العدد التالي من آ/ترافرسو عنوان: «من فضلكم لا تستولوا على السلطة».

لا تقلق على مستقبلك، فليس لك مستقبل

أثار بيانُ المثقفين الفرنسيين نقاشًا حول مسألة المثقفين ومكانهم في المجتمع الحديث. وبعد نشر البيان دعونا إلى اجتماعٍ ضد القمع. وجرى الاجتماع في بولونيا في سبتمبر عام 1977. اجتمع مائة ألف شخص هناك لثلاثة أيام لمناقشة كل شيء: ماضي المشروع الثوري وحاضره، القمع والرغبة، الكفاح المسلح واللاعنف، والأشكال القديمة والجديدة للتنظيم.

توقّع القادمون إلى بولونيا أن يجدوا الكلمة السحرية التي تفتح الطريقَ للمرحلة التالية للحركة. لكن لم ينطق هذه الكلمة السحرية أحدٌ، لم يكن الحلُ لدى أحدٍ: كان الهجوم المضاد الرأسمالي يأخذ مجراه، وكان القمع يدفع المزيد والمزيد من الشباب إلى صفوف الألوية الحمراء وغيرها من المنظمات المسلحة. كان يجري إعدادُ الثورةِ المضادة الثقافية. وفي الأعوام التالية فتحت الطريقَ إلى التوبة الفردية، وإلى الهيروين، وإلى الوحدة، وإلى الإرهاب.

لم يكن إطلاقُ اجتماعٍ حولَ موضوع القمع فكرةً جيدة. كان الكثيرُ من الناس مسجونين بحيث ظننّا أنه الهمّ الرئيسي، لكنه لم يكن. ما كان يجب أن يكون الموضوع الرئيسي هو القمع، بل طريقة الإفلات من الاستعادة الرأسمالية القادمة، إمكانيةَ إطلاق فكرةٍ جديدة للاستقلال الذاتي، فالتركيز على موضوع القمع فتح الطريقَ للموقف - المضاد العسكري، وللعنفِ ولليأس المتزايدين، لكن ذكرى ذلك العام لم يتم إلغاؤها، لأن الأمل في عالمٍ تسودُ فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصداقةُ على المنافسةِ والبهجةُ على الاضطهادِ لا يمكن إلغاؤه. لهذا السبب سيظل عام 1977 ماثلًا، إنه الثورة القادمة.

الكابوس بعد نهاية الحلم

في سبتمبر، قام مناضلو فصيل الجيش الأحمر RAF بعملية اختطافٍ عنيفة لهانس مارتين شلاير Hans Martin Schleyer، وهو ضابطٌ سابق في قوات الحماية النازية SS والفرع الخارجي للحزب النازي NSDAP، كان حينها رئيس جمعية أصحاب الأعمال الألمان (وبذلك يكون أحد أقوى الصناعيين في ألمانيا الغربية).

ثم تلقت الحكومةُ الفيدرالية خطابًا يُطالب بالإفراج عن أحد عشر معتقلًا، بينهم زعماء فصيل الجيش الأحمر المسجونين في سجن شتامهايم.

استطالت الأزمةُ لأكثر من شهر، بينما يقوم مكتب التحقيق الجنائي الفيدرالي بأضخم تحقيقٍ في تاريخه. وتصاعدت الأمور يوم 13 أكتوبر، حينما اختُطفت الرحلة 181 لشركة لوفتهانزا من پالما دي مايوركا إلى فرنكفورت. سيطرت مجموعة من أربعة عربٍ على الطائرة المسماة لاندشوت. قدَّم القائدُ نفسَه للمسافرين على أنه «الكابتن محمود» الذي ستتحدد هويته فيما بعد على أنه زهير يوسف عكاش. وحين هبطت الطائرة في روما للتزود بالوقود، أصدر نفس مطالب مختطفي شلاير بالإضافة إلى الإفراج عن فلسطينيين مُحتجَزين في تركيا، ودفع خمسة عشر مليون دولارًا أمريكيًا.

جرت عمليةُ إنقاذٍ بالغة الخطورة قادها هانس - يورجن فيشنيفسكي، نائب الوزير في مكتب المستشار، الذي طار سرًا من بون. في يوم 18 أكتوبر بعد خمس دقائق من منتصف الليل، اقتحمت الطائرة قوة GSG 9؛ وهي وحدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قواتٍ خاصة للشرطة الفيدرالية الألمانية، في هجومٍ دام سبع دقائق. قُتل الخاطفون الأربعة؛ ومات ثلاثةٌ منهم في الحال. لم يُجرح راكبٌ واحد جراحًا خطيرة وتمكن فيشنيفسكي من مكالمة شميت وإبلاغ وحدة الأزمة في بون بأن العملية قد نجحت.

بعدها بنصف ساعة، بثت الإذاعةُ الألمانية أنباء الإنقاذ، التي استمع إليها سجناء شتامهايم من أجهزة الراديو. وخلال الليل، وُجد بادر Baader ميتًا بجرح رصاصةٍ في مؤخر رأسه، ووُجدت إنسلين Ensslin مشنوقةً في زنزانتها؛ ومات راسبه Raspe في المستشفى في اليوم التالي من رصاصةٍ في الرأس. أما إيرمجارد موللر Irmgard Möller، التي أصيبت بجروحٍ عدة طعناتٍ في الصدر، فنجت وأُطلق سراحها عام 1994.

وفي يوم 18 أكتوبر، قُتل هانس مارتين - شلاير بالرصاص بيد مختطفيه على الطريق إلى مولوز، بفرنسا. وفي اليوم التالي، أعلن مختطفوه أنه «أعدم» وحدّدوا مكانه. ووجدت جثته في نفس اليوم في صندوق سيارة أودي 100 في شارع شارل بيجي.

وفي 25 ديسمبر، توفي تشارلي تشابلن، الرجل الذي حكي حكاية نزع إنسانية عملية الصناعة، والذي أظهر لطف من استطاعوا أن يكونوا إنسانيين رغم كونهم فقراء. لم يعد ثمة مكان للطف في العالم. وفي الأيام الأخيرة لعام 1977 عَرَض فيلم حمّى ليلة السبت طبقةً عاملةً جديدة، سعيدةً بأن تُستغلّ طوال الأسبوع مُقابل بعض التسلية في الديسكو.

وكان عام 1977 عام انتحار الشباب الجماعي في اليابان: والرقم الرسمي هو 784. وما سبّب الاحتجاج العنيف هو التتابعُ السريع، عند نهاية الإجازة الصيفية لذلك العام، لحالات انتحار الأطفال: ثلاث عشرة حالة، بالضبط، كلها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين أطفال المدارس الأولية. وما يُثير الحيرةَ هنا ليس العدد بقدر مجانيةِ وعدم قابليةِ هذه الإيماءة للفهم: ففي كل هذه الحالات، لا توجد دوافعُ أو أسبابٌ لهذا الفعل. ثمة افتقادٌ لافتٌ للكلمات، وعدم قدرة من جانب البالغين الذين عاشوا مع طفلهم على التنبؤ بما حدث، أو فهمه، أو تفسيره.

في اليابان، مثلما في أوروبا والولايات المتحدة، يُعد 1977 عام العبور إلى ما وراء الحداثة، لكن في أوروبا، أشارت إلى هذا العبورِ فلسفةُ مؤلفين من قبيل بودريّار، وڤيريليو، وجواتاري، ودولوز، والوعي السياسي للحركات الجماهيرية من قبيل الأوتونوميا autonomia الإيطالية أو الپانك في لندن، وبينما أخذ في أمريكا الشمالية شكل انفجارٍ ثقافي، شكلَ حركة تحوّلاتٍ مدينية تجد تعبيرها في «النو وييف no wave» الفني والثقافي، يبدو العبور في اليابان دون توسّط، كبشاعةٍ لا تقبل التفسير تصبح بسرعةٍ اعتياديةً يومية، تصبح الشكلَ السائد للوجود الجماعي.

منذ عام 1977، اتخذ انهيارُ العقلِ الغربي مسارًا تسلّليًا، خفيًا، عرَضيًا، لكنه يأخذ، عند عتبة الألفية، إيقاع هاويةٍ، كارثةٍ لم يعد يمكن احتواؤها. ما أشار إليه وعيُ عام 1977 باعتباره خطرًا وإمكانًا مُضمرًا في تسارع الإيقاعات الإنتاجية والوجودية، يصبح خبرًا يوميًا. أشارت إلى هذا العبور أحداثٌ معينة، أصبحت فيروسات، تحمل معلومات تستنسخُ، وتُولّد، وتُعدي مجملَ الكيان العضوي الاجتماعي، لكن الأشدّ تأثيرًا بالتأكيد، هو الحدث الاستثنائي للبرجين التوأم وهما ينهاران في سحابةٍ من الغبار في أعقاب الانتحارِ القاتل لتسعة عشر شابًا مسلمًا، إنه الحدثُ - الصورةُ الذي يستهِلُّ بصورةِ استعراضية العصرَ الجديد، لكن مذبحة مدرسة كولومباين، التي وقعت قبل ذلك ببضعة أعوام، ربما حملت رسالةً خارقةً أكثر، لأنها تتحدث عن الحياة اليومية، عن الاعتياديةِ الأمريكية، عن اعتياديةِ بشريةٍ فقدت كل علاقةٍ بما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اعتاد أن يكون إنسانيًا وتمضي متعثّرةً بحثًا عن تطمينٍ مستحيلٍ في سعيها إلى بديلٍ لمشاعر لم تعد تعرفها.

عامُ النذير

يمكننا النظر إلى 1977 باعتباره آخر حركةٍ للبروليتاريين ضد الحكم الرأسمالي، لكن أيضًا باعتباره عامَ الإعلانِ عن نهاية العصر الحديث، الوعيِ المباغت بأنه لم يعد ثمة مستقبلٌ مُعطى في مجال الحداثة. ثقافة ذلك العام لا تتضمن فقط نقدًا للمجتمع الرأسمالي، بل نقدًا للحداثة أيضًا. هنا أيضًا يكمن جِذرُ التباسِ تلك الثقافة، الحافة المزدوجة لنزعةٍ مجتمعية رومانسية فتحت الطريقَ أمام استعادةِ اليمينِ للقيم التقليدية.

في ثقافة ذلك الجيل من المتمردين الذين يقرأون هايدجر ونيتشه، بوروز وفيليب ديك، كان ثمة وعيٌ بأن الرأسمالية تدخل عضويًا في الأشكال الأنثروبولوجية التي صُنعت منها الحداثة. وُضعت مشكلة التقنية على الطاولة بواسطة حركة رفض العمل. لا يُنظر إلى التكنولوجيا باعتبارها مجرد نسقٍ من الأدوات، بل يجري إدراكها كبعدٍ يفرضُ الكلّيةَ، يفتح تشعباتٍ ممكنة لانهائية، وفي نفس الوقت يفرضُ إطارًا لا مفرَّ منه من القيود الاقتصادية. كانت نهايةُ صورِ المستقبلِ التي حدستها ثقافة ذلك العام هي هذا الانغلاقُ لأفقِ الإمكانات. وهذا هو السبب في أن أمثولة عام 1977 تمضي من التمرد الطوباوي إلى اليأسِ الماثلِ بوضوحٍ للتطورات الديستوبية [اليوتوبية المعكوسة] المحدِقَة.

أعلنت حركة 1977 أن «الديموقراطية تحتضر»، وتم اتهامها بأنها مناهضةٌ ـ للديموقراطية. كنا فقط نُلاحظ نزوعًا: أن سياسة التمثيل تعملُ بشكلٍ زائف. تصبح الديموقراطية طقسًا خاويًا أكثر فأكثر، مجرّدةً من القدرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على تقديم بدائل حقيقية واختيارات حقيقية.

في مجال الحداثة، كانت السياسةُ قرارًا واختيارًا بين بدائل، لكن حيث أن الرأسمالية قادرةٌ على الجمع بين سلطة الاقتصاد وقدرة التقنية، فإن كفاءة القرارِ السياسي محكومٌ عليها بأن تتلاشى.

واليوم، بعد ثلاثين عامًا، أصبح تآكلُ السياسةِ مكشوفًا وبديهيًا. فزواج الاقتصاد والتقنية جعل الديموقراطيةَ كلمةً ميتة. كان 1977 هو الوعيُ المباغتُ بأن التاريخ يصبح سلسلةً من الآليات الذاتية غير القابلة للانعكاس. أصبح ما كتبته الرأسماليةُ في جسد وعقل الكائنات البشرية جزءًا من المخزون الجيني.

---

(1) الحشد هو مجموعةٌ من الناس لا يمكن تصنيفها إلّا بحقيقة وجودها المشترك. أما السرب فيسلك في حركته المشتركة سلوكًا متناغمًا ينبع من اتباع أفراده لقواعد ذاتية لا تتضمن أي تنسيقٍ مركزي.

(2) احتجاجات سياتل، معركة سياتل (30 نوفمبر/3 دبسمبر 1999): أول احتجاج جماهيري واسع تنظمة العمالة الإدراكية ضد وحشية النيوليبرالية. طوّق فيها آلاف المتظاهرين المؤتمر الوزاري لمنظمة التجارية العالمية ومنعوا انعقاد المؤتمر الذي كان من المقرر أن يُطلق جولة مفاوضات تجارية عالمية جديدة.

(3) سيد فيشاس، هو سايمون جون ريتشي (1957ـ 1978): بريطاني، عازف الباص الأسطوري لفريق «سيكس بيستولز». حالة مأساوية لواحد من رموز الـپانك دمر نفسه بالمخدرات القوية لرعبه من العالم. وجد قتيلًا بعد أربعة أشهر من مقتل صديقته في نيويورك.

(4) سجن شتامهايم: السجن الشديد الحراسة الذي كان زعماء فصيل الجيش الأحمر أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جماعة بادر ماينهوف محتجزين فيه.

(5) تقاطع Transversal: تعبير هندسي يتقاطع فيه خط مستقيم مع خطين أو أكثر على نفس المستوى ويبين إن كانا متوازيين.

(6) Vectoral / vectorial من Vector: كمية متغيرة من قبيل القوة، لها مقدار واتجاه ويمكن تحليلها إلى مكونات متنافرة مع الإحداثيات.

(7) الإدراج: الانضواء تحت تصنيف أكبر، وقد صاغ ماركس في الجزء الأول من رأس المال مفهوم الإدراج الواقعي والشكلي الرأسمالي الذي يصف سيروراتٍ مختلفة بواسطتها يسيطر رأس المال على سيرورةٍ اقتصادية معينة.

(8) أبناء فورة المواليد التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. يُحسب من 1946 إلى 1964.

(9) جيوفانّا ماريني (1937): مغنية وكاتبة أغانٍ وباحثة في موسيقى الشعوب. درّست في جامعة فانسين الفرنسية، أما جيفرسون إيربلين فيه فرقة روك سايكيديليك رائدة من سان فرنسيسكو، كاليفورنيا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

02. العمل - المعلوماتي و«زرعُ التقلقل»

ليس لنا مستقبلٌ لأن حاضرنا بالغ التقلُّب. ليس لدينا سوى إدارة - المخاطر. تدوير سيناريوهات اللحظة المعطاة.

- ويليام جيبسون، Pattern recognition

في فبراير عام 2003، نشر الصحفي الأمريكي بوب هربرت في النيويورك تايمز نتائجَ مسحٍ إدراكي لعيّنةٍ من مئات الشباب العاطلين في شيكاجو: لم يتوقّع أيٌ من المُحَاوَرين العثورَ على عملٍ خلال السنوات القليلة المقبلة، ولم يتوقع أيٌ منهم أن يكون قادرًا على التمرد، أو أن يُحدِث تغيرًا جماعيًا واسع النطاق. كان المعنى العام للحوارات هو شعورٌ بالعجز العميق. ولم يبدُ أن إدراكَ التدهور مركزٌ على السياسة، بل على قضيةٍ أعمق، على سيناريو تعقُّدٍ اجتماعي ونفسي يبدو أنه يُلغي كلَّ إمكانيةٍ لبناء البدائل.

تشظّي الزمن الحاضر ينقلبُ إلى انطمارِ المستقبل.

في كتاب **تآكل الشخصية: العواقب الشخصية للعمل في الرأسمالية الجديدة** (1988) *The Corrosion of Character: The Personal Consequences of Work in the New Capitalism*، يستجيب ريتشارد سينيت Richard Sennett لشرطِه الوجودي من التقلقل والتشظي بالحنين إلى حقبةٍ ماضية كانت الحياة فيها مُبنيَنةً في أدوارٍ اجتماعية مستقرةٍ نسبيًا، وكان للزمن اتساقٌ خطّيٌ كافٍ لتفسير دروب الهوية.

انكسر قوس الزمن: في اقتصادٍ خاضعٍ لإعادة هيكلةٍ دائمة وقائمٍ على المدى القصير ويكره الروتين، لم تعد توجد مساراتٌ محدَّدة. يفتقد الناس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العلاقاتِ الإنسانية المستقرة والأهدافَ البعيدة المدى. لكن هذا الحنين لا سيطرةَ له على الواقع الراهن، وتظل محاولات إعادة تفعيل المجتمع مُصطنعةً وعقيمة.

في مقالها «مُقلقلون نحن؟»(2005)«?Precari-us» تلاحظ آنجيلا ميتروبوولوس أن القلقلة هي مقولةٌ مُقلقلة. وهذا لأنها تعرّف موضوعها بطريقة تقريبية، لكن أيضًا لأن من هذه المقولة يتم اشتقاق استراتيجيات متضاربة، متناقضة - ذاتيًا، أي مُقلقلة بعبارة أخرى. إذا ركزنا اهتمامنا النقدي على الطابع المقلقل للأداء الوظيفي فماذا يمكن أن يكون هدفنا المقترح؟ هل هو الوظيفة المستقرة، المضمونة مدى الحياة؟ بالطبع لا، فهذا سيكون نكوصًا ثقافيًا سيُخضعُ بشكلٍ حاسم دورَ العمل. بدأ البعض يتحدثون عن «flexicurity» (الضمان المرن) ويقصدون أشكالًا من الأجر مستقلةً عن الأداء الوظيفي. لكننا ما زلنا بعيدين عن امتلاك استراتيجية لإعادة التركيب الاجتماعية للحركة العمالية حتى ننتزع أنفسنا من الاستغلال اللامحدود. نحن بحاجةٍ إلى مواصلة خيط تحليل التركيب والتحلل الاجتماعيين إذا أردنا تمييز الخطوط الممكنة لسيرورة إعادة تركيبٍ قادمة.

في السبعينات، نجد أن أزمة الطاقة، وما ترتب عليها من انكماش اقتصادي، وأخيرًا استبدال العمل بآلات رقمية قد نتج عنها تشكُّل عددٍ كبير من الناس دون ضمانات. ومنذ ذلك الحين أصبحت مسألة التقلقل محورية للتحليل الاجتماعي، وكذلك في طموحات الحركة. بدأنا بأن اقترحنا أن نناضل من أجل أشكالٍ من الدخل المضمون المنفصل عن العمل، لمواجهة حقيقة أن جزءًا كبيرًا من السكان الشباب ليست لديهم إمكانية الحصول على وظيفةٍ مضمونة. وقد تغير الوضع منذ ذلك الحين، لأن ما بدا حالةً هامشيةً ومؤقتة أصبح اليوم الشكلَ السائد لعلاقات العمل. لم يعد التقلقل خاصية هامشيةً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومؤقتة، لكنه الشكل العام لعلاقة العمل في مجالٍ إنتاجي، رقمي، متشابك ومرتبط بإعادة التوليف.

تشير كلمة «قَلقَلِتاريا» precariat عمومًا إلى مساحة العمل التي لم يعد يمكن تعريفها بقواعد ثابتة متعلقةٍ بعلاقة العمل، بالأجر وبطول يوم العمل. لكننا لو حلّلنا الماضي لرأينا أن هذه القواعد عملت لفترةٍ محدودةٍ فحسب في تاريخ العلاقات بين العمل ورأس المال. لفترةٍ قصيرة فحسب في قلب القرن العشرين، تحت الضغوط السياسية للنقابات والعمال، في شروط تشغيلٍ كامل (تقريبًا) وبفضل دورٍ تنظيمي قوي بدرجةٍ أو بأخرى للدولة في الاقتصاد، أمكن قانونيًا إقامة بعض الحدود أمام العنف الطبيعي للديناميات الرأسمالية. وكانت الالتزامات القانونية التي حمت المجتمع في فتراتٍ معينة من عنف رأس المال تقوم دائمًا على أساس وجود علاقةٍ لقوةٍ من نوعٍ سياسي ومادي (عنف العمال ضد عنف رأس المال). بفضل القوة السياسية أصبح ممكنًا توكيد الحقوق، وسن القوانين، وحمايتها كحقوقٍ شخصية. ومع تضاؤل القوة السياسية للحركة العمالية، ظهر من جديد التقلقل الطبيعي لعلاقات العمل في الرأسمالية، ووحشيتها.

الظاهرة الجديدة ليست الطابع المقلقل لسوق العمل، بل الشروط التقنية والثقافية التي تجعل العمل - المعلوماتي مقلقلًا. الشروط التقنية هي شروط إعادة التوليف الرقمية للعمل - المعلوماتي في الشبكات. والشروط الثقافية هي شروط تربية الجماهير وتوقعات الاستهلاك الموروثة من مجتمع أواخر القرن العشرين ويغذّيها باستمرار كل جهاز التسويق والاتصال بالميديا.

وإذا حللنا الجانب الأول، أعني التحولات التقنية التي أدخلتها رقمنة دورة الإنتاج، لرأينا أن النقطة الجوهرية ليست أن علاقة العمل أصبحت مقلقلة (فقد كانت مقلقلةً على الدوام، في نهاية المطاف)، بل تحلّل الشخص كفاعلٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منتجٍ نشط، كقوة عمل. علينا أن ننظر إلى المجال السيبراني للإنتاج الكوكبي كامتدادٍ هائل للزمن البشري المنزوع - الشخصية.

العمل - المعلوماتي، تقديمُ الزمن من أجل معالجة وإعادة توليف شرائح السلع - المعلوماتية، هو نقطة الوصول الحدّية لسيرورة التجريد عن النشاطات العينية التي حلّلها ماركس باعتبارها ميلًا منقوشًا في علاقة رأس المال - العمل.

قامت سيرورةُ تجريد العمل بحرمان زمنِ العمل باضطراد من كل خصوصيةٍ عينية وفردية. فذرة الزمن التي تحدث عنها ماركس هي الوحدة الدنيا للعمل الإنتاجي، لكن في الإنتاج الصناعي، كان زمنُ العمل المجرّد يتشخّص في حاملٍ فيزيقي وقانوني، يتجسّد في عاملٍ من لحم ودم، له هويةٌ سياسية ومعترفٍ بها. بالطبع، لم يشتر رأس المال توجّهًا شخصيًا، بل الزمنَ الذي كان العمال هم حاملوه. لكن إذا أراد رأش المال أن يتحصّل على الزمن الضروري لعملية إكساب القيمة، كان مما لا غنى عنه أن يستأجر كائنًا بشريًا، ليشتري كل وقته، ومن ثم كان بحاجة إلى مواجهة الاحتياجات المادية والمطالب النقابية والسياسية التي كان الكائن البشري حاملًا لها.

وحين ننتقل إلى مجال العمل - المعلوماتي لا تعود ثمة حاجةٌ لشراء شخص لثماني ساعاتٍ يوميًا بصورة غير محدودة. لم يعد رأس المال يُجنّد أناسًا، بل يشتري حُزمًا من الزمن، منفصلةً عن حامليها المؤقتين والقابلين للتبادل.

أصبح الزمنُ المنزوع - الشخصية الفاعلَ الحقيقي لعملية إكساب القيمة، والزمن المنزوع - الشخصية ليست له حقوقٌ، ولا أية مطالب. يمكنه فقط أن يكون متاحًا أو غير متاح، لكن البديل هنا نظريٌ بحت لأن الجسدَ الفيزيقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رغم كونه شخصًا غير معترفٍ به قانونيًا ما زال عليه أن يشتري الطعام ويدفع الإيجار.

الإجراءات المعلوماتية لإعادة توليف المادة السميوطيقية لها تأثيرُ تسييلِ الزمن الموضوعي الضروري لإنتاج السلعة - المعلوماتية. الآلةُ البشرية موجودةٌ، نابضةٌ ومتاحةٌ، مثل تمدُّد - دماغي brain-sprawl ينتظر. يتم تحويل امتدادِ الزمن بدقةٍ إلى خلايا: خلايا الزمن الإنتاجي يمكن استنفارُها في أشكالٍ مضبوطة، وعارضة، وشذريةٍ. وتتحقق إعادةُ توليف هذه الشذرات أوتوماتيكيًا في الشبكة. والتليفون المحمول هو الأداة التي تُتيح الاتصالَ بين احتياجات السميورأسمال وبين استنفار العمل الحي للفضاء السيبراني. رنّة التليفون المحمول تدعو العمال إلى إعادة توصيل زمنهم المجرد بالتدفق الشبكي.

إنها لكلمةٌ غريبة، تلك التي تُعرِّف بها الإيديولوجيا السائدة في الانتقال ما بعد - الإنساني إلى العبودية الرقمية: كلمة الليبرالية. الحرية هي أسطورتها المؤسّسة، لكن حرية من؟ حرية رأس المال، بالتأكيد. رأس المال يجب أن يكون حرًا بصورة مطلقة في التوسع إلى كل ركن من العالم ليجد شريحةَ الزمنِ البشري المتاحة للاستغلال مقابل الأجرِ الأشد بؤسًا. لكن الليبرالية تحكم أيضًا حريةَ الشخص. الشخص القانوني حرٌ في التعبير عن نفسه، في اختيار ممثليه، في أن يكون رائدَ أعمالٍ على مستوى السياسة والاقتصاد.

أمر مثير جدًا للاهتمام. إلّا أن الشخص اختفى. وما تبقّى هو مثل شيءٍ خامل، لا مغزى له ولا فائدة. الشخص حر، بالتأكيد. لكن وقته مُستَعبَدٌ. وحريته هي خرافةٌ قانونية لا يُناظرها شيءٌ في الحياة اليومية العينية. إذا وضعنا في الاعتبار الشروطَ التي يُنفَّذُ فيها فعليا عملُ غالبية البشر، من بروليتاريا وكوجنيتاريا [إدراكيتاريا] في عصرنا، إذا فحصنا شروط متوسط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأجر كوكبيًا، إذا وضعنا في الاعتبار الإلغاءَ الحالي والمتحقق إلى حدٍ كبير لحقوق العمل السابقة، يمكننا القول دون مبالغةٍ بلاغية أننا نحيا في نظام عبودية. فمتوسط الأجر على المستوى الكوكبي لا يكفي لشراء الوسائل التي لا غنى عنها لمجرد البقاءِ لشخصٍ يكون وقته في خدمة رأس المال. وليس للناس أيُّ حقٍ في الزمن الذين هم مالكوه رسميًا، لكنهم مجرّدون منه فعليًا. ذلك الزمن لا يخصّهم فعليًا، لأنه مُنفصلٌ عن الوجود الاجتماعي للناس الذين يجعلونه متاحًا لدائرة إعادة التوليف السيبر - إنتاجية. زمن العمل كَسْريٌ [مُفتت] fractalized، أي، مختزلٌ إلى شذراتٍ دُنيا يمكن إعادة تجميعها، والتفتيتُ يُتيح لرأس المال أن يجد باستمرار شروط أجرٍ أدنى.

كيف يمكننا معارضةُ التفتيتِ الكسري decimation للطبقة العاملة ونزع -شخصيتها النسقية، العبوديةِ التي يجري توكيدها كنمط سيطرةٍ للعمل المقلقل والمنزوع - الشخصية؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه بإصرار كلُّ من لا زال لديه حسٌ بالكرامة الإنسانية. إلّا أن الإجابة لا تأتي لأن شكلَ المقاومة والنضال اللذين كانا فعّالين في القرن العشرين يبدو أنهما لم تعد لديهما القدرةُ على نشرٍ وتدعيم أنفسهما، ولا يمكنهما بالتالي أن يوقفا النزعةَ المطلقة للرأسمال. والخبرة المستمدّة من نضال العمال في الأعوام الأخيرة هي أن نضال العمال المقلقلين لا يصنع دورةً. كذلك يمكن للعمل المفتت أن يتمرّد 'بصورة موقوتة، لكن هذا لا يُطلق أي موجةٍ نضالية. والسبب يسهل فهمه. فلكي تشكّل النضالاتُ دورةً لا بد من قربٍ في الحيّز الفضائي بين أجساد العمالة واستمراريةٍ وجودية زمنية. وبدون هذا القرب وهذه الاستمرارية، تنقصنا شروط أن تصير الأجسادُ التي تحولت إلى خلايا جماعةً نوعية. لا يمكن خلق موجةٍ، لأن العمال لا يتقاسمون وجودَهم في الزمن، ولا يمكن للسلوكيات أن تصبح موجةً إلّا حين توجد استمراريةٌ متواصلة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزمن لم يعد يُتيحها العمل - المعلوماتي.

الاقتصاد- الفصامي

إن مقولات نقد الاقتصاد السياسي غير كافيةٍ الآن لأن سيرورات اكتساب الذاتية تخترق مجالاتٍ أعقد بكثير. يبدأ في الارتسام مجالٌ تخصصي جديدٌ في الالتقاءِ بين مواطنِ الاقتصاد، والسميوطيقا، والكيمياء- النفسية.

السميورأسمال هو تدفقُ - رأسمالٍ يتخثّرُ في نتاجاتٍ سميوطيقية دون أن يتجسّد ماديًا. تبدو المفاهيم التي صاغها قرنان من الفكر الاقتصادي مُتحلِّلةً، وغير فاعلة، وغير قادرة على فهم قدرٍ كبير من الظواهر التي انبثقت في مجال الانتاج الاجتماعي منذ أن أصبح إدراكيًا. كان النشاطُ الإدراكي دومًا أساس كلِّ إنتاجٍ بشري، حتى ذلك الإنتاج من طرازٍ أشد ميكانيكية. ليس ثمة سيرورةُ عملٍ بشري لا تتضمن ممارسةً للذكاء. لكن اليوم، تصبح القدرةُ الإدراكية الموردَ الإنتاجيَ الجوهري. في دائرة العمل الصناعي، كان العقلُ مُكرهًا على العمل كآليةٍ ذاتية تكرارية، هي الدعم الفسيولوجي للحركة العضلية. واليوم يمارس العقلُ العملَ في العديد من الابتكارات، واللغات، والعلاقات الاتصالية. يؤدي إدراجُ subsumption العقلِ في عملية إكساب القيمة الرأسمالية إلى تحوّلٍ حقيقي. يجري إخضاعُ الكيان العضوي الواعي والحسّاس لضغطِ تنافسي، لتسارعٍ في المثيرات، لإجهادٍ انتباهيٍ دائم. ونتيجة لذلك، يصبح المناخ العقلي، الدائرة- المعلوماتية التي يتشكّل فيها العقل ويدخلُ في علاقاتٍ مع العقول الأخرى، مناخًا مُولِّدًا للمرض النفسي. ومن أجل فهم لعبةِ المرايا التي لا تنتهي للسميورأسمال لا بد أن نرسم حدودَ مجالٍ تخصصي، ينحصر في ثلاثة جوانب:

- نقد الاقتصاد السياسي للذكاء الاتصالي؛

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سميولوجيا التدفقات الاقتصادية- اللغوية؛

- الكيمياء- النفسية لمناخ الدائرة- المعلوماتية التي تدرس التأثيرات المُوَلِّدة للمرض النفسي للتطور الاقتصادي على العقل البشري.

تتّخذ سيرورةُ الإنتاج الرقمي شكلًا بيولوجيًا يمكن ربطه بكيانٍ عضوي: فالجهاز العصبي لأي منظمةٍ مُناظرٌ للجهاز العصبي الآدمي. ولكل مشروعٍ اقتصادي أنساقٌ «مستقلة ذاتيًا»، عملياتٌ تشغيلية لا بد أن تعمل من أجل بقائه. وما كان ينقصُ المنظماتِ في الماضي كانت هي الروابطُ بين قطع المعلومات التي تُشبه المراكزَ العصبية المترابطة فيما بينها في العقل. والأعمال الرقمية الشبكية تؤدي وظيفتها كجهازٍ عصبي اصطناعي ممتاز. تتدفق المعلومات داخلها بسرعةٍ وطبيعية، مثل الفكر في كائنٍ بشري، ونستطيعُ استخدام التكنولوجيا لنحكم وننسّق مجموعاتٍ من الناس، بنفس السرعة التي يمكننا بها التركيزُ في مشكلةٍ. وطبقًا لبيل جيتس (1999)، فإن الشروط قائمةٌ لتحقيق شكلٍ جديد من النسق الاقتصادي، متمحورٍ على ما يمكن تعريفه بأنه «الأعمالُ بسرعة الفكر».

في العالم الاتصالي، نجد أن الأنشوطات الارتدادية لنظرية الأنساق العامة تندمج مع المنطق الدينامي لعلم الجينات البيولوجي في رؤيةٍ ما بعد - إنسانية للإنتاج الرقمي. العقول واللحم البشريين يتكاملان مع الدوائر الرقمية بفضل الواجهات المشتركة interfaces للتسارع والتبسيط: ينبثق نموذج للإنتاج المعلوماتي - البيولوجي يُنتج نتاجات سميوطيقية لها قدرةُ الاستنساخ - الذاتي للأنساق الحية. ويمكن للجهاز العصبي الرقمي، فور تشغيله بالكامل، أن يُنَصِّبَ installed بسرعة في كل أشكال التنظيم. وهذا يعني أن مايكروسوفت **ظاهريًا فقط** ينصبُّ اهتمامها على السوفت وير، المنتجات والخدمات. وفي الحقيقة، فإن الغاية الخفية لإنتاج السوفت وير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي ربطُ wiring العقل البشري بمتّصَلِ شبكةٍ من النوع السيبراني مُقدَّرٌ لها أن تُبنيِن تدفقاتِ المعلومات الرقمية بواسطة الجهاز العصبي لكل المؤسسات المحورية للحياة المعاصرة. ومن ثم ستُعتبرُ مايكروسوفت ذاكرةً افتراضية كوكبية، قابلةً للتبادل وجاهزةً للتنصيب. پانوبـﭘتيكون - سيبراني مُنغَرِسٌ في الدوائر اللحمية للذاتية البشرية. أخيرًا تصبح السيبرنطيقا هي الحياة أو، كما يحب بيل جيتس أن يقول، «المعلومات هي سائلنا الحيوي».

الانهيار النفسي للاقتصاد

يدمج الجهاز العصبي الرقمي نفسه تدريجيًا في الجهاز العصبي العضوي، في دائرة الاتصال البشري، ويُعيد تشفيرها وفقًا لخطوطه التشغيلية ووفقًا لسرعته الخاصة. لكن لتحقيق هذا التحول، لا بد أن يمر الجسد - العقل خلال تبدّلٍ جهنمي، نراه يتطور في تاريخ العالم. ومن أجل فهم وتحليل هذه السيرورة، لا تكفي لا الأدوات المفاهيمية للاقتصاد السياسي ولا أدوات التحليل التكنولوجي، فعملية الإنتاج تصبح سميوطيقية ويقوم تشكّل الجهاز العصبي الرقمي بربط وتحفيز العقل، والنفس الاجتماعية، والرغبات والآمال، والمخاوف والتخيلات. ومن ثم إذا أردنا تحليل هذه التحولات الإنتاجية، لا بد أن نشغل أنفسنا بالإنتاج السميوطيقي، بالتبدلات اللغوية والإدراكية. والتبدّل يمر من خلال مجال الأمراض.

حقنت الثقافة النيوليبرالية في الذهن الاجتماعي حافزًا دائمًا باتجاه المنافسة وأتاح النسق التقني للشبكة الرقمية تكثيفًا للمحفزات المعلوماتية، تنتقل من الذهن الاجتماعي إلى الأذهان الفردية. هذا التسارع للمحفزات هو عامل مسبب للمرض له تأثيرات واسعة النطاق في المجتمع. المنافسة الاقتصادية والتكثيف الرقمي للمحفزات المعلوماتية، في ارتباطهما معًا، يحدثان حالة صعقٍ كهربائي دائمة تفيض في مرضٍ واسع الانتشار يتبدى إما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في متلازمة الهلع أو في اضطرابات الانتباه.

الهلع متلازمة متزايدة الانتشار باستمرار. وحتى سنواتٍ قلائل مضت، لم يكن الأطباء النفسيون يكادون يتعرفون على هذا العرَض الذي ينتمي بالأحرى إلى المخيلة الأدبية الرومانسية، ويقترب من الشعور بالانسحاق إزاء الثراء اللانهائي لأشكال الطبيعة عن طريق القوة الكونية اللامحدودة. واليوم، بدلًا من ذلك، يتم الإبلاغ عن الهلع باضطرادٍ متزايد كعرَضٍ مؤلم ومثير للقلق، كإحساسٍ بدني بأن المرء لم يعد ينجح في التحكم في جسده، كتسارعٍ في معدل النبض، كضيق للتنفُّس يمكن أن يؤدي إلى الإغماء والشلل. وحتى لو لم يكن يوجد في هذا المجال حسب علمي بحث شامل، يمكن اقتراح فرضية أن إضفاء الطابع الوسائطي على الاتصال وتخلخل التلامس البدني المترتب عليه، يمكن أن يسببا أمراضًا في الدائرة الوجدانية والعاطفية. للمرة الأولى في التاريخ البشري، يوجد جيلٌ تعلم كلماتٍ أكثر وسمع قصصًا أكثر من آلة الرؤية عن بعد مما تعلم وسمع من أمه. وتنتشر اضطرابات الانتباه باضطراد مستمر. إذ يُعالج الملايين من أطفال أمريكا الشمالية وأوروبا من اضطرابٍ يتبدى في عدم القدرة على إبقاء الانتباه مركزًا على شيء أكثر من بضع ثوانٍ. وربما تؤدي الاستثارة المستمرة للعقل من جانب التدفقات المحفزة عصبيًا إلى تشبعٍ مرضي. وإذا أردنا أن نفهم الاقتصاد المعاصر فلا بد أن نشغل أنفسنا بعلم النفس المرضي للعلاقات. وإذا أردنا أن نفهم الكيمياء - النفسية المعاصرة فلا بد أن نأخذ في الاعتبار حقيقة أن العقل مُشبَعٌ بتدفقات سميوطيقية تتبع مبدأ فوق -سميوطيقي: هو مبدأ المنافسة الاقتصادية، مبدأ التنمية القصوى. منذ أن اتصلت الرأسمالية بالدماغ، ضمّ الأخير عنصرًا مرضيًا، ميمةً meme(1) ذهانية ستسارع النبضات حتى إلى ارتجافات، حتى إلى انهيار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في التسعينات، امتزجت ثقافة البروزاك بالاقتصاد الجديد. كان الآلاف من المُشغِّلين، والمديرين، والمديرين التنفيذيين للاقتصاد الغربي يتخذون قرارات لا تُحصى وهم في حالة نشوةٍ كيميائية وخفة رأس صيدلانية - نفسية. لكن على المدى الطويل، انهار الكيان العضوي، عاجزًا عن أن يتحمّل إلى ما لا نهاية النشوةَ الكيميائية التي أدامت الحماس التنافسي والتعصب الإنتاجي. كان الانتباه الجماعي مُشبعًا بصورة فائقة وكان ذلك يحفز انهيارًا من نوعٍ اجتماعي واقتصادي. وكما يحدث في كيانٍ عضوي مصابٍ بالاكتئاب الذهاني، كما يحدث لمريضٍ أصابه الاختلال **الثنائي القطب** bipolar disorder، فبعد النشوة المالية للتسعينات، جاء الكساد/الاكتئاب. إنها إذن حالة اكتئابٍ إكلينيكي يضرب التحفيز، والمبادرة، والتقدير - الذاتي، والرغبة، والجاذبية الجنسية في الجذور. لفهم أزمة الاقتصاد الجديد من الضروري البدء من الخبرة النفسية للطبقة الافتراضية، من الضروري التأمل في الحالة النفسية والعاطفية لملايين العاملين الإدراكيين الذين بثّوا الحيوية في مشهد الأعمال، والثقافة، والمتخيّل خلال عقد التسعينات. فالاكتئاب النفسي الفردي لعاملٍ إدراكي منفرد ليس نتيجةً للأزمة الاقتصادية بل سببها. سيكون من السهل أن نعتبر الاكتئاب نتيجةً لدورة أعمالٍ سيئة. بعد أن يكون عاملُنا الذهني قد عمل لسنواتٍ طويلة وبصورة مُربحة، تتهاوى قيمة الأسهم ويجتاحه اكتئابٌ بشع. لا يحدث الأمر على هذا النحو. يخيّم الاكتئاب على العامل الإدراكي لأن جهازه العاطفي، والبدني، والذهني لا يمكنه أن يتحمّل إلى ما لا نهاية النشاطَ المفرط الذي يستثيره السوق والمركبات الصيدلانية. ونتيجةً لذلك، يكون على الأمور أن تسوء في السوق. ما هي السوق؟ السوق هي المكان الذي تلتقي فيه العلامات والمعاني الوليدة، الرغبات والإسقاطات. إذا أردنا الحديث عن العرض والطلب، لا بد أن نفكر على أساس تدفقات الرغبة وعناصر الجذب السميوطيقية التي كانت لها جاذبيتها من قبل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفقدتها اليوم.

في اقتصاد النت، تطوّرت المرونة إلى شكلٍ من تفتيت fractalization العمل. والتفتيتُ يعني التشظيةَ التعديلية والتوليفية لزمن النشاط. لم يعد العاملُ يوجد كشخصٍ. هو أو هي مجرد منتجٍ قابل للاستبدال للشذرات المتناهية الصغر للعلامة التوليفية التي تدخل إلى تدفق النت المتصل. لم يعد رأسُ المال يدفع مقابل توفّر عاملٍ يجري استغلاله لفترةٍ طويلة من الزمن؛ لم يعد يدفعُ أجرًا يُغطي كامل مدى الاحتياجات الاقتصادية لشخصٍ يعمل. فالعامل (وهو آلةٌ مُزوَّدةٌ بعقلٍ يمكن استخدامه لشذراتٍ من الزمن) يتلقى مقابلًا لخدماته أو خدماتها، العارضة، المؤقتة. وزمنُ العمل متشظٍ ومُحوَّلٌ إلى خلايا. خلايا الزمن معروضةٌ للبيع على النت ويمكن للأعمال أن تشتري قدرَ ما تحتاجُ دون أن تكون ملتزمةً على أي نحو بالحماية الاجتماعية للعامل.

الاستثمار المكثف والطويل للطاقات العقلية والليبيدية في عملية العمل خلقَ شروطَ انهيارٍ نفسي ينتقل إلى المجال الاقتصادي بالانكماش وانخفاض الطلب وإلى المجال السياسي على شكل عدوانيةٍ عسكرية. واستخدام كلمة انهيار ليس كاستعارةٍ بل كوصفٍ إكلينيكي لما يجري في العقل الغربي. كلمة انهيار تعبّر عن ظاهرةٍ مرضية واقعية ودقيقة تتخلل الكيان العضوي الاجتماعي - النفسي. وما رأيناه في الفترة التالية لأولى علامات التدهور الاقتصادي، خلال الأشهر الأولى من القرن الجديد، هو ظاهرة مرضية - نفسية للاستثارة - المفرطة، والارتجاف، والهلع، وأخيرًا للسقوط الاكتئابي. وقد احتوت ظاهرةُ الكساد الاقتصادي دائمًا على عناصر من أزمة التوازن النفسي - الاجتماعي، لكن حين تضمنت عملية الإنتاج العقلَ أخيرًا بصورةٍ ضخمة، أصبح المرضُ النفسي الجانبَ المحوري للدورات الاقتصادية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشهد زمن الانتباه المتاح للعمال المنخرطين في الدورة المعلوماتية تناقصًا مستمرًا: إنهم منخرطون في عددٍ متزايد من المهام الذهنية تحتل كل شذرةٍ من زمن انتباههم. بالنسبة لهم لم يعد لديهم وقتٌ يكرّسونه للحب، للرقة، للعاطفة. يتناولون الفياجرا لأنهم لا يملكون الوقت للمداعبات التمهيدية الجنسية. يتناولون الكوكايين ليكونوا مُنتبهين ومُستجيبين على الدوام. يتناولون البروزاك ليُلغوا وعيهم باللامعنى الذي يُفرِغُ، دون توقُّع، حياتهم من أي اهتمامٍ. جلَب التقسيمُ الخلَوي نمطًا من الاحتلال الدائم للزمن المعاش. والتأثير هو تحولٌ للعلاقات الاجتماعية في اتجاهٍ مرضيٍ ـ نفسي. والعلامات واضحة: ملايين العبوات من العقاقير النفسية تباع، ووباء اختلالات الانتباه ينتشر بين الأطفال والمراهقين، ويصبح عاديًا انتشارُ عقاقير من قبيل الريتالين في المدارس، وما يبدو أنه انتشارُ وباءِ الهلع في نسيج الحياة اليومية.

الدائرة - المعلوماتية والعقل الاجتماعي

مشهد الميديا هو عالمٌ من أجهزة إرسالٍ تُرسل لعقولنا إشاراتٍ وفقًا لأشد التشكيلات formats تنوعًا. والدائرة - المعلوماتية هي الواجهة المشتركة interface بين نسق الميديا وبين العقل الذي يستقبل الإشارات، الدائرة - البيئية العقلية، تلك الدائرة اللامادية التي تتفاعل فيها التدفقات السميولوجية مع هوائيات استقبال العقول المبعثرة على الكوكب. والعقل هو عالم أجهزة الاستقبال التي لا تقتصرُ طبيعيًا على الاستقبال بل تجهّزُ، وتخلق وتحرّك بدورها سيرورات إرسالٍ وتحفزُ التطور المستمر لمجال - الميديا.

وقد خلق تطورُ تفعيلِ الدائرة - المعلوماتية لشبكاتٍ أكثر تعقيدًا باستمرار لتوزيع المعلوماتِ قفزةً في قوة، وسرعة، وذات تشكيل format الدائرة - المعلوماتية. ولا توجد قفزةٌ مناظرةٌ في قوة الاستقبال وتشكيله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن عالم المستقبِلات، العقول البشرية لأناسٍ واقعيين من لحم، من أعضاءٍ هشةٍ وحسّية، ليس متشكلًا formatted طبقًا لنفس معيار نسقِ المرسِلات الرقمية. النموذج المعياري الوظيفي لعالم المرسِلات لا يُناظر النموذج المعياري الوظيفي لعالم المستقبلات. ويتبدى عدم التساوق هذا في تأثيراتٍ مرضية متعددة: الصعق الكهربائي الدائم، الهلع، الاستثارة - المفرطة، والحركية - المفرطة، واضطرابات الانتباه، وعُسر القراءة، والإجهاد - الزائد للمعلومات، وتشبّع دوائر الاستقبال.

وفي أصل هذا التشبع، يكمن تشوّهٌ حقيقي وفعلي للتشكيلات formats. فقد تطور تشكيلُ عالم المرسِلات، مُضاعِفًا قواه، بينما لم يتمكن تشكيل عالم المستقبِلات من التطور بطريقة سريعة مماثلة، لسببٍ بسيط هو أنه يقوم على أساس ركيزةٍ عضوية (هي الجسد - العقل البشري) لها أزمنةٌ تطورية مختلفةٌ تمامًا عن الأزمنة التطورية للآلات.

ما يتحدد هنا يمكن تعريفه بأنه تعارضٌ في النموذج، صدعٌ بين النموذج الذي يصوغُ عالم المُرسِلات والنموذج الذي يصوغ عالم المستقبلات. وفي موقفٍ كهذا، يصبح الاتصال سيرورةً مضطربة غير متساوقة. وفي هذا الصدد يمكن الحديث عن تعارض بين فضاء- سيبراني في توسع دائم وغير محدود وبين زمن -سيبراني. الفضاء السيبراني هو شبكةٌ تضم مكونات ميكانيكية وعضوية يمكن زيادة تسارع قوة معالجتها دون حدود، بينما الزمن السيبراني هو واقعٌ معاشٌ من الناحية الجوهرية، مرتبط بدعامة عضوية (الجسد والمخ البشريين) لا يمكن زيادة تسارع زمن معالجتها أبعد من حدودٍ طبيعية صلبةٍ نسبيًا.

منذ أن كتب بول فيريليو، عام 1977، كتاب **السرعة والسياسة**، أصرّ على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن السرعة هي العامل الحاسم في التاريخ الحديث. إذ بفضل السرعة، كما يزعم فيريليو، يتم كسب الحروب، العسكرية وكذلك التجارية. وفي كثير من كتاباته، يبين فيريليو أن سرعة التحركات، والنقل، والميكنة قد أتاحت للجيوش كسب الحروب على مدار القرن الماضي. ومنذ ذلك الحين، أمكن استبدال الأشياء، والسلع، والناس بالعلامات. بواسطة خيالات **phantasms** افتراضية، قابلة للنقل إلكترونيًا، تم كسرُ حواجز السرعة وانطلقت سيرورةُ التسارع الأشد تأثيرًا التي عرفها التاريخ البشري على الإطلاق. بمعنى معين يمكننا القولُ بأن الفضاءَ لم يعد موجودًا، واضعين في الاعتبار أن المعلومات يمكنها أن تعبره لحظيًا ويمكن نقل الأحداث في الزمن الفعلي من مكانٍ لآخر على الكوكب، بحيث تصبح أحداثًا مُقتَسَمة افتراضيًا. لكن ما هي عواقبُ هذا التسارع على العقل البشري، وعلى الجسد البشري؟ لفهم ذلك يجب أن نشير إلى قدرة المعالجةِ الواعية، إلى قدرة الاستيعاب الوجداني للعلامات والأحداث من جانب الكيان العضوي الواعي والحسّاس.

أنتج تسارعُ تبادلِ المعلومات وما زال يُنتج تأثيرًا من نوعٍ مرضي على العقل البشري الفردي وتأثيرًا أكبر على العقل الجمعي. فالأفراد ليسوا في وضعٍ يمكّنهم من أن يعالجوا بصورةٍ واعية كتلةَ المعلومات الهائلة والمتزايدة باستمرار التي تدخل حواسيبهم، وهواتفهم المحمولة، وشاشات تلفزيونهم، ويومياتهم الإلكترونية، ورؤوسهم. ورغم ذلك، يبدو أمرًا لا غنى عنه أن تتتبعَ، وتدرك، وتُقيّمَ، وتعالج كل هذه المعلومات إذا أردت أن تكون كفؤًا، وتنافسيًا، ومنتصرًا. وتميل ممارسة **تعدد المهام multitasking**، أي فتح نافذةٍ للانتباه النصّي - الفائق، العبورُ من سياقٍ إلى آخر من أجل التقييم المعقّد للسيرورات، إلى تشويه الصيغة التتابعية للمعالجة العقلية. وطبقًا لكريستيان ماراتزي Christian Marazzi، الذي شغل نفسه في عدة كتب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالعلاقات بين الاقتصاد، واللغة، والوجدانية، فإن الجيل الأخير من المُشغّلين الاقتصاديين مُصابٌ بشكلٍ واقعي وفعلي من عُسر القراءة، وغير قادرٍ على قراءة صفحةٍ من البداية إلى النهاية وفق الإجراءات التتابعية، غير قادر على الإبقاء على انتباهٍ مُركزٍ على نفس الشيء لزمنٍ طويل. وينتشر عسر القراءة إلى السلوكات الإدراكية والاجتماعية، وتؤدي إلى جعل السعي إلى استراتيجياتٍ خطّية مستحيلًا تقريبًا.

يتحدث البعض، مثل دافنبورت وبيك Davenport and Beck، عن اقتصادٍ للانتباه. لكن حين تدخل ملكةٌ إدراكيةٌ إلى الخطاب الاقتصادي وتصبح جزءًا منه فهذا يعني أنها قد أصبحت موردًا نادرًا. إذ ينقصنا الزمنُ الضروري لإيلاء الانتباه إلى تدفّقات المعلومات التي نتعرضُ لها والتي لا بد من تقييمها حتى نستطيع اتخاذ قرارات. والعواقب ماثلةٌ أمام أعيننا: فالقرارات السياسيةُ والاقتصادية لم تعد تستجيبُ لعقلانيةٍ استراتيجية طويلة المدى وتكتفي بأن تتبع مصالح مباشرة. ومن جهةٍ أخرى، فنحن على الدوام غيرُ مُتاحين لمنح انتباهنا للآخرين عن طيب خاطر. لم يعد لدينا زمنٌ للانتباه للحب، والرقة، والطبيعة، والمتعة، والتعاطف. انتباهنا محاصرٌ باضطراد ومن ثم نُخصّصه لوظائفنا، للمنافسة وللقرارات الاقتصادية. وفي كل الأحوال لا تستطيع زمنيتنا ملاحقةَ السرعةِ المجنونة للآلات الرقمية الفائقة التعقيد. تميل الكائناتُ البشرية إلى أن تُصبح مُنفّذين بلا رحمة لقراراتٍ مُتّخَذةٍ بلا انتباه.

الآن يمضي عالم المُرسِلات، أو الفضاء السيبراني، بسرعةٍ فوق - إنسانية ويصبح غير قابل للترجمة بالنسبة لعالم المُستَقبِلات، أو الزمن السيبراني، الذي لا يمكنه أن يمضي أسرع مما يسمح به الشكلُ المادي الفيزيقي المصنوعُ منه مخنا، بطءُ جسدنا، وحاجتنا إلى الملاطفة والعاطفة. هكذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنفتح فجوةٌ مرضية وينتشر المرض العقلي كما تشهد بذلك الإحصائيات وخبرتُنا اليومية في المقام الأول. ومثلما ينتشر المرضُ، كذلك تنتشر العقاقير. تحطم الصناعةُ المزدهرة للعقاقير النفسية الأرقامَ القياسية كل عام، ويتزايد باستمرار عدد عبوات الريتالين، والبروزاك، والزولوفت(2) وغيرها من العقاقير النفسية - العقلية المباعة في الصيدليات، بينما نجد أن الانفصال، والمعاناة، واليأس، والفزع، والرغبة في عدم الوجود، في عدم الاضطرار إلى القتالِ بشكلٍ دائم، في الاختفاء تتزايدُ بالتوازي مع إرادة القتل وقتل النفس.

حوالي نهاية السبعينات، حين تم فرضُ تسارعٍ لإيقاعات الإنتاج والاتصال في المراكز الحضرية الغربية، ظهر وباءٌ هائل لإدمان العقاقير. كان العالم يغادرُ حقبتَه الإنسانية ليدخل حقبة التسارع الآلاتي ما بعد - الإنساني: بدأ العديد من الكيانات العضوية الحساسة من النوع الآدمي في شمّ الكوكايين، وهو مادةٌ تتيح تسارعَ الإيقاع الوجودي بما يؤدي إلى تحويل المرء لنفسه إلى آلة. وقام العديدُ من الكيانات العضوية الحساسة الأخرى من النوع الآدمي بحقن الهيروين في عروقهم، وهو مادةٌ تنزعُ تفعيلَ العلاقةِ بسرعةِ الوسط المحيط. وأنتج وباءُ أنواع البودرة خلال السبعينات والثمانينات تدميرًا وجوديًا وثقافيًا لم نتوافق معه حتى الآن. ثم حلّت محلّ العقاقيرِ غير المشروعة الموادُ المشروعة التي أتاحتها الصناعة الدوائية بمعطفها الأبيض لضحاياها وكانت هذه حقبة مُضادّات الاكتئاب، ومُولّدات البهجة، ومُنظّمات المزاج.

اليوم يكشف المرضُ النفسي عن نفسه بوضوحٍ متزايد كوباءٍ اجتماعي، وبشكلٍ أدقّ، كوباءٍ اجتماعي - اتصالي. إذا أردتَ البقاء فعليك أن تكون تنافسيًا وإذا أردتَ أن تكون تنافسيًا يجب أن تكون متصلًا، أن تتلقّى وتعالج باستمرارٍ كتلةً ضخمةً ومتزايدة من البيانات. وهذا يثير إجهادًا انتباهيًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دائمًا، خفضًا في الزمن المتاح للوجدانية. وهذان الميلان، المرتبطان بلا انفصام، يُثيران تأثير الدمار على النفسية الفردية: الاكتئاب، والهلع، والقلق، والحس بالوحدة، والبؤس الوجودي. لكن هذه الأعراض الفردية لا يمكن عزلها إلى ما لا نهاية، كما فعل علمُ المرض النفسي حتى الآن وكما تودّ السلطةُ الاقتصادية أن تفعل. ليس من الممكن القول: «أنت مُنهك، اذهب وخذ إجازة في كلوب مديتيرانيه(3)، خذ قرصًا، تلقّ علاجًا، ابتعد عن كل هذا الأمر اللعين، استردّ صحتك في مستشفى نفسي، اقتل نفسك». لم يعد هذا ممكنًا، لسببٍ بسيط هو أنها لم تعد مسألة أقليةٍ ضئيلة من المجانين أو كميةٍ هامشية من المكتئبين. الأمر يتعلق بكتلةٍ متزايدة من البؤس الوجودي تميلُ بشكلٍ متزايد إلى الانفجارِ في قلب النسق الاجتماعي. وفضلًا عن ذلك، من الضروري اعتبارُ حقيقةٍ حاسمة: ففي الزمن الذي كان فيه رأسُ المال بحاجةٍ إلى امتصاص الطاقة البدنية من مُستغَلّيه ومن عبيده، كان يمكن لعلم المرض النفسي أن يظل مُهمَّشًا نسبيًا. معاناتك النفسية لم تكن تهمّ رأسَ المال كثيرًا حين كان عليك فحسب أن تُركّب مسامير قلاووظ أو تتعامل مع مخرطة. كان يمكنك أن تكون حزينًا كذبابةٍ وحيدة في زجاجة، لكن إنتاجيتك لم تكد تتأثر لأن عضلاتك ما زالت تعمل. واليوم يحتاج رأسُ المال الطاقاتِ الذهنية، الطاقات النفسية. وهذه بالضبط هي الطاقاتُ التي تعطب. ولهذا السبب ينفجرُ المرضُ النفسي في قلب المشهدِ الاجتماعي. تعتمد الأزمةُ الاقتصادية في جزئها الأكبر على تدوير الحزن، والاكتئاب، والهلع، ونزع الحوافز. وقد أثارت أزمةَ الاقتصاد الجديد إلى حدٍ كبير أزمةُ حوافز، انخفاضٌ في النشوةِ المصطنعة لأعوام التسعينات. وأدّى ذلك إلى تأثيرات نزعِ الاستثمار وجزئيًا حتى إلى انخفاضِ الاستهلاك. عمومًا، تعمل التعاسةُ كمحفّز للاستهلاك: الشراء هو تعليقٌ للقلق، ترياقٌ للوحدة، لكن إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدٍ معين. وبعد هذا الحد المعين، تصبح المعاناةُ عاملًا لنزع حوافزِ الشراء. هناك من ثم معالجةٌ لاستراتيجياتٍ متضاربة. بالتأكيد لا يودُّ سادةُ العالم أن تتمكن البشرية من السعادة، لأن البشريةَ السعيدة لن تترك نفسَها تقع في أحبولة الإنتاجية، في انضباطِ العمل المفرط أو الأسواق - الفائقة. ورغم ذلك، يجرّبون تقنياتٍ مفيدة لجعل التعاسة معتدلةً وقابلةً للاحتمال، لتأجيلِ أو منع انفجارٍ انتحاري، لحفزِ الاستهلاك.

ما الاستراتيجيات التي سيتّبعها الكيان العضوي الجماعي حتى يهرب من نسيج التعاسة ذاك؟ هل استراتيجيةُ التباطؤ، تقليلِ التعقيد ممكنةٌ وقابلة للافتراض؟ لا أعتقد. في المجتمع البشري، لا يمكن إلغاء الاحتمالات بشكلٍ حاسم، حتى حين يتكشف أنها قاتلةٌ للفرد وربما حتى للنوع البشري. هذه الاحتمالات يتم إخضاعُها للضوابط ووضعها تحت السيطرة لأطول وقتٍ ممكن، لكنها يتحتّم استخدامها في النهاية مثلما حدث (وسيحدث من جديد) مع القنبلة الذرية. استراتيجيةُ **ترقية upgrading** الكيانِ العضوي البشري ممكنةٌ - استراتيجية التكيُّف الميكانيكي للجسد والعقل البشريين مع دائرة - معلومات فائقة السرعة. هذه هي الاستراتيجية المستخدَمة لتعريف ما بعد-الإنساني. وأخيرًا فإن استراتيجية الخَصم ممكنةٌ، استراتيجية التباعد عن الدوامة، لكن هذا هو نمطٌ من الاستراتيجية لا يمكن أن تتبعه سوى جماعاتٍ نوعية صغيرة، مُشكّلةً دوائر من الاستقلال الذاتي الوجودي، والاقتصادي، والمعلوماتي بالنسبة للعالم الاقتصادي.

حرب الهلع والسميورأسمال

تقف العولمةُ وقد تأطّرت من جديد في الضوءِ الداكن للحرب الكوكبية. ويعني هذا أننا بحاجةٍ إلى إعادة الصياغة المفاهيمية للتحول الجاري في الشكل الاجتماعي، والاقتصادي، والأنثروبولوجي للعولمة. خلال القرنين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الماضيين، كانت السيطرة الكوكبية هي اليوتوبيا - التقنية العامة للمجتمع الرأسمالي والثقافة الحديثة. والآن، مضى زمن السيطرة الكوكبية. نحن اليوم خارج هذا الإطار تمامًا. الإطار الحاكم الجديد للرأسمالية هو الهلع الكوكبي. وإذا أردنا فهم ما يعنيه الهلع فعلينا الحديث عن اقتصاد الانتباه وعن «العمل الرقمي». هنا يكمن مصدر الهلع المعاصر: في تنظيم الزمن في الدائرة الرقمية، في العلاقة بين الفضاء السيبراني وبين الزمن السيبراني.

ما الهلع؟ يُقال لنا إن الأطباءَ النفسيين قد اكتشفوا مؤخرًا وأطلقوا اسمًا على نوعٍ جديد من الاضطراب - يسمونه متلازمة الهلع. يبدو أنه شيءٌ حديث تمامًا في الإدراك - الذاتي السيكولوجي للكائنات البشرية. لكن ماذا يعني الهلع؟

ذات حينٍ، كان الهلع panic كلمةً لطيفة، وبهذا المعنى يتذكره المحلل النفسي السويسري - الأمريكي جيمس هيلمان James Hillman في كتابه عن پان Pan. كان پان إله الطبيعة، إله الكلية. في الميثولوجيا الإغريقية، كان پان رمزَ العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

الطبيعة هي التدفّق الساحق للواقع، للأشياءِ والمعلومات التي تحيط بنا. الثقافة الحديثة تقوم على فكرة السيطرةِ البشرية، ترويضِ الطبيعة. لذا فإن شعور الهلع الأصلي، الذي كان شيئًا جيدًا بالنسبة للعالم العتيق، يصبح بشكلٍ متزايد مرعبًا ومدمرًا. واليوم، أصبح الهلع شكلًا من المرض النفسي. يمكننا الحديث عن الهلع حين نرى كيانًا عضويًا واعيًا (فرديًا أو اجتماعيًا) تجتاحه سرعةُ السيرورات التي يكون مُنخرطًا فيها، وليس لديه وقتٌ لمعالجة مُدخَلات المعلومات. في هذه الحالات فإن الكيان العضوي، فجأة، لا يعود قادرًا على معالجة الكمية الضخمة من المعلومات القادمة إلى مجاله الإدراكي أو حتى تلك المتولّدة بواسطة الكيان العضوي ذاته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أزاحت التحولاتُ التكنولوجيةُ البؤرةَ من دائرة إنتاج السلع المادية باتجاه دائرة السلع السميوطيقية: الدائرة - المعلوماتية. بهذا، يصبح السميورأسمال الشكلَ العام للاقتصاد. ويعتمد الخلقُ المتسارع للقيمة المضافة على تسارع الدائرة -المعلوماتية. وتفتح رقمنة الدائرة ـ المعلوماتية الطريقَ لهذا النوع من التسارع. تنتج العلامات وتدور بسرعةٍ متزايدة لكن النهاية الطرفية البشرية للنسق (العقل المتجسّد) يقع تحت ضغطٍ متزايد، وأخيرًا يتصدع. وأعتقد أن للأزمة الاقتصادية الراهنة علاقةٌ بهذا الاختلال للتوازن في مجال الإنتاج - السميوطيقي وفي مجال الطلب - السميوطيقي. اختلالُ التوازن هذا في العلاقة بين عرض السلع السميوطيقية وبين الزمن المتاح اجتماعيًا للانتباه هو لبُّ الأزمة الاقتصادية وكذلك لبُّ الأزمات الذهنية والسياسية التي نحيا خلالها الآن.

يمكننا أن نصف هذا الوضعَ على أساس العلاقةِ بين الفضاء السيبراني وبين الزمن السيبراني. فالفضاء السيبراني هو الإنتاجيةُ اللامتناهية للذكاء الجمعي في بعدٍ شبكي. تزداد قدرةُ الذهن العام بصورةٍ هائلة حين يدخل عددٌ ضخم من النقاط في ارتباطات مع بعضها بفضل شبكة الاتصال عن بعد. وبالتالي، يتمكن الإنتاج - المعلوماتي من خلق عرضٍ لا نهائي من السلع العقلية والذهنية. لكن بينما الفضاء السيبراني لا متناهٍ مفهوميًا، ليس الزمنُ السيبراني لا متناهيًا على الإطلاق. وأنا أطلقُ تسميةَ الزمنِ السيبراني على قدرةِ الكيان العضوي الواعي على المعالجةِ الفعلية لمعلومات الفضاء - السيبراني. هذه القدرة لا يمكن توسيعها إلى ما لا نهاية، لأن لها حدودًا فيزيقية، وعاطفية، ووجدانية. والتناقض بين التوسع اللامتناهي للفضاء السيبراني وبين قدرة الزمن السيبراني المحدودة على المعالجة هو مصدر الكاوس(4)chaos المعاصر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتحدث دولوز وجواتاري عن الكاوس في كتاب **ما الفلسفة؟** يقولان إن الكاوس يحدث حين يمضي العالمُ أسرع من عقلنا. هذا هو الكاوس.

يمكننا تذكّر أن كارل ماركس عبّر ذات مرةٍ عن مفهوم أزمة إنتاجٍ - مفرط. أن يكون لديك أزمة إنتاجٍ - مفرط حين تُنتج الآلاتُ وعملُ العمال كميةً من السلع لا يمكن للسوق أن يمتصها. وخلال تاريخ النظام الصناعي، كانت أزمةُ الإنتاج - المفرط متواترة، وكانت الرأسمالية تضطر لتدمير السلع، وتدمير القدرة الإنتاجية، وكذلك تدمير الحيوات الإنسانية، كي تتغلب على هذا النوع من الأزمات الاقتصادية.

ماذا سيحدث الآن؟ هل يجب أن نرى علاقةً بين هذا الاختلال الكبير للتوازن وبين الحرب التي تستعر وتحجب أفق العالم؟ لنعُد إلى مفهوم الهلع.

السميورأسمال في أزمة إنتاجٍ - مفرط، لكن شكل هذه الأزمة ليس اقتصاديًا فحسب، بل مرضيٌ - نفسي أيضًا. فالسميورأسمال، في الحقيقة، لا يتعلق بإنتاج السلع المادية، بل بإنتاج التحفيز النفسي. البيئة العقلية مُشبَعة بعلاماتٍ تخلق نوعاً من الاستثارة المستمرة، صعقًا كهربائيًا دائمًا، يؤدي بالعقل الفردي وكذلك بالعقل الجماعي إلى حالة الانهيار.

ترتبط مشكلةُ الهلع بوجهٍ عام بإدارة الزمن. لكننا يمكن أن نرى أيضًا جانبًا فضائيًا يتعلق بالهلع. فخلال القرون الماضية، كان بناء البيئة الحضريةِ الحديثة يعتمدُ على الخطةِ العقلانية للمدينة السياسية. وقد عجّلت الدكتاتورية الاقتصادية خلال العقود القليلة الماضية من التوسّع الحضري. ودمّر التفاعل بين التمدّد الفضائي - السيبراني والبيئة الحضرية الفيزيقية التنظيمَ العقلاني للفضاء.

في التقاطع بين المعلومات وبين الفضاء الحضري نرى انتشارَ تمددٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عشوائي لا يتبعُ أي قاعدةٍ، ولا خطةٍ، ويُمليه المنطقُ الوحيد للمصلحة الاقتصادية. وينشأ الهلعُ الحضَري عن إدراك هذا التمدد وهذا الانتشار للخبرة المتروبوليتانية؛ انتشار خطوطِ الهروب الفضائية. الحاضرة المتروبوليتانية هي سطحٌ من التعقيد في المجال الموطني. والكيان العضوي الاجتماعي عاجزٌ عن معالجة الخبرة الكاسحةِ التعقيد للكاوس المتروبوليتاني. خلَقَ انتشارُ خطوطِ الاتصال نوعًا جديدًا من الإدراك الكاوسي.

في كتاب **اقتصاد الانتباه** Attention Economy، يقول دافنبورت وبليك أن المشكلةَ المحورية للعاملِ الإدراكي، وبوجهٍ عام للناسِ الذين يعيشون في بيئات معلوماتية فائقة - التشبّع، هي هذه: لم يعد لدينا الوقتُ للانتباه لم نعد قادرين على فهم ومعالجة مُدخَلات المعلومات لأن وقتنا مُشبعٌ بتدفق المعلومات - المفرطة. ليس لدينا الوقتُ للانتباه في مكان العمل. نحن مُجبرون على معالجة كمياتٍ مفرطةِ الكثرة من المعلومات وجسدنا ـ عقلنا واقعٌ تمامًا في أسر ذلك. وفضلًا عن ذلك، ليس لدينا الوقت للمشاعر، للاتصال، للعلاقات الشبقية. لم يعد لدينا الوقت لذلك النوع الفضائي من الانتباه الذي يعني الاهتمام بالجسد - بجسدنا، وبجسد الآخر. هكذا، أكثر فأكثر، نشعر بأن الوقت قد نفد منّا؛ أننا يجب أن نُسرع. ونشعر في نفس الآن بأن التسارع يؤدّي بنا إلى فقدان الحياة، والمتعة، والتفاهم.

هذا الانهيارُ في العلاقة بين الفضاء السيبراني والزمن السيبراني يمكن اعتباره أيضًا بمثابة الملمحِ الخاص للوضع السياسي الراهن. العالم يندفعُ إلى حربٍ كوكبية أسبابها ليست واضحة، وحدودها ليست معروفة. يتحدث البعضُ عن حربٍ طويلة الأمد، وربما عن حربٍ لا نهائية. هل هذا هراء؟ نعم، هراء. لكن هذه الحرب الهرائية هي العرَضُ الأكثرُ إثارةً للقلق لمتلازمة الهلع.

تحدث كولين باول، بعد بضعة أيام من هجمات 11 سبتمبر، عن شائعاتِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن أجهزة المخابرات قد تلقت بعض المعلومات عن تفجيراتٍ وعمليات خطف طائرات قبل 11 سبتمبر. قال، «نعم، هذا حقيقي»، «نعم، هذا حقيقي، لقد تلقينا معلوماتٍ عن شيءٍ من هذا القبيل، تلقينا معلوماتٍ عن تفجيراتٍ وما إلى ذلك. لكننا دائما نتلقى الكثيرَ من المعلومات لا نتمكن من معالجتها أو حتى من رؤيتها. لدينا أكثرَ مما يجب منها، هذه هي المشكلة. لدينا أكثر مما يجب من المعلومات».

هذا بالضبط هو تأثير التشبع - بالمعلومات، الذي هو نتيجةُ التوسّع اللامحدود للفضاء - السيبراني. من جهةٍ، فإن الحرب طريقةٌ يتعامل بها رأس المال مع المشكلات الاقتصادية للإنتاج - المفرط، استثماراتٌ في الأسلحة وأدوات الأمن، ثم الأمن، ثم الأمن. ومن جهةٍ أخرى، تصبح الحربُ حتميةً بفعل التشوّش الذهني للطبقة الحاكمة. لا يفهمون ما يجري لأن الواقع أصبح مُفرطَ التعقيدِ ومُفرطَ العدوانية. ولذا يستجيبون بطريقةٍ أولية. الطبقة الحاكمة للعالم يجتاحها نفسُ تعقيدِ العالم الذي بنوه لأنفسهم.

شبلاتركابيتاليسموس(5): الوجه الإجرامي للرأسمالية المعاصرة

تقول الأسطورة إن رومانو ألكواتي Romano Alquati الشاب كان يتجول، في الستينات الباكرة، على دراجة بخارية (سكوتر) متباهية عبر طرق بييدمونت المحيطة بإفريا وأوليفتي Ivrea and Olivetti - هواءٌ منعش، وأفق هادئ، وجبال مكسوة بالجليد. هناك كَتب مقال «العمالة والتركيب الطبقي لشركة أوليفتي في إفريا». وفي رأيي أن هذا المقال كان له أعظم الأثر في فهمنا للرأسمالية الصناعية المتأخرة وللطبقة العاملة الجديدة التي كانت على وشك أن تخرّب النظام القائم للأشياء، والمجتمع، والسياسة، والثقافة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الأفق الغائم لريفٍ يتحلل، وبين العطَن السام لمكبّات النفايات، نجد روبرتو سافيانو يقود دراجة سكوتر، بالنظرة الحادة التي يستبدُّ بها الألم والتي كنتُ أحدّق فيها على الغلاف الخلفي لكتابه الأول **عمورة** (2006) Gomorra. **عمورة** هو أول كتابٍ يقص، دون اختلاقٍ إيديولوجي مُطمَئِن، التركيبَ الاجتماعي والثقافي لرأس المال الكوكبي المعاصر. يسير سكوتر سافيانو بمحاذاة التلال الصناعية لمكبّات النفايات وخلال الشوارع الضيّقة لحي سيكونديليانو Secondigliano [شمالي نابولي]، التي رأى منها الحشودَ الضخمة للعبيد الذين يقصِمون ظهورهم في المعامل السرية التي لا تُحصى لإنتاج السلعةِ الكلّية الحضور التي تخنق الكوكب.

القلائل الذين يذكرون هذا الكتاب إما أن يقولوا إنه روايةٌ أو أنه تحقيقٌ صحفي. وفي رأيي فإنه كلا الاثنين، وأكثر: إنه يحاول تقديم تحليلٍ منهجي للرأسمالية المعاصرة، لطبيعتها الحقيقية، ولعملياتها الكوكبية، المنزوعةِ الموطن والشبكية. إنه محاولةٌ لتحليلٍ منهجي لظاهرةٍ ليست منهجيةً على الإطلاق، تحليلٍ لنسقٍ لم يعد يتبع قواعدَ، ويُرسي كفاءته وإنتاجيته على هذا النزع الكامل للضوابط.

يجب القيامُ بعملٍ مثل هذا في مجالاتٍ عديدةٍ أخرى مماثلة. يجب النظرُ إلى إقليم كامبانيا Campania على أنه هولوجرام كوكبِ أسلمةُ نزعُ الضوابط الرأسمالي لسيطرة منظماتٍ إجرامية، مثلما في المكسيك - حيث تستخدمُ مافيا المخدرات تقنياتٍ تُشابه تقنيات القاعدة- أو في كولومبيا، أو باكستان، أو خليج البنغال، أو البلقان، أو روسيا -حيث تحول الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي، دون أن يغيّر بنياته المراتبية، إلى شبكة مافيا تُوقّع عقودًا بالمليارات مع الرؤساء الخانعين للدول الأوروبية، وحيث يُصفّي قتلةُ الكى جي بي KGB المتسكعينَ من قبيل يودورخوفسكي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Yodorkhovski(6) ليقتسموا الغنيمةَ المغتصبة مع المديرين المهذّبين لمؤسسات إيني ENI و إينيل ENEL. إنسوا بروفنزانو Provenzano، إنسوا ريينا Riina(7): فبوتين وبرلوسكوني ـ برودي ليسوا بحاجة إلى خنق الناس بأيديهم؛ لأن هناك من يفعل ذلك من أجلهم قبل أن يوقّع الرؤساء العقد سويًا.

يصف سافيانو الأداءَ النموذجي للرأسمالية ما بعد - البورجوازية ويستخدم هذا النموذج التحليلي ليستقصي موقفًا معينًا يرتبط بآلاف الخيوط مع آلاف المواقف المماثلة. وأسوأ طريقة لقراءة هذا الكتاب هي النظر إليه باعتباره أحدثَ رسمٍ تخطيطي لنابولي، وصفَ أرضٍ متخلفةٍ وهامشية، مثالًا على الإجرام المتأصّل. عادةً ما يتحدث السياسيون الإيطاليون عن الجنوب على أنه زائدةٌ، لكن هذا كذب. فالزائدةُ هي شيءٌ ينبثق من جسمٍ صحي؛ وهنا ليس ثمة جسمٌ صحي. النسق الذي يصفه سافيانو هو الجسم، كما تُظهر حالة ترونكيتي ـ بوفيرا (8) Tronchetti-Povera، آخر نوعية زعماءِ شجعان أهدتهم حكومةُ يسار - الوسط شركةَ تليكوم Telecom العامة كي يتمكن زعماءُ شجعانٌ آخرون من جزّ صوفها ثم بيعها لأفضل مشترٍ كأنها مِلكهم، بينما هي مِلكنا. ما هو مِلكنا، يعني، ما هو مِلكهم. هذه هي الرأسمالية ما بعد - البورجوازيةِ المنزوعة الضوابط، حيث لا يكون القتلةُ مجرد زائدةٍ بل مجمل الجسد.

يرينا سافيانو أن الشكل المتطور لدورة إنتاج الرأسمالية الكوكبية في كمبانيا يتبدّى كميلٍ يدور حوله مجملُ عملية الإنتاج. يَعِدُ الرهبانُ البوذيون المؤسّسيون للدولة الإيطالية باتخاذ إجراءٍ ضد الإجرام من خلال التطوير الاقتصادي للجنوب، لكن الإجرامَ هو تطويرٌ اقتصادي لأن التطويرَ الاقتصادي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يعد سوى إجرام.

المشروع

الكفاءة هي الملمحُ الحاسم لكل عمليات ريادة الأعمال، سواء كانت توزيعَ السلع بواسطة مئاتٍ من عربات البضائع الثقيلة المصطفّة أو إذابةَ زوجٍ من الجثث في الحامض.

أصدرنا التعليمات بشراء مائة لتر من حمض الهيدروكلوريك، احتجنا إلى حاوياتٍ معدنية سعة مائتي لتر، تُستخدم عادةً لحفظ البترول ومفتوحة من أعلى. في خبرتنا تُملأ كلُّ حاويةٍ بخمسين لترٍ من الحامض ولما كنا نُخطط لإخمادِ شخصين، جعلنا برميلين جاهزين (2006: 63).

تُناقشُ مسائلُ كفاءةٍ كثيرةٍ في هذا الكتاب: الكفاءةُ وحدها تقرّرُ النجاح الاقتصادي للمشروع.

الكلمة السحرية هي (دعه يعمل، دعها تمر laissez fair, laissez-passer). النظرية هي أن السوق تضبطُ نفسَها. وهكذا خلال وقتٍ قصير فإن أيَ شخصٍ مستعد لإقامة تجارةٍ صغيرة مع الأصدقاء، أي شخصٍ يريد أن يشتري بخمسة عشر ويبيع بمائة ليستطيع قضاء إجازةٍ، أو لتسديد برنامج ماجستير أو أقساط رهونات، ينجذب إلى سيكونديليانو. التحريرُ المطلق لتجارة المخدرات يؤدي إلى انخفاضٍ هائل في السعر (2006: 78).

رغم ما يبدو أنه جولاتٌ فوضوية خلال متاهات من الشوارع والقرى الضيقة، من المخازن والشواطئ المهجورة، يُعيد الكتاب بناءَ بعض دوراتِ السلع التي يقومُ على أساسها النسق.

لا وجود لكلمة «كاموزا» **camorra** (9)؛ إنها كلمة شُرطة، يستخدمها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكلاءُ النيابة والصحفيون. وتجعل المنتمي يبتسم، إنها مصطلحُ خبراء، تعود إلى التاريخ. الكلمة المستخدمة لوصف أعضاء العشيرة هي **النسق**: إنهم ينتمون إلى نسق سيكونديليانو. إنه مصطلحٌ بليغ، يشير إلى آليةٍ وليس إلى بنية. يتطابق الإجرامُ المنظّم مباشرةً مع الاقتصاد، جدلُ التجارة هو الهيكل العظمي للعشيرة (2006: 48).

آليةٌ بدل أن تكون بنية، أداةٌ، تسلسلٌ آلاتي قادرٌ على توليد الأرباح. يمكن لمكونات الأداة أن تتغير دون تغيير أدائها. الطابع المجرّد للرأسمالية، وللعمل، وللمشروع، هو درسٌ تعلّمه المجرمون ويكمنُ الآن في قلب نظام ريادةِ الأعمال. مُصفًّى من أي عينيةٍ شخصانية أو عائلية، يستخدم الناسَ والعائلات لخدمة غايةٍ أسمى: التراكم، والنمو، والتطور.

دورات السلع

في الجزء الأول من الكتاب، في حكاية عالمِ العمال السريين المزدحم الذي يربط عمل الخيّاطين المُخطَّط له وميراثَ تقاليدهم الشعبية المحلية بالعمل التنفيذي لآلافِ العمال المبعثرين حول العالم، يُعيد المؤلفُ بناءَ دورة السلع لصناعة النسيج، والموضة، والإبداع. الدورة هي دورةُ زيفٍ صادق، أو بالأحرى صدقٍ زائف، مرتبطةٌ بشبكةٍ تجارية تُناظر شبكة أي سلسلةٍ أخرى، رغم أنها قد تم بناؤها على أساس الإزاحةِ الفيزيقية للمنافسين. لن يسألكَ أحدٌ أبدًا كم شخصًا شنقتَ إذا كنتَ المديرَ التنفيذي لمركز تسوّقٍ يولّد أرباحًا. وإذا طلب منكَ قاضٍ بصدفةٍ سيئة أن تُقدّم حسابًا عن دستةٍ من الجثث، فلا مشكلة، فلن يتوقّف المشروعُ بسبب ذلك. قد يذهب الرئيسُ إلى السجن، لكن ما يهم هو أن تواصل وظيفتُه العمل.

يصف سافيانو دورةَ المخدرات، أشكالَ تنظيم تجارة المخدرات على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأرض والأبعاد الاقتصادية للقرارات، وليس لأيٍ منها علاقةٌ بالديناميات الهامشية للجيتو.

الإقليم القادرُ على توليد ثلاثمائة مليون يورو سنويًا من صناعة عائلةٍ واحدةٍ فقط لا يمكن أن يكون جيتو. الإقليم الذي تعمل فيه عشراتُ العشائر وتبلغ فيه هوامشُ الربح تلك الهوامش الخاصة بالتمويل الراقي لا يمكن أن يكون جيتو (2006: 81).

حين يتحدث وزراءُ التجارة والصناعة عن الناتج القومي الإجمالي يجب أن يقولوا الحقيقة: فكلما ازدادت كميةُ الدم المسفوح، ومعدّلات الوفاة، والسمّ، كلما نما الناتج القومي الإجمالي.

طبقا للإحصاءات الرسمية، يقوم 20% من إجمالي الناتج المحلي على التهرُّب الضريبي: على الأقل فإن ربعَ الثروة الناتجة والمتبادَلة في إيطاليا تتولّد في ظروف الإجرام. يجب تصنيف القتل، والتخلّص من الجثث، والابتزاز، والعصابات المسلحة باعتبارها عواملَ حاسمة في تشكيل الناتج القومي الإجمالي. يجب إدراجها بانتظام في دفاتر الحسابات، إذا كان يجب الاعترافُ بالوضع الراهن للأمور: إذا قررت عائلات الكاموزا والمافيا التخلّي عن تجاراتها، ربما نتيجةً لظهور البابا ﭘيو، سينهار الاقتصادُ الإيطالي.

يواصل ُسافيانو تحليلَه لدورة السلع بذكرٍ موجز لتجارة السلاح. يقرّر أن إيطاليا تُنفق سبعةً وعشرين مليار دولارًا سنويًا على السلاح، أكثر من روسيا وضعف ما تُنفقه إسرائيل - وقد جمع البيانات معهدُ ستوكهولم الدولي كجزءٍ من بحثه عن السلام. هل يعرف هذا الناس الذين أوصلهم تصويتُ المسالمين إلى سدّةِ الحكم؟

ترتبط دورةُ الأسلحة بشكلٍ وثيق بدورة الإبادةِ التي يشكّل الاقتصاد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكاموزي - الليبرالي جزءًا متكاملًا طبيعيًا منها. ويُحصي سافيانو ثلاثة آلآف وستمائة ضحية عبر السنين، في إقليم الكامورا فحسب.

هذا هو قلبُ أوروبا؛ هنا تتشكل غالبيةُ الاقتصاد القومي. واستراتيجياتُ استخلاصه لا تهمّ. ما يهم هو إبقاءُ وقودِ المدافع [البشر الضحايا] عالقًا في الأطراف، محشورا في طيّات الإسمنت والقمامة، في المصانع غير المشروعة ومعامل الكوكايين. ولا يجب أن يشير إليه أحد، يجب أن يبدو كلُّ شيءٍ وكأنه حربٌ بين العصابات، حربٌ بين المعدَمين وذوي الأسمال (2006: 135).

ليست حربًا بين العصابات، بل منافسةُ السوق العادية. ليست حربَ الفقراء؛ بل القلبُ النابض للاقتصاد القومي.

روّاد الأعمال: هذا هو التعريف - الذاتي لأعضاء كاموزا كاسيرتا، لا شيء سوى رواد أعمال (2006: 210).

ماذا يمكنهم أن يسمّوا أنفسهم بخلاف ذلك؟ مشروعهم لا يختلف عن أي مشروعٍ آخر، إذا نحّينا التفاصيلَ الشكلية جانبًا. الضوابط يُعلن أنها روابطٌ وخيوطٌ عبر العالم، وخلال الثلاثين عامًا المنصرمة انشغلت الدولُ القومية بشيءٍ واحد فقط: هو رفع كل الضوابط التي تمنع التعبيرَ الحر عن المنافسة أو تبطيء التدفّقَ الحرَّ للعمل، التخفيضَ الذي لا ينتهي لتكاليف العمالة.

نافِس

حلّ مفهومُ المنافسة محلّ مفهوم الكفاءة.

الكفاءة هي المهارةُ الذهنية التي مكّنت البورجوازية من تنفيذ تخطيطها، وأدائها الإداري، والتنظيمي، وبرّرت حقها في المِلكية. ومنذ أن أتاحت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكنولوجيات الذكاء وضع توحيدٍ قياسي لعمليات التخطيط، والتنسيق، والإدارة التي كانت تلتحمُ بدورِ الملكية، تحوّلت الوظائفُ الذهنية إلى وظائف عمالةٍ خاضعة. حلّت محل البورجوازية الكفؤة طبقةٌ حوّلت المنافسةَ لتصبح السيطرةَ والكفاءةَ الوحيدة. لكن، عند الحديث عن المنافسة، ألا يكون بديهيًا أن الأكثر كفاءةً هو من يمكنه تصفيةُ الخصوم؟ وحين يصل الأمرُ إلى تصفية الخصوم تصبح الأمور جديةً. فيما أصبحت الملكيةُ تتطابق مع سحابةٍ مُغبرّة من شذرات الاستثمار بدل أن تتطابق مع الشخص، حلّت المنافسةُ محلَّ الكفاءة. ما زالت الكثير من الكفاءات ضروريةً للإنتاج لكنها الآن منفصلةٌ عن دور المشروع. فأي كفاءةٍ ذهنية لا ترتبطُ بالمضاربةِ تصبح مُقلقَلةً، منخفضة القيمة، ومنخفضة الأجر.

وحدهم من طوّروا مهارةً عالية في الأداء الإداري يمكنهم الإثراءُ من خلال عملهم. ممّ يتكون الأداءُ الإداري المنفصلُ عن الخاصيةِ النوعية للكفاءةِ الذهنية العينية؟ من التلفيق، والتحايل، والأكاذيب، والحسابات المخادعة، والتهرّب الضريبي، وإذا لزم الأمر، الإزاحة الفيزيقية للمنافسين، والتعذيب، والإبادة. في هذا الصدد، فإن شركة هاليبيرتون Halliburton أكثر كفاءةً وشناعةً من عشائر كاسالي أو كورليوني.

يتقلّد الجهلُ السلطةَ وتُتخذُ القراراتُ الاقتصادية بصورةٍ خالصة على أساس كسب الربح الأقصى والأشد فوريةً. كل ما يهم هو تخفيضُ تكاليف العمل، لأن هذا هو جوهر المنافسة، ولا علاقة له بإنتاج الجودة. ونتيجةً لذلك، لا تأتي الكلمةُ الأخيرة بشأن قرارات الإنتاج من الكيميائيين، أو مُخطّطي المدن، أو الأطباء، بل من الناس ذوي الكفاءة الإدارية، أي، من لهم القدرةُ على تخفيض تكاليفِ العمل وتسريع تحقيق الأرباح. دمّرت ديناميات النيوليبرالية البورجوازيةَ واستبدلتها بطبقتين متمايزتين ومتعارضتين:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكوجنيتاريا [الإدركيتاريا] من جهة، أي، عمل الذكاء المُقلقَل والخلوي، ومن جهةٍ ثانيةٍ طبقة المديرين، التي تتمثل كفاءتها الوحيدةُ في التنافسية. وإذا أخذنا المنافسة إلى حدّها الأقصى، كما يتضح في مناطق متزايدة باستمرارٍ من الإنتاج الرأسمالي، فإنها تصبح الإزاحةَ المسلّحة للمنافسين، والفرضَ المسلّح لمُوَرّدٍ واحد، والتدميرَ المنهجي لكل ما لا يخضعُ لربحِ الأقوى. منذا يقوم بالمنافسة أفضلَ ممن يُزيحون منافسيهم؟ وما التقنياتُ الأفضل لهذه الإزاحة من تطويق الناس أحياءً، من ذبحهم أو إذابتهم في حمض الهيدروكلوريك؟ عمورة منقوشةٌ في الشفرةِ الجينية للنيوليبرالية.

الضوابط

تبدو المرحلةُ النيوليبرالية للرأسمالية سيرورةً بلا نهايةٍ ودون انقطاعٍ من نزع الضوابط، لكنها العكسُ تمامًا في الحقيقة. فبينما يتم إلغاءُ كل قواعدِ التعايش المشترك، يجري فرضُ قواعد العنف. بينما تتمُ إزاحةِ الضوابط التي تضع حدودًا لاجتياح مبادئ المنافسة، يتم إدخالُ آلياتٍ - ذاتية صلبةٍ وسريعةٍ في العلاقاتِ المادية بين البشر، الذين يصبحون أكثرَ عبوديةً بينما يصبح المشروعُ أكثر حريةً. تُلغي سيرورةُ نزع الضوابط باضطرادٍ تلك القواعدَ التي تكبحُ حركيةَ الإنتاجية وتعوق القوةَ التوسّعية لرأس المال. وأشكال الحضارةِ الاجتماعية وحقوق الإنسان المؤسَّسةِ على طول الحداثة هي القواعدُ التي يستهدفُ نزعُ الضوابط إلغاءها . فتقدّمُ نزع الضوابط الرأسمالي يمحو المواضعاتِ الثقافية والقانونية للحداثة والقانونِ البورجوازي واحدةً فواحدة. لهذا السبب تحوّلت الرأسماليةُ إلى نظامٍ إجرامي وتواصلُ العمل باتجاه توسّع مجال العنف الخالص، حيث يمكن لتقدمها أن يتواصل دون عوائق - شبلاتركاپيتاليسموس Splatterkapitalismus : نهايةُ الهيمنة البورجوازية والكلّيةِ المستنيرة للقانون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تعد الجريمةُ وظيفةً هامشية للنظام الرأسمالي، بل عاملَ الانتصار الحاسم للمنافسة المنزوعة الضوابط. أصبح التعذيبُ، والقتل، واستغلال الأطفال، والنزوع إلى البغاء، وإنتاج أدوات الدمار الشامل تقنياتٍ لا بديلَ لها للمنافسة الاقتصادية، فالجريمة هي أفضل ما يُناسب مبدأ المنافسة.

القمامة

في الختام، فإن الدورةَ الأخيرة للشبلاتركابيتاليسموس، كما يصفها سافيانو، هي دورةُ النفايات. والنفاية هي أولًا وقبل كل شيء الرجالُ والنساء الذين تخلّفهم وراءها عمليةُ إكساب القيمة الإجرامية، مُشوَّهين، ومحترقين، ومُطوَّحين في خندقٍ، ومُفجَّرين بقنبلةٍ يدوية، أو ببساطةٍ مُهانين، ومُفرَغِين، ومسجونين. بخلاف البورجوازية، التي نسبت قيمةً مقدّسة لحقوق الإنسان واحترمتها فعليًا، لحماية نفسِها على الأقل، فإن الشبلاتركابيتاليسموس لا تمنح قيمةً مقدّسةً حتى لحيواتِ مَن في السلطة. بالنسبة للنسق، فإن الزعيمَ ليس سوى موظفٍ مؤقت:

دكتاتوريةُ رجلٍ في العشيرة هي دائما قصيرةُ الأجل، إذا كان لسلطةِ زعيمٍ واحد أن تدوم أطول مما ينبغي، فسوف ترتفعُ الأسعارُ وتنشأ احتكارات السوق، وتصبح الأسواق متصلّبةً ويظل الاستثمار في نفس الأسواقِ بدل أن يستكشفَ أسواقًا جديدة (2006: 222).

بدأ وصفُ ماركس للسيرورة الكلية لإكساب القيمة من التعاون الاجتماعي الذي تتضافرُ فيه ذراتٌ لانهائية من العمل المجرّد. وفي نهاية بحثه في الشبلاتر-سلعة، يبحث سافيانو عن استعارةٍ نظرية لوصف هذه السيرورة بفعاليةٍ مساوية، لكنها محاولةٌ يائسة:

الشيء الأشد تعقيدًا هو تصوّر اقتصادٍ بكل أجزائه. التدفقاتُ المالية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هوامش الربح، مفاوضات الدين، الاستثمارات. فلا توجد ملامحُ يمكن رؤيتها، لا عناصرَ دقيقة تطرأ على الذهن (2006: 310).

ثم، في قفزةٍ منطقيةٍ عبقرية يجد أخيرًا المكان الأشد جوهريةً للرأسمالية - المفرطة المعاصرة: «مكبات النفايات هي الرموزُ الأشد عينيةً لكل دورةٍ اقتصادية» (2006: 310).

الرأسمالية المفرطة تزيدُ طاقتَها الإنتاجية باستمرار لأنها تُقيم سلطتَها على أساسها، وليس لأن هناك أي احتياجٍ لزيادة الانتاج. فهناك بالفعل ما يكفي لإطعام المليارات الستة من البشر على ظهر الكوكب؛ وكل عام يتم تدميرُ ملايين الأطنان من الأغذية لتجنُّب أزمات الإنتاج - المفرط. الثياب التي نستخدمها تفوقُ احتياجاتنا بكثيرٍ، وكل سلعةٍ أخرى متوفِّرة في المخازن التي لا تُحصي التي زَودتنا بها الصناعةُ الحديثة. فلماذا إذن نُسارعُ بإفراطٍ، لماذا يتم تطبيق إيقاعاتٍ أسرع للعمل، لماذا نعدو بصورةٍ محمومةٍ أكثر فأكثر؟ لأن الرأسمالية - المفرطة هي شبلاتر على نحوٍ وثيق.

لا يمكن وصف الرأسمالية إلّا باستعارة السرطان، التي ليست حتى استعارةً، بل تحليلٌ مضبوط إكلينيكيًا. في مكبات نفايات كامبانيا، يتخفَّى السرطان بصورةٍ سيئة تحت جرفٍ، تحت طبقةٍ خفيفة من العشب المتعفِّن. يُزوّد خرّيجو بوكّوني(10) الشباب شركاتِ لومباردي، وإميليا، وألمانيا بأراضٍ في كامبانيا يمكن فيها تفريغ ملايين الأمتار المكعَّبة من المواد المُسرطِنة.

الإقليم مطمورٌ بالقمامة ويبدو العثور على حلولٍ مستحيلًا (2006: 325).

الأراضي مغمورةٌ بالديوكسين(11). والصبية في سن الخامسة عشرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذين ترسلهم كاموزرا إلى مكبِّ النفايات ليتنفسوا الهواء المشبَع بالموت يُكملون عمليات التخلص من القمامة.

كلما سمع هؤلاء السائقون الشباب الناسَ يقولون إن نشاطَهم خطِرٌ، كلما زاد شعورهم بأنهم جديرون بمثل تلك المهمات الهامة. وما كان لأيٍ منهم أن يفكّر في أنهم سيتلقون العلاجَ الكيماوي بعدها بعشر سنوات، أو سيتقيأون عصارتهم المرارية بمَعِدةٍ، وكبد، وأمعاء متعفّنة (2006: 329).

والصفحات الأخيرة من عمورة تصف مشهد حقولٍ سمّمتها النفاية، والمخلّفات، والزبالة. بمنديلٍ حول فمه، محاولًا التنفس أقل ما يمكن، يسألنا سافيانو ما العمل.

ربما لا يمكننا سوى أن ننسى، أو لا نرى، ونستمع إلى النسخةِ الرسمية للأحداث. سألتُ نفسي إذا كان يمكنُ لأي شيءٍ أن يجعل الحياة سعيدة، لكن ربما كان كل ما أردته أن أتوقف عن الحلم بالانعتاق وبالحريات الأناركية، وألقي بنفسي في الحلبة، أن أضعَ مسدسًا نصف آليٍ في سروالي وأبدأ الكلام بجدّيةٍ، بجدية حقيقية (2006: 330).

الأمل

هل ما زال ثمة إجابةٌ على سؤال «ما العمل؟» هل ثمة إجابة، أبعد من النصيحة البديهية بالكفّ عن التوالد، بالتوقّف عن إلقاء لحمٍ جديد إلى المحرقة المتوسّعة؟ حتى اللحظة ما من إجابةٍ أخرى.

لكن جيشًا جديدًا ينهضُ من أركان العالم الأربعة، بلا راياتٍ، وبلا مستقبل، وأمله الوحيدُ هو الانتحار. كان عدمُ الارتياح الأساسي للمشاركين في المؤتمر الأخير للحزب الشيوعي الصيني يُسبّبه عشراتُ الآلاف من الفلاحين الذين يقتلون أنفسهم لأن النمو الاقتصادي يدفعهم إلى النزوح من الريف ويختزلهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى ظروف الجوع. ويحدث نفش الشيء في الهند مع إدخال التحديث الصناعي.

منذ 11 سبتمبر، عام 2001، نجدُ أن الانتحار هو الفعلُ السياسي الحاسم لعصرنا. حين تكون الحياةُ البشرية بلا قيمة، تنمو المهانةُ حتى تصبح غير قابلةٍ للاحتمال ومتفجّرة. ربما لا يمكن أن يأتي الأمل إلّا من الانتحارات.

---

(1) الميمة / الميم meme: تقال على أي فكرة، أو سلوك، أو أسلوب ينتشر من فردٍ إلى فردٍ داخل ثقافةٍ معينة بهدف نقل ظاهرة، أو معنى تمثله الميمة.

(2) البروزاك Prozac، والريتالين Retalin، والزولوفت Zoloft: عقاقير نفسية - عقلية. البروزاك يعالج الاكتئاب، ونوبات الهلع، والاضطرابات الحواذية، وبعض اضطرابات الأكل. يُحسّن النوم، والمزاج، والشهية، ومستوى الطاقة. والريتالين عقار مُحفِّز يعالج قصور الانتباه وفرط النشاط. وزولوفت مضاد للاكتئاب.

(3) كلوب مديتيرانيه: وكالة سياحية فرنسية ضخمة.

(4) الكاوس chaos: هو المادة غير - المتشكّلة التي يُفترض أنها وُجدت قبل خلق الكون. كذلك يعبر عن خاصية نسقٍ معقد سلوكه غير متوقَّع إلى حدّ أن يبدو عشوائيًا. كما يعبّر عن الإختلاط والاضطراب التامين.

(5) Splatterkapitalismus شبلاتركابيتاليسموس: الرأسمالية التي تتميز بالعنف المفرط وسفك الدماء.

(6) يودورخوفسكي Yodorkhovski: رجل أعمال وأحد الأباطرة الماليين الروس.

(7) بروفنزانو وريينا: الأول برناردو بروفنزانو (1933ـ 2016) عضو المافيا الصقلية وربما زعيم فصيل كورليونى (من بلدة كورليوني) وزعيم زعماء المافيا حتى اعتقاله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عام 2006. وسلفاتوري رىينا (1930ـ 2017) عضو المافيا الصقلية. مسئولٌ عن حملة اغتيالات عنيفة بلغت ذروتها في أوائل التسعينات وقتل فيها وكلاء النيابة جيوفاني فالكوني وباولو بورسيللينو. قبض عليه عام 1993 وظل سجينًا حتى مات.

(8) ماركو ترونكيتي ـ بوفيرا: أحد أقطاب المال والأعمال الإيطاليين.

(9) كاموزا: منظمة مافيا إجرامية إيطالية.

(10) بوكّوني Bocconi: جامعة خاصة راقية في ميلانو تُدرِّس الاقتصاد، والمالية، والقانون، والإدارة، والعلوم السياسية، والإدارة العامة. تصنيفها رقم 16 على العالم والرابعة في أوروبا في العلوم الاجتماعية والإدارة.

(11) الديوكسين: مركبات الديوكسين هى موادّ شديدة السمِّية وملوثة بيئية طويلة الأمد. هي نواتج جانبية لعمليات صناعية كيماوية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

03. التاجر، والمحارب، والحكيم

في الخامس عشر من فبراير 2003، حين خرج ملايين الناس إلى الشوارع في كل أنحاء العالم ليوقفوا الحرب، شعر الكثيرون أن السلطة العسكرية الكوكبية كانت على وشك أن تفقد كل إجماع وأن هذا يمكن أن يشير إلى بداية أزمتها، لكن السلطة لم تعد مُؤسَّسةً على الإجماع، بل على الإرهاب، والجهل، والآليات الذاتية التكنو - اقتصادية المالية والنفسية التي لم تعد السياسةُ قادرةً على السيطرة عليها ولم يعد العملُ الجماهيري قادرًا على تعديلها أو وقفها.

في الأيام التالية تعلّمنا أن حركةَ سلامٍ ذات أبعادٍ هائلة ليست كافيةً لوقف الحرب، وأن الديمقراطية لا تملك أدواتٍ قادرةٍ على نزع فتيل الآليات الذاتية العسكرية التي أطلق عقالها الإرهاب وبارانويا الأمن. فحتى إذا كانت أغلبيةُ الرأي العام تُعارض الحرب، لم تكن لتتوقّفَ الديناميةُ التي تؤدي إلى الحرب. الإرهاب هو الاستثمارُ السياسي الذي وضعت إدارة بوش كلَّ رهاناتها عليه. ما من حاجةٍ إلى خلق إجماعٍ من خلال أدواتٍ خطابية، ودعائية، وإيديولوجية، بل يكفي استخدامُ الآليات الذاتية النفسية القائمة على الإرهاب. وقد وُلد الإرهاب قبل الهجمات الإرهابية، وُلد نتيجة التنافسية القاسية والمتّصلة التي نقشَها مبدأ **موتك هو حياتي** mors tua vita mea في عقل كل فرد.

تاريخ القرن العشرين هو تاريخُ النزاع والتحالفات بين ثلاثة شخوص. الحكيم هو وريثُ العمل البشري، حاملُ الذكاءِ المتراكم بواسطة التتابع اللانهائي لأفعال العمل والسلسلة اللانهائية لأفعال رفض العمل. رفضُ العمل يحفزُ الحركةَ التطورية للذكاء. والذكاء هو رفضُ العمل، وقد تحقّق في شكلٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مفيد اجتماعيًا. بسبب الذكاء يُصبح ممكنًا إحلالُ الآلات محل العمل البشري. وبسبب رفض العمل، يتم دفعُ العلم إلى الأمام، ويتطور، ويوضع موضع الممارسة. ومنذ البداية، كان العلمُ الحديث واعيًا بوظيفته في هذا الصدد.

المعرفة تُضاعفُ القدرةَ البشرية على إنتاج الأشياءِ المفيدة وفضاءاتِ الحرية لكل الكائنات البشرية، عن طريق تقليلِ زمن العمل الضروري لإنتاج أي شيءٍ يحتاجه المجتمع. وهذا يعني أن المعرفة تعني امتلاك سلطةٍ. يريد التاجرُ والمحارب أن يُحوّلا المعرفة إلى أداةٍ للسلطة. ولهذه الغاية يجب أن يُخضِعا الحكيم. لكن هذا لا يجري بسهولةٍ، لأن المعرفةَ لا تحتملُ السيطرة. من هنا، يلجأ المحاربُ والتاجر إلى الفِخاخ والخداع، لإخضاع سلطةِ التفكير لسلطة المال والعنف.

الصالح العام للبشرية

في كتابٍ صدر عام 1958 بعنوان **«أسطعُ من ألفِ شمسٍ»**، يحكي روبرت يونك Robert Jungk كيف أسر المحاربُ الحكيمَ خلال الحرب العالمية الثانية، من خلال تاريخ مشروع مانهاتن الذي أدّى إلى خلق القنبلة النووية. وُوجهت مجموعةٌ من العلماء بالابتزاز التالي: ربما كان هتلر يُعدّ قنبلةً نووية. نحتاج إلى الإسراع، لنسبِقه. طبقا ليونك:

في صيف عام 1939، كان يمكن لإثنى عشر رجلًا، هم الفيزيائيون الذين كانوا يعملون في مشروع مانهاتن، أن يتّفقوا على وقف بناء القنابل الذرية، لكنهم أضاعوا فرصتهم وعجزوا عن جعلِ أفكارهم وأفعالهم ملائمةً للعواقب المستقبلية للاكتشافات العلمية؛ كذلك لم يكن لديهم، في ذلك الموقف الحرج، إيمانٌ كافٍ بتقاليد مهنتهم. وفي نهاية الحرب، علّق فون ڤايتسيكر von Weizsaecker، «حقيقة أننا كنا عائلةً لم تكن كافية، وربما كان يتوجّب أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نكون هيئةً دولية بسلطاتٍ انضباطية على أعضائها. لكن هل ذلك ممكنٌ في العلم الحديث؟» (1958)

في كلمات ڤايتسيكر نجد المشكلةَ التي وجدناها من جديدٍ بكامل تعبيرها بعدها بنصف قرن: أي شكلٍ تنظيمي وأية قواعد يمكن لمن ينتجون المعرفة أن يمنحوا أنفسهم، إذا أردنا منع السلطة السياسية، والاقتصادية، والعسكرية من استخدام المعرفةِ لأغراضٍ خارجةٍ عن المعرفة ذاتها، وفي المقام الأول، مضادةٍ للصالح العام للبشرية؟ في تلك المناسبة، تمكنت حكومةُ الولايات المتحدة من إقناع مجموعةٍ من العلماء بالاستسلام لابتزازها. وكان تأثير استسلام الحكيمِ للمحارب هو هيروشيما.

في تلك اللحظة بدأ النضال من أجل تحرير الحكيم من المحارب، وبلغ ذروته في عام 1968. مثّل عامُ 1968 في المقام الأول رفضَ الحكيم أن يُقدِّم معرفته للمحارب وقرارَ وضعِ الحكيم في خدمة المجتمع. عندها جاء التاجر ليُغري الحكيم ويُخضِع معرفته لسيطرة الآليات الذاتية التكنو - اقتصادية. تم إخضاعُ تقييم حقيقة المعرفة لمعايير التنافسية، والكفاءة الاقتصادية، والسعي إلى أقصى ربح.

وخلال العقدين اللذين استهلهما ثاتشر وريجان، تم إجبار المعرفة على العمل في ظروف تبعيةٍ مطلقة لرأس المال. تم دمجُ العلم داخل الآليات الذاتية للتكنولوجيا، محرومًا من إمكانية تغيير الغايات التي تُوجِّه أداءه الوظيفي. ويتجسّد التطبيقُ المكثّف للمعرفة من أجل الإنتاج في خلق الدائرة - التقنية الرقمية، التي تُطلق تأثيرات سلطةٍ استثنائية. لكن هذه السلطة خاضعةٌ للآليات الذاتية التي تتمفصلُ فيها السلطة. مُقيّدةٌ داخل مقولات اقتصاد الربح، تقوم التكنولوجيا بزيادة إنتاجية العمل بينما، في نفس الوقت، تُضاعفُ البؤس، وإخضاع الكائنات البشرية للعمل المأجور، والعزلة، والتعاسة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمرض النفسي.

أتذكرُ حين كنتُ طفلًا في الخمسينات، أنني مثل الجميع كنت مبهورًا بفكرة أننا سنحيا عام 2000. اعتادت الصحف أن تكتب أنه في عام 2000 ستكون كل مشاكل البشرية قد حُلّت لأن التكنولوجيا ستكون قد ضمنت السلام، والحرية، والوفرة. والآن، وقد جاء عام 2000، بدل السلام، تُخيّم الحربُ على العالم مثلما لم يحدث أبدًا من قبل، وتنتشر القنابل الذرية في أيدي المتعصبين من كل الأديان. وبدل الحرية هناك السيطرةُ التي لا تقبل النقاش للأولويات الاقتصادية، وبدل الوفرة هناك العبودية، والبؤس، والجوع في ثلثي العالم. لقد أنتج التطبيقُ المتعصّب لقواعد السوق هذا الجنون وها نحن نتسابق صوب الكارثة.

حركة الباحثين

لا معنى لأي مشروعٍ للإصلاح أو التغيير ما لم نكن مستعدين لأن نُعيد تعريف هذا السباق بشكلٍ جذري، بحيث لا يمكن لا للمحارب ولا للتاجر أن يقرّر اتجاه السباق. الحكيم وحده يمكن أن يقرّره. المعرفة الإنسانية وحدها، مُتْبعةً قواعدها الخاصة، وأولوياتها، وخطوط إمكانها لها الحقُ في إعادة تعريف قواعد الإنتاج والتبادل. النساءُ والرجال وحدهم كذواتٍ للمعرفة يمكنهم تقرير الاتجاه الذي يجب أن يتحرك فيه العالم. هذا هو الشيء الجديد العظيم الذي تأكد في سياتل: ليس للتجار أي حقٍ في اتخاذ قرارٍ بشأن حيوات ملايين الناس على أساس ربحهم هم الاقتصادي. وحدها حركةُ باحثين، حركة عمالٍ تقنيةٍ راقية للكوجنيتاريا منظّمةً بصورةٍ مستقلةٍ ذاتيًا يمكنها أن تُوقف دكتاتوريةَ الشركات المالية الكبرى. وقد أشارت الحركة الكوكبية التي تفجّرت في سياتل عام 1999 إلى اتجاهٍ جديد: يجب أن توجّه العولمة معرفةٌ مدفوعةٌ أخلاقيًا وتصبح سلطةً في يد كل النساء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والرجال، وليس سلطةَ أقلية.

بدءًا من سياتل(1) انبثقت حركةٌ تستهدف إعادة - التركيب الاجتماعية، والمعرفية، والتكنولوجية للعمل الإدراكي. وهذا يتطلب أن يكون البحثُ العلمي مستقلًا ذاتيًا عن مصالح التجار. وقد نما هذا الإدراك منذ ذلك الحين: فقد بدأ ملايينُ الناس في العالم في المطالبة بالاستقلال الذاتي لعقلهم عن الربح. وفي تكنولوجيا المعلومات شهدنا انتشار ممارسات المصدر المفتوح؛ وفي قطاعات التكنولوجيا الحيوية والصيدلة جرى نضالٌ للمطالبة بحرية الوصول إلى منتجات التجديد الذهني؛ وفي دورة وسائط المعلومات انتشرت النشاطية activism .

خصخصة المعرفة

ردّ رأسُ المال، مُتَّبعًا إملاءات الإيديولوجيا الليبرالية النزعة، بالخصخصة القسرية لنواتج المعرفة الجماعية وبإخضاع التجريبِ للمنافسة الاقتصادية.

Telegram:@mbooks90

لقيت خصخصةُ المعرفةِ الجماعية مقاومةً ومعارضةً في كل مكان، وبدأ العمال الإدراكيون في إدراك أن طاقتهم تفوق سلطة التاجر. فلما كان العمل الذهني في قلب المشهد الإنتاجي، لم يعد التاجر يملك الأدوات القانونية أو المادية لفرض مبدأ الملكية الخاصة. وحيث أن أنفسَ السلع في الإنتاج الاجتماعيِ لها طابعٌ لامادي وقابلٌ لإعادة الإنتاج، فقد اكتشفنا أن التملّك الخاص للسلع لا معنى له، بينما ضعفت الأسباب التي تدعمُ خصخصةَ السلع المادية في المجتمع الصناعي. في دائرة رأس المال - السميوطيقي والعمل الإدراكي، حين يتم استهلاك مُنتَج، يظل مُتاحًا بدل أن يختفي، بينما تزيد قيمتهُ كلما زاد اقتسام استخدامه. هكذا يعمل اقتصادُ الشبكة، وهذا يناقضُ ذاتَ مبدأِ الملكية الخاصة الذي تأسّست عليه الرأسمالية حتى الآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ بدأ هذا المنظور ينتشر، دخل المحاربُ ثانيةً إلى المشهد، مع الاقتصاد القديم لأباطرة البترول ومنتجي الأسلحة. الآن تحولت كميةُ الحزنِ، والخوف، والقلق المتراكمة في ثنايا العمل الاجتماعي خلال أعوام التسعينات إلى تعصبٍ، وعدوانية، وهوسٍ بالهوية. لجأ التاجرُ إلى المحاربِ لإخضاع الحكيم من جديد. تحالف بيل جيتس مع جورج بوش. تحالف التاجر الذي سرقَ الذكاءَ الجماعي مع المحارب الأحمق وسويًا يحاولان خنق أي بوصةٍ من الحكمة، يحاولان إدراجَ الحكمة مرةً وإلى الأبد تحت مقولتي الربح والسلطة.

بفضل فتح سوق الأوراق المالية للجماهير الذي جرى في التسعينات، انفتحت مشاركةُ الجمهور في أرباح رأس المال ونتج عن ذلك اقتصاد الدوت كوم. كذلك فتح هذا إمكانيةَ سيرورةٍ ضخمة للتنظيم - الذاتي للعمال الإدراكيين. استثمر العمالُ الإدراكيون كفاءتهم، ومعرفتهم، وإبداعيتهم ووجدوا وسائل خلق مشروعٍ في سوق الأوراق المالية. لعدة أعوامٍ كان شكلُ المشروع هو نقطةُ التقاء رأس المال المالي والعمل الإدراكي بمعدل إنتاجيةٍ مرتفع. مجّد شكلٌ جديد من المشروع - الذاتي في آنٍ واحد الاستقلالَ الذاتي للعمل والاعتمادَ على السوق.

بعد عِقدٍ من النمو المتواصل والتحالفِ الاجتماعي بين العمل الإدراكي ورأس مال إعادة التوليف، تحطّم هذا التحالف. وكان انهيارُ سوق الأوراق المالية الذي بدأ في أبريل 2000 بدايةَ أزمةٍ سياسية لعلاقة رأسِ المال بالعمل الإدراكي. أثارت هذه القطيعة عوامل عديدةً مختلفة. أولها، انهيارُ الطاقاتِ النفسية والاجتماعية للعمل الإدراكي: الاستغلالُ المفرط، وتسارع إيقاعات الحياة، ويومُ العمل طوال أربع وعشرين ساعة لعمال الهاتف المحمول، والاكتئاب، والاستخدامُ المفرط للعقاقير المنبهة للحفاظ على إيقاع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العمل - المفرط قادت العاملَ الإدراكي إلى مرحلةِ اكتئابية. جاء الانهيار من الداخل. وفي نفس الوقت، جرى الهجومُ الاحتكاري ضد جيش الدوت كوم، ضد جبهة العمال الإدراكيين والسوق الحرة. فرضُ حدودٍ على التجريب، وفرضُ معايير احتكارية، والتحالفُ بين الاحتكارات وبين السلطة السياسية، كتمَت أنفاسَ الاقتصادِ المُشتَّت. ثم بدأت الثورةُ المضادة الاحتكارية وتم خلقُ شروطِ الانتقال من اقتصاد الشبكةِ إلى اقتصاد الحرب.

شهد الاقتصادُ الجديد ازدهارَ سيرورة التنظيم - الذاتي للعمل الإدراكي على هيئة المشروع، لكن في نفس الأعوام انبثقت بورجوازيةٌ رثّة ضارية لتستغلّ أزمةَ الحكم الرأسمالي التقليدي لتستحوذ لنفسها على أنصبةٍ هائلة من رأس المال الاجتماعي، كما أظهرت كل حالات الانهيار التالية لانهيار شركة إنرون Enron. على المدى الطويل لم تُحبِّذ النيوليبراليةُ السوقَ الحرة بل الاحتكار.

وعند هذه المرحلة، بأعجوبةٍ تقريبًا، بينما تتفاقم الأزمةُ وتنتزع كل مصداقيةٍ وسلطةٍ من المجموعة المرتبطة بإدارة بوش، سقطت تلك الطائراتُ من السماء ومنحت الحياةً لحقبةٍ من العنفِ اللامحدود، حقبةٍ، تُضفي فيها السلطةُ المشروعية على نفسها من خلال الحرب، بعد أن فقدت كل مشروعيةٍ. لكن في الحرب، يُعاد تحديدُ المنظورات. استحضرت الرأسماليةُ النازيةُ - الليبرالية العدوانية شبحَ الحرب لتُدافع عن سلطتها المهتزّة، لكن في سياق هذه الحرب، غير المقبولةِ من ضمير ونمطِ حياة الغالبية العظمى من سكان الغرب، يمكن أن يحدث أيُّ شيءٍ.

المشكلة التي يتحدث عنها فايتسيكر مُلحّةٌ اليوم: فهل يمكن حدوثُ تنظيمٍ -ذاتي للعلماء يقومُ على أساس الاستقلال الذاتي للعلم عن السلطة؟ لم يعد هذا هو الشغلُ الشاغل لمجموعةٍ صغيرة من الفيزيائيين النوويين، بل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للملايين والملايين من العاملين في العلم والتكنولوجيا، وفي الإدارة، وفي التعليم والعلاج.

يملك الجيشُ المسالم للكوجنيتاريا مفتاحَ تفكيك سلسلةِ الآليات الذاتية التي من خلالها تُحصِّن الرأسماليةُ نفسَها.

من مثقّفين إلى كوجنيتاريين

لا يجري تعريفُ مثقف التنوير بوضعه الاجتماعي، بل بنسقٍ كلي من القيم. والدور الذي ينسبه التنويرُ للمثقف هو، من خلال ممارسة العقلانية، دورُ تأسيس وضمان تحقيق المبادئ الكلّية من قبيل احترام حقوق الإنسان، والمساواة أمام القانون، وكلّية القانون ذاته. هذا الشخص الحديث للمثقف - الذي يُجسّد إيديولوجيا - يجد مشروعيتَه الفلسفية في الفكر الكانطي. في سياق الفكر الكانطي يبزغ المثقفُ كشخصٍ مُتعالٍ نشاطه مستقلٌ عن الخبرة الاجتماعية، أو على أية حال، لا يتحدّدُ اجتماعيًا في قراراته الإدراكية أو الأخلاقية. يظهر المثقف في حقبة التنوير باعتباره حامل عقلانيةٍ كلّية، إنسانيًا بصورةٍ مُجرَّدة، وبهذا المعنى يمكن اعتباره التحدّدَ الذاتي للمقولة الكانطية «أنا أفكر».

دور المثقف وثيق الارتباط بتطوير ذلك النسق من القيم الذي يشكّل الكلّية الحَديثة. المثقف هو الضامن لفكرٍ متحرّرٍ من أي انتماءٍ، تعبيرٌ عن عقلانيةٍ كلّيةٍ إنسانيًا. بهذا المعنى، فإن المثقف هو ضامنُ الديمقراطية، وتلك الديمقراطية لا يمكن أن تنحدر من أصولٍ اجتماعية، من انتماءٍ، بل من الصحراء فحسب، من الأفق اللامتناهي للاختيار والإمكانات، من إمكان الوصول والمواطنة لكل شخصٍ بوصفه فاعلًا سميوطيقيًا، ذاتًا تتبادل العلامات كي تصل إلى العقلانية الكلّية. هذا المثقف المتباعد، الكلّي يتأسس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في مقابل الصورة الرومانسية «للشعب»، أو بالأحرى ينسحب منه. الفكر الكلّي، الذي وُلدت منه المغامرةُ الحديثة للديمقراطية، يتجنّب موطنية الثقافة. الديمقراطية لا يمكنها أن تحمل وسمَ ثقافةٍ، وسم شعبٍ، وسم تقاليد؛ بل يجب أن تكون لعبةً دون أساس، اختراعًا ومواضعةً، وليس تأكيدَ انتماءٍ.

تختلف كثيرًا وجهةُ نظر المثقفِ الثوري التي ترتبط بالفكر الجدلي -التاريخي وتؤكّد نفسها بواسطته. في الأطروحة الحادية عشرة عن فويرباخ، يشير ماركس إلى الدور الذي يجب أن تلعبه المعرفة في السيرورة التاريخية: «اكتفى الفلاسفة حتى الآن بتفسير العالم بطرقٍ عديدة؛ والمسألةُ هي تغييره». المثقف الماركسي هو أداةٌ للسيرورة التاريخية لتحقيق مجتمعٍ لاطبقي. مع ماركس لا يصبح الفكرُ فعالًا تاريخيا إلّا حين يتعرّفَ في الطبقة العاملة على أفقِ الفعل. المشروع الشيوعي يمنح النظرية قدرةً مادية ويجعل المعرفة أداةً لتغيير العالم. فقط بقدر ما يشارك المثقفُ في النضال لإلغاء الطبقات والعمل المأجور، فإنه يصبح حاملَ رسالةٍ كلية. في هذه الرؤية ليس للمثقف علاقةٌ بالشعب (Volk)، لأن الشعب هو الصورةُ المتوطّنة للانتماء، سيادةُ الثقافة Kultur بالنسبة للعقل، أولويةُ الجِذر بالنسبة للغاية. وعلى النقيض، لا تنتمي الطبقةُ العاملة لأي موطنٍ، أو ثقافة، أو سلالة، وأفقها العقليُ هو أفقُ طبقةٍ مُستغَلَّةٍ كلّيا، تجاهد صوب مهمةٍ كلية للتحرر من الاستغلال.

من المثقف العضوي إلى الذهن العام

دور المثقفين محوريٌ في الفلسفة السياسية للقرن العشرين، وخصوصًا في الفكر الثوري الشيوعي. في كتاب ما العمل؟، يسأل لينين نفسه كيف يمكن تنظيمُ الفعل الجماعي، وكيف يمكن جعلُ نشاطِ المثقفين فعّالًا. بالنسبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للينين ليس المثقفون طبقةً اجتماعية؛ فليس لديهم مصالحُ اجتماعية نوعية يتمسكون بها. إنهم بوجهٍ عام تعبيرٌ عن ربحٍ طُفيلي ويمكنهم القيام باختياراتٍ «ثقافية خالصة»، مُحوّلين أنفسَهم إلى وسطاءٍ ومُنظِّمين لوعيٍ ثوري مُنحدرٍ من فكرٍ فلسفي. بهذا المعنى فإن المثقفين شديدو الشبه بالصيرورةِ الخالصة للـ«روح»، بالتفتّح الهيجلي للوعي - الذاتي. من الجهة الأخرى، فإن العمال، الذين ما زالوا حاملين لمصالح اجتماعية، يمكنهم فحسب أن يعبروا من مرحلةٍ اقتصاديةٍ خالصة (الـ«في ذاته» الهيجلي للكائن الاجتماعي) إلى مرحلةٍ واعيةٍ سياسيًا (الـ«لذاته» للوعي- الذاتي) من خلال الشكل السياسي للحزب، الذي يُجسِّد ميراثًا فلسفيًا وينقله. يتحدث ماركس عن البروليتاريا كوريثةٍ للفلسفة الكلاسيكية الألمانية: إذ بفضل نضال العمال يُصبح ممكنًا التحقُّق التاريخيّ للأفق الديالكتيكي - بلوغ نقطة النهاية للتطور الفلسفي الألماني من التنوير الكانطي إلى المثالية الرومانسية.

وعند جرامشي يتضمن التأمّلُ في المثقفين تحليلًا اجتماعيًا، ويُقارِب صياغةً مادية للعلاقة «العضوية» بين المثقفين والطبقة العاملة. ورغم ذلك، يظل البعدُ الجمعي للنشاط الذهني داخل نطاق الحزب، مُعرَّفًا بأنه المثقفُ الجمعي. من ثم فإن مثقفَ التقاليدِ الجرامشية (ذلك الذي ما زال يجب إخضاعه للعمل بواسطة الشبكة الرقمية) لا يمكنه بلوغُ البعدِ الجماعي والسياسيّ إلّا من خلال الحزب، لكن في النصف الثاني من القرن العشرين، في أعقاب التعليم الجماهيري والتحول التكنو - علمي للإنتاج الذي جرى من خلال التكامل المباشر لمعارف مختلفةٍ، جرت إعادةُ تعريفِ لدور المثقفين. لم يعد المثقفون طبقةً مستقلةً عن الإنتاج، ولا فردياتٍ حرة تأخذُ على عاتقها مهمة اختيارٍ أخلاقيٍ صِرف وإدراكِي حر؛ وبدلًا من ذلك يصبح المثقف ذاتًا اجتماعيةً جماهيرية تميل إلى أن تصبح جزءًا لا يتجزأ من السيرورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنتاجية العامة. يستخدم پاولو ڤيرنو Paolo Virno مصطلح «الذهنية الجماهيرية» ليشير إلى تشكّل الذاتية الاجتماعية المرتبطة بالتوحيد القياسي الجماهيري للطاقة الذهنية في المجتمع الصناعي المتقدم.

كان ميلاد الحركة الطلابية في الستينات علامةَ تحوّل السيناريو الاجتماعي الذي ينشأ عنه هذا المجازُ الجديد للذهنية الجماعية. صارت الحركةُ الطلابية فاعلًا حاسمًا للتاريخ الحديث حين بلغت التأثيراتُ الاجتماعية للتعليم الجماهيري نضجها، عام 1968. لأول مرةٍ في التاريخ تعرّفت الوظيفةُ الذهنية على نفسها كذاتٍ سياسيةٍ جماهيرية. امتلكت الحركةُ الطلابية وعيًا جزئيًا فحسب بالتحوّل الاجتماعي التي كانت تُشير إليه. وفي أوروبا على الأقل حاول جزءٌ ضخمٌ من الحركة الطلابية تفسيرَ دورِه الخاص طبقًا للمقولات الماركسية - اللينينية، مُدركًا نفسَه كطليعةٍ سياسية، كجيشٍ من المثقفين في خدمة الشعب، لكن في نفس حركة العمل الذهني الآخذ في التشكّل بزغ احتمالُ التنظيم الاجتماعي للذهنية الجماهيرية. كتب هانس -يورجن كرال Hans-Jürgen Krahl، أحد زعماء الحركة الطلابية الألمانية، قبل وقت قصير من وفاته قبل الأوان في حادث سيارة، أطروحاتٌ في الذكاء التكنو - علمي التي نُشرت في دورية Sozialistische Korrespondenz - Info 25، عام 1969، ثم في كتاب Kostitution und Klassenkampf (1969). يقرر كرال لأول مرة أن التركيب الاجتماعي الجديد للعمل المكتسبِ للطابع الذهني لا يمكن تنظيمه وفقًا للمقولات السياسية والتنظيمية لحركة العمال التقليدية.

وقبل وفي توازٍ مع حركات عام 1968، أخرجت العمّالية الإيطالية إلى النور، بطريقةٍ أصيلة من خلال مقاربتها التحليلية، هذا القلبَ الضروري للمنظور عند نهاية الستينات (ماريو ترونتي، رانييرو پانزييري، توني نجري،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رومانو ألكواتي). أفضِّلُ الحديث عن هذا التيار الفكري باعتباره «نزعةً تركيبية»، بسبب حقيقةِ أن إسهامه النظري الجوهري يتمثل في إعادة صياغة مشكلةِ التنظيم السياسي على أساس التركيب الاجتماعي. تتخلّى النزعةُ التركيبية عن المقولة اللينينية للحزب باعتباره مثقفًا جمعيًا وتترك مفتوحةً مقولةَ المثقف ذاته، باقتراح إعادة فحصِ المفهوم الماركسي لـ**«الذهن العام»**.

تحدث ماركس عن **الذهن العام** في قسمٍ منGrundrisse (الأسس) معروف بأنه «الشذرة عن الآلات»:

لكن إلى الدرجة التي تتطورُ إليها الصناعةُ الضخمة، يعتمد خلقُ الثروةِ الحقيقية على زمن العمل وعلى كمية العمل المستخدَمة بدرجةِ أقل مما يعتمد على قوةِ التوسطات التي يجري إطلاقُ حركتِها خلال زمن العمل، التي تكون «فعاليتُها القوية» هي ذاتها بدورها خارجَ كل تناسبٍ مع زمن العملِ المباشر المنصرِم في إنتاجها، لكنها تعتمدُ بالأحرى على الحالةِ العامة للعلم وعلى تقدّمِ التكنولوجيا، أو تطبيقِ العلم على الإنتاج... تتبدّى الثروةُ الحقيقية، بالأحرى - وتكشف الصناعةُ الضخمة ذلك- في عدم التناسبِ الجهنمي بين زمن العملِ المبذول، وبين نتاجِه، وكذلك في عدم ـ التوازن النوعي بينِ العملِ، المختزَلِ إلى تجريدٍ خالص، وبين قوة عمليةِ الإنتاج التي يُشرف عليها.

الطبيعة لا تبني آلاتٍ، ولا قاطراتٍ بخارية، ولا سككٍ حديدية، ولا تلغرافاتٍ كهربية، ولا بغالٍ ذاتيةِ - الفعل، إلخ. هذه نتاجاتٌ للصناعة البشرية؛ مادةٌ طبيعية تتحولُ إلى أعضاءٍ للإرادة البشرية على الطبيعة، أو للمشاركةِ البشرية في الطبيعة. إنها أعضاءٌ للعقلِ البشري، خلقتها اليدُ البشرية؛ قوةُ المعرفةِ، وقد تشيّأت. إن تطور رأس المال الثابت يُشير إلى الدرجة التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصبحت بها المعرفةُ الاجتماعية قوةً مباشرةً للإنتاج، ومن ثم، للدرجة أصبحت بها شروطُ سيرورةِ الحياة الاجتماعية ذاتها تحت سيطرةِ **الذهن العام** وتحوّلت وفقًا له. إلى الدرجةِ التي تم بها إنتاجُ قوى الإنتاج الاجتماعي، ليس فقط في شكل معرفةٍ، بل أيضًا كأعضاءِ فورية للممارسة الاجتماعية، لسيرورة الحياة الواقعية (1973: 706-704).

خلال قرن الثورات الشيوعية، أغفلت التقاليدُ الماركسية - اللينينية وأرجعت إلى المؤخرة مقولة **الذهن العام**، رغم أنها في التحوُّل الإنتاجي ما بعد-الصناعي انبثقت باعتبارها قوةً إنتاجية محورية. وعند نهاية القرن، بفضل التكنولوجيات الرقمية وخلق الشبكة الكوكبية للاتصالات عن بعد، أعيد تعريف السيرورة الاجتماعية العامة بواسطة **الذهن العام** وغادر المفهومُ اللينيني للحزب المسرحَ بصورةٍ حاسمة. وحتى المقولة الجرامشية للمثقف العضوي تفقد تماسكها حيث أنها تقومُ على أساس انتماء المثقفين إلى إيديولوجيا، بينما ما يهم الآن هو تشكيلُ تسلسل اجتماعي جديد، يمكن أن ندعوه الكوجنيتاريا، يمثّل الذاتية الاجتماعية **للذهن العام**.

الكوجنيتاريا وإعادة - التوليف

إذا أردنا تحديد «ما العمل» لعصرنا فنحن بحاجةٍ إلى تركيز انتباهنا على الوظيفة الاجتماعية للعمل الإدراكي. لم تعد حالةً لبناءِ ذاتيةٍ - طليعية - المثقف العضوي- أو تنظيم المثقف الجمعي في الحزب؛ بل إنها، بالأحرى، مسألة خلق حركات قادرةٍ على تنظيم العمال الإدراكيين كعاملٍ للتغيير لمجمل دورة العمل الاجتماعي. مشكلة عصرنا هي خلق وظيفة **إعادة توليفٍ** recombinant function، وظيفةٍ للذاتية قادرةٍ على تغطية مختلفِ مجالات الإنتاج الاجتماعي، وإعادة توليفها ضمن نطاق إطارِ نموذجٍ معياري لا يعتمد على الربح بل على الفائدة الاجتماعية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكونه لم يعد وظيفةً اجتماعية منفصلةً عن العمل العام، يصبح العملُ الذهني وظيفةً تقاطعية transversal مع مجمل السيرورة الاجتماعية. إنه في الحقيقة خلقُ واجهاتٍ مشتركةٍ interfaces تكنو - لغوية تتيحُ سيولة السيرورة وقدرة [potere] إعادة توليفها. إعادة التوليف لا تعني التخريب أو الإطاحة، ولا جلب أصالةٍ اجتماعيةٍ خفيةٍ إلى السطح، بل تعني بالأحرى تجميعَ عناصر المعرفة طبقاً لمعاييرِ تُخالفُ معاييرَ الربح وتراكم القيمة. لم تعد حالةُ بناء أشكالٍ للتمثيل السياسي بل منحِ شكلٍ لسيرورات المعرفة، وللتسلسل التقني والإنتاجي القائم على نماذج ابيستمولوجية [معرفية] مستقلة ذاتيًا عن الربح وتحفزها بدلًا من ذلك فائدتُها الاجتماعية. لم يعد المثقفون يجدون أن مجالَ الفعل السياسي خارجٌ عن ممارساتهم اليومية؛ فهو الآن يكمنُ في الارتباطات التقاطعية بين المعرفة وبين الممارسات الاجتماعية.

المبرمِج يجب أن يكون مُبرمِجًا، والطبيب يجب أن يكون طبيبًا، وخبير الهندسة الحيوية يجب أن يكون خبيرَ هندسةٍ حيوية، والمعماري يجب أن يكون معماريًا. لكن في الرؤية اللينينية يجب أن يكون كلُّ واحدٍ منهم ثوريًا بالمهنة، لأن هذا يعني أن يجلب الوعيَ الثوري إلى العمال من الخارج. أما في سياق اليوم، في المقام الأول، فإن المبرمج، والمهندس، والطبيب، والمعماري يجب أن يُعيدوا توجيه فعلهم الإدراكي، مُعدّلين بنية ووظيفة مجال معرفتهم النوعي ومجال فعلهم الإنتاجي.

تمتع الفصلُ التحليلي بين الدائرة الاقتصادية وبين الوعي بقاعدةٍ فعلية حين كان العمل الإنتاجي منفصلًا بنيويًا عن العمل الذهني؛ إلّا أن معنى ذلك التقسيم يضيع لحظة أن يندرج العملُ الذهني تحت السيرورة الأوسع للإنتاج. لا يجب اعتبار الإنتاج سيرورةً اقتصادية خالصة، محكومةً بشكلٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حصري بقوانين التبادل؛ إذ تدخل عواملُ من خارج الاقتصاد إلى تلك السيرورة وتكشف أنها أشد حسمًا حين يتم إكسابِ دورة العمل طابعًا ذهنيًا. فالثقافة الاجتماعية، والتخيّلات المتعارضة، والتوقّعات وخيبات الأمل، والقرف والوحدة تدخل لتُعدّل إيقاعَ وسيولة العملية الإنتاجية. الإنتاجية الاجتماعية مشروطةٌ بالدوائر العاطفية، والإيديولوجية، واللغوية. ويصبح هذا أشدَّ وضوحًا حين تصبح الدوائر العاطفية، واللغوية، والتخطيطية مُنخرطةً بدرجةٍ أكبر في عملية إنتاج القيمة.

التوليف الاجتماعي يمنح الإنتاجَ طابعًا علميًا متزايدًا، وبهذه الطريقة يُشكّله ككلّيةٍ، كعاملٍ عام، لكنه في نفس الوقت يختزلُ القدرةَ المنفردة على العمل إلى لحظةِ إنتاجٍ بسيطة. بلغ تطبيقُ العلم والتقنية على العملية الإنتاجية مستوىً من التطور يُهدّد بفك النسق. ومن ثم فقد حفز خاصيةً جديدة لإضفاء الطابع الاجتماعي على العمل الإنتاجي لم تعد تحتملُ شكلَ التشييء الذي يفرضه رأسُ المال على العمل (كرال 1969: 365).

على أساس هذه المقدمات ينتقد كرال التخطيطَ السياسي للحركة العمالية في القرن العشرين:

إن غيابَ التأمل في **التأسيس** (verfassung) الاحترافي للوعي - الطبقي بوصفه مقولةَ غير - إمبيريقية قد أدخلَ في الحركة الاشتراكية اختزالًا ضمنيًا للوعي الطبقي بمعنى لينيني غير كافٍ للحاضرة الضخمة [المتروبول] (1969: 367).

اللينينية، إذن، غير كافية كنموذجٍ تنظيمي وأيضًا كتصوّرٍ للعلاقة بين الوعي الاجتماعي وبين عملية الإنتاج الأوسع، بالنسبة للوضع المتروبوليتاني. ويمكننا أن نُضيف أن اللينينية غير كافية مطلقًا حين يكتسب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التركيبُ الاجتماعي للعمل شكل شبكة. كانت الرؤية اللينينية تقوم على أساس انفصالٍ بين عملية العمل وبين نشاطٍ إدراكي من نوعٍ أرقى (لندعوه الوعي). هذا الانفصال له أساسٌ في شكل العمل الصناعي - الأصلي، الذي يملك فيه العاملُ معرفةً بصنعته لكنه لا يملك أي معرفةٍ بنسق المعرفة الذي يُبْنِين المجتمع. لكن أساس ذلك الانفصال يُصبح هشًا بشكلٍ متزايد في اللحظة التي يقوم فيها العامل الجماهيري، المُجبر على نشاط عملٍ يزدادُ تشظيًا وتكراريةً باستمرارٍ، بتطوير حسّه الاجتماعي في بُعدٍ تخريبي ومناهض للرأسمالية بشكل مباشر. وأخيرًا لا يعود لذلك الانفصال أيُّ أساسٍ حين نتعامل مع العمل الذهني، حين يصبح العمال الذهنيون المنفردون حَمَلَةً لوعيٍ نوعي وإدراكٍ، رغم أنه مُعذَّبٌ، وغير متكافئ، ومتشظٍ، للنسق الاجتماعي للمعرفة الذي يشملُ مجملَ دوراته الإنتاجية.

اتضح هذا كلهُ بصورةٍ صافية خلال هوس الدوت كوم في التسعينات، مما أتاح سيرورةً واسعة للتنظيم الذاتي للمنتجين الإدراكيين؛ فقد تمكنوا من استثمار كفاءاتهم، ومعرفتهم، وإبداعيتهم، ووجدوا في سوق الأوراق المالية وسيلةَ تمويل رغبتهم في التحقق. إلّا أن هوس الدوت كوم سيطرت عليه إيديولوجيا متعصبةٌ نوعًا ما للتفاؤل الليبرالي الذي جعل العمالَ الإدراكيين خاضعين لمجال رأس المال المالي. لكن السيرورة الفعلية التي تفتحت في أعوام الدوت كوم تضمنت عناصرَ من التجديد الاجتماعي والتكنولوجي أيضًا. وخلال النصف الثاني من التسعينات جرى صراعٌ طبقي حقيقي داخل الدوائر الإنتاجية للتكنولوجيا الراقية. ووسم هذا الصراعُ صيرورةَ الشبكة. استفادت الاحتكاراتُ في السوفت وير، والاتصالات عن بعد، والترفيه، والإعلان من عمل الذكاء الجمعي، والآن تحاولُ أن تنتزع أدواته للتنظيم - الذاتي حتى تجبره على شرطِ خضوعٍ مرنٍ، ومُقلقلٍ، وخلوي. كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشروعات الدوت كوم مختبرًا لتشكيل نموذجٍ إنتاجي، وسوقٍ. وفي النهاية تم أسْر السوق وخنقها من جانب الاحتكارات التي سرقها وأذابها جيشُ روّاد الأعمال -الذاتيين والرأسماليين المغامرين المتناهي الصغر. بهذه الطريقة بدأت مرحلةٌ جديدة: تحالفت المجموعاتُ الاحتكارية التي كسبت اليدَ الطولى داخل دورة اقتصاد - النت مع المجموعةِ السائدة من الاقتصاد القديم (عصبة بوش، ممثلي البترول والعسكريين)، وحدّد هذا إعاقةً لمشروعٍ خاصٍ للعولمة. أنتجت النيوليبرالية نفيَها الخاص: سيطرةً إحتكاريةً ودكتاتوريةً دولتية - عسكرية. أما العمالُ الإدراكيون، الذين كانوا أنصارًا متحمّسين للإيديولوجيا الليبرالية، فأصبحوا ضحاياها المُهمَّشين.

كان الوعدُ المتضمَّن في إيديولوجيا الاقتصاد الجديد هو وعدُ التعويض المُجزي والمشاركة في الثروات الاقتصادية للنظام. لكن مع حلول عام 2000، انهار البناءُ الهش للاقتصاد الجديد وبدأت أزمةٌ للطبقة الافتراضية. تبدّدت الطاقةُ النفسية المستثمرَة في الاقتصاد. وتضاءلت احتمالُات الحصول على تعويضٍ مُجزٍ، أو حتى على وظيفةٍ ذات معنى في القطاعات التجديدية، وحاليا يُهدد عدمُ الأمانِ هذا بالتحوُّل إلى هلع.

كان لا بد لتبدُّل هذا السيناريو أن يُنتج تحولًا في آفاق إعادة توليف دورة العمل الإدراكي. فالطبقة الافتراضية، الواثقة من نفسها، المنغلقة داخل دوائر اقتصادٍ اعتقَدَ أنه مُحصَّنٌ من تقلّبات العالمِ المادي ومحميٌ من الأزمات الدورية، مُضطرةٌ اليوم للتعرّف على نفسها باعتبارها كوجنيتاريا، بروليتاريا مُزوّدةً بوسائل ذهنيةٍ استثنائية، مُستودعًا للمعرفة التي يرتكز عليها المجتمع الرأسمالي. يكتشف اليابي yuppie(2) السعيد أنه عاملٌ مُستغَلٌ، وفي هذا الاكتشاف يكمنُ شرط سيرورة تنظيمِ - ذاتيٍ للعمل الإدراكي. تبزغ صورةُ المثقف وقد أعادت تعريفَها تمامًا التطوراتُ التي تحقّقت في الإنتاج في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العقود الأخيرة.

الكوجنيتاريا ضد الزمن السيبراني الرأسمالي

آمنت روزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg بأن الرأسمالية مدفوعةٌ داخليًا صوب سيرورة توسعٍ متصل، والإمبريالية هي التعبيرُ السياسي، والاقتصادي، والعسكري عن هذه الحاجة للتوسع المتصل الذي يجعل رأس المال يوسّع مجاله بشكلٍ متصل.

لكن ماذا يحدث حين يكون كل فضاءٍ من أراضي الكوكب قد تم إخضاعه لسلطة [potere] الاقتصاد الرأسمالي وكل شيءٍ في الحياة اليومية قد تحوّل إلى سلعة؟ في الحداثة المتأخرة يبدو أن الرأسمالية قد استنفدت كل إمكانيةٍ للمزيد من التوسّع. لفترةٍ معينة بدا أن غزو الفضاء الخارجي هو اتجاهٌ جديد لتطور التوسع الرأسمالي. وبعدها رأينا أن اتجاه التطور هو في المقام الأول غزو الفضاء الداخلي، العالم الداخلي، فضاء العقل، فضاء الروح، فضاء الزمن.

كان استعمار الزمن هدفًا محوريًا لتطور الرأسمالية خلال الحقبة الحديثة: فالتغير الأنثروبولوجي الذي أنتجته الرأسمالية في العقل البشري وفي الحياة اليومية كان بالدرجة الأولى تحوّلًا في إدراك الزمن، لكن مع انتشار التكنولوجيَات الرقمية، التي تتيحُ التسارعَ المطلق، يحدث شيءٌ جديد. يصبح الزمن ميدانَ المعركة الأولى، بما أنه فضاء العقل: زمن العقل، الزمن السيبراني. من هنا يجب أن نُدخل تمييزًا بين مفهوم الفضاء السيبراني ومفهوم الزمن السيبراني. وهذا التمييز محوريٌ للإعداد التكنو - ذاتي للنضال. فقوة potenza هذه الصورة الجديدة لذهنية «الكوجنيتاريا» تجري إعادة توطينها بواسطة العملية الاستبدادية للزمن السيبراني الرأسمالي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفضاء السيبراني هو دائرة الاتصال بين مصادر نطقٍ لا تُحصى بشريةٍ وآلاتية، هو دائرة الاتصال بين العقول والآلات في توسّعٍ لا محدود. هذه الدائرة يمكن أن تنمو إلى ما لا نهاية، لأنها نقطة التقاطع بين الجسد العضوي وبين الجسم اللاعضوي للآلة الإلكترونية، لكن الفضاء السيبراني ليس البعدَ الوحيد الممكن لتطور هذا الاتصال المتبادل: والجانب الآخر من السيرورة هو الزمن السيبراني. هذا هو الجانب العضوي من السيرورة، وتوسّعه محدودٌ بعوامل عضوية. يمكن توسيع قدرةِ العقل البشري على المعالجةِ بالعقاقير، وبالتدريب والانتباه، بفضل توسّع القدرة الذهنية، لكن لها حدودٌ زمنية، مرتبطة بالبعد العاطفي، الحسّاس للكيان العضوي الواعي.

عمومًا نطلق اسم الفضاء السيبراني على الكونِ الكلي للعلاقات الممكنة اللانهائية لنسقٍ **ريزومي**(3) rhizomatic يربط افتراضيًا كل نهايةٍ **طرَفية** terminal بشريةٍ بكل نهاية طرَفيةٍ بشرية أخرى، وفي نفس الوقت يربط النهايات الطرفية البشرية والآلاتية. الفضاء السيبراني هو ريزومةٌ عصبية - اتصالية عن بعد، ومن ثم فإنه شبكةٌ لا - مراتبية ولا - خطّية تربط العقولَ البشرية بالمعدات الإلكترونية. وعلى العكس، فإن الزمن السيبراني ليس بعدًا قابلًا للامتداد بصورة خالصة، لأنه متصلٌ بكثافة الخبرة التي يكرّسها الكيانُ العضوي الواعي لمعالجة المعلوماتِ القادمة من الفضاء السيبراني.

الدائرة الموضوعية للفضاء السيبراني تتمدد بسرعة التكرار الرقمي، لكن النواة الذاتية للزمن السيبراني تتطور بإيقاعٍ أبطأ، إيقاع «الجسمانية»، إيقاع المتعةِ والمعاناة. هكذا، بينما يتغير التركيبُ التقني للعالم، لا يتبعهُ التملّكُ الإدراكي والاستجابةُ النفسية بطريقةٍ خطّية. تحوُّل البيئة التكنولوجية أسرعُ بكثيرٍ من التغيرات في العاداتِ الثقافية والنماذجِ الإدراكية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلما أصبحت طبقةُ الدائرة المعلوماتية أكثَف باستمرار، كلما غزت المثيراتُ المعلوماتية كلَّ ذرةٍ من الانتباه البشري. ينمو الفضاءُ السيبراني بصورةٍ غير محدودة، لكن الزمنَ العقلي ليس لامتناهيًا. النواة الذاتية للزمن السيبراني تتبعُ الإيقاعَ البطيء للمادة العضوية. يمكننا زيادة زمن تعرُّض الكيان العضوي للمعلومات، لكن الخبرة لا يمكن تكثيفها وراء حدودٍ معينة.

فيما وراء هذه الحدود، يثير تسارعُ الخبرةِ وعيًا منخفضًا بالمثير، فقدانًا للكثافة يتعلق بالدائرة الجمالية، دائرة الحس الوجداني sensibility، وكذلك دائرة الأخلاق بصورة هامة. تصبح الخبرةُ بالآخر مبتذلة؛ يصبح الآخرُ جزءًا من مثيرٍ محمومٍ وغير منقطع، ويفقد تفرّدَهُ وكثافته - يفقد جماله.

هكذا نملكُ فضولًا أقل، ودهشةً أقل؛ ومزيدًا من التوتر، والعدوانية، والقلق، والخوف. التسارع يُنتج إفقارًا للخبرة، لأننا مُعرَّضون لكتلةٍ متزايدة من المثيرات لا يمكننا معالجتها، طبقًا للصيغ الكثيفة للمتعة والمعرفة.

من جديدٍ، يكون لدينا المزيد من المعلومات، ومعنى أقل؛ المزيد من المعلومات، ومتعةٌ أقل. الحس الوجداني يقع داخل الزمن. الحسّية تكمن في البطء، وفضاء المعلومات مُفرط الاتساع والسرعة بحيث لا يمكننا معالجته بكثافةٍ، وعمق. عند نقطة التقاطع بين الفضاء السيبراني الإلكتروني وبين الزمن السيبراني العضوي يكمن اللُّبّ الجوهري للتحول الراهن. الغالبية العظمى من البشرية خاضعةٌ لغزو التدفق الفيديو - إلكتروني، وتعاني من تراكُب الشفرة الرقمية فوق شفرات التعرّف والتماهي مع الواقع التي تتخلّل كل الثقافات العضوية.

والوباءُ النفسي - المرضي الذي يبدو أنه ينتشر في السلوكات الاجتماعية يعتمد أيضًا على هذه الفجوة، على هذا اللاتساوق بين تشكيل format البث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(النسق التكنو - اتصالي) وبين تشكيل التلقّي (العقل الاجتماعي). التسارع الذي تُنتجه تكنولوجيات الشبكة وشرطُ تقلقل وتبعية العمل الإدراكي، المُجبَرِ كما هي الحال على الخضوع لإيقاع الشبكة الإنتاجية، أنتج تشبّعًا للانتباه البشري بلغ مستوياتٍ مَرَضية.

في عملية العمل لم يعد لدينا وقتٌ متاح؛ والانتباه مفرطُ التشبّع. **أولاً:** ليس لدينا وقتٌ للانتباه داخل العمل، **وثانيًا**: ليس لدينا وقتٌ للتفاعل الوجداني، لذلك النوع من الانتباه الفضائي الذي هو الشبقية، الانتباه لجسدنا ولجسد الآخرين. يميل الحسُّ الوجداني لأن يكون متبلّدًا، لكن ماذا يحدث حين لا يعود لدينا الوقتُ للانتباه؟

ما يحدث هو أننا نُدرك الأشياءَ حسّيًا بصورةٍ سيئة؛ لا نعود قادرين على اتخاذ قراراتٍ بطريقةٍ عقلانية. ويُنتج هذا تأثيرًا يُعرّفه الأطباءُ النفسيون على أنه الهلع. يُخاطر المجتمع بأن يُدفعَ إلى حالة الهلع، حالةِ المرض النفسي المشتّت، حالة نزع الحساسيةِ ونزع التفاعل الوجداني. الانزعاج في وجه الآخر وردّ الفعل العدواني هما جِذرا مناخِ الحرب الجديد الذي سقط فيه الغرب.

ولفهم أصل هذا المَرض النفسي لا بد أولًا أن ننظر إلى العلاقة بين الفضاء السيبراني وبين الزمن السيبراني. **الفضاء السيبراني هو الإنتاجية اللامتناهية للذكاء العام، للذهن العام، للنت.** حين يدخلُ عددٌ هائلٌ من النقاط في اتصالٍ غير - مركزي وغير - تراتبي فلدينا الإنتاجُ اللامتناهي من العلامات، أي السلع الذهنية.

إلاّ أن الزمن السيبراني ليس لا متناهيًا بأية حال. الزمن السيبراني هو القدرة العضوية، الفيزيقية، المتناهية على معالجة المعلومات. هذه القدرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موجودةً في عقلنا، وعقلنا يحتاج إلى البطء في زمن المعالجة، يحتاج إلى فردنة sigularize المعلومات وجدانيًا. وإذا اختفى زمنُ المعالجة يكون العقلُ البشري مُجبَرًا على إتّباع إيقاع الشبكة الآلاتية، وهذا يُسبب مرضًا يتبدّى كهلعٍ واكتئابٍ على المستوى الفردي، وكعدوانيةٍ مُعمَّمة على المستوى الجماعي.

إحدى الإجابات على سؤال «ما العمل؟» هي أن المثقفَ، ومن ثم التربيةَ الراديكالية، يجب أن تتعلم من هذه الفجوة بين الفضاء السيبراني وبين الزمن السيبراني. إذ فقط بتحرير الكوجنيتاريا من الخضوع لبُعدها الافتراضي، فقط بإعادة تفعيل ديناميةٍ للوجدانية البطيئة، للحرية من العمل، سيتمكن الكيانُ العضوي الجماعي من استعادة حسّه الوجداني وعقلانيته، قدرتِه على العيش في سلام.

الكوجنيتاريا ضد اقتصاد الحرب

وحده الاستقلالُ النسبي للعلم عن السلطة يمكنه تفكيكُ سلسلة الآليات الذاتية التي تُحصِّن بها الرأسمالية نفسَها. لم يعد هذا همّ مجموعةٍ صغيرة من علماء الفيزياء النووية، بل همُ الملايين والملايين من العاملين في العلم والتكنولوجيا، وفي الإدارة، وفي التعليم، والعلاج.

لا أعتقدُ أن الفري وير freeware والمصدر المفتوح خارج دائرة الرأسمالية. وبالمثل لا أعتقدُ أن إضراب العمال الجماعي والتنظيم - الذاتي في المصنع الفوردي القديم كان خارج دائرة الرأسمالية. لا شيء خارج دائرة الرأسمالية، لأن الرأسمالية ليست كلّيةً ديالكتيكية مُهيأةً لأن تتغلّب عليها (Aufgeheben) كلّيةٌ جديدة مثل الشيوعية، أو شيءٌ من هذا القبيل. رأس المال هو إطارٌ إدراكي للنشاط الاجتماعي، إطارٌ سميوطيقي مغروس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في النفس الاجتماعية وفي التقنية البشرية. رفض العمل، والمناطق المؤقتة المستقلة ذاتيًا، والمصدر المفتوح والفري وير، كل هذا ليس الكلّية الجديدة، إنه إعادةُ التوليف الدينامي التي تُتيح للناس أن يجدوا فضاءً لاستقلالهم الذاتي، وأن يدفعوا الرأسمالية صوب تجديدٍ تقدّمي.

الخطر في سيرورة نقلِ المعرفة هو التالي: الوسائل التقنية ل«باور بوينت» powerpoint التي تخلق «منطقًا جديدًا» Novum Organum للعلم. المعرفة المختزَلةُ إلى نسقٍ وظيفي من الأسئلة المتواترة التكرار، الصياغة الرقمية للقواعد التعليمية، لمنهج ومحتويات المعرفة. ستتذكر أن كارل ماركس كتب في موضعٍ ما أن البروليتاريا هي وريثة الفلسفة الكلاسيكية الألمانية. كان ذلك مجرد استعارة. لكن يمكننا القول الآن بمعنىً حرفي صارم أن الكوجنيتاريا هي وريثةُ العلم والفلسفة الحديثين، وكذلك وريثة الفن والشعر الحديثين. والتحرر الاجتماعي للكوجنيتاريا هو أيضًا تملّكها للتأثيرات التكنو - اجتماعية للمعرفة.

المثقفون، والكوجنيتاريون، والتركيب الاجتماعي

وفقا للتقاليد اللينينية، اعتاد الحزبُ أن يكون المنظمةَ الاحترافية للمثقفين الذين اختاروا خدمة القضية البروليتارية، وأدخل أنطونيو جرامشي عناصر تجديدٍ حاسمة على التصوّر اللينيني، لأنه أدخل تيمةَ الهيمنةِ الثقافية، والخاصية النوعية للإيديولوجيا في تطور سيرورة الاستيلاء على السلطة السياسية، لكن جرامشي ظل من الناحية الجوهرية مرتبطًا بفكرةٍ عن المثقف بوصفه شخصًا غير منتجٍ، بفكرةٍ عن الثقافة بوصفها إجماعًا خالصًا ذي قيمٍ إيديولوجية. وقد عدّل تصنيعُ الثقافة الذي تطوّر خلال القرن العشرين هذه الصور البلاغية، وأدرك الفكرُ النقدي ذلك حين هاجر من فرانكفورت إلى هوليوود. وسجّل هذا العبورَ بنيامين وماركوزه، أدورنو وهوركهايمر، بريشت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكراكاور، لكن حين شظّت الشبكةُ الرقمية وأعادت توليفَ سيرورةِ العمل الكوكبية، اكتسب عندها العملُ الذهني الهيئةَ التي كان ماركس، في **الأسس** Grundrisse، قد عرّفها بتعبير «الذهن العام».

يدعوه بيير ليفي Pierre Levy الذكاءَ الجمعي، ويُبرز ديريك دي كيركهوفه Derrick De Kerkhove أنه في الواقع ذكاءٌ اتصالي. الفسيفساء اللامتناهية التشظّي للعمل الإدراكي تصبح سيرورةً سائلةً داخل شبكةٍ كلّية للاتصال عن بعدٍ، ومن ثم يُعاد تعريفُ شكلِ العمل ورأس المال. يصبح رأسُ المال هو التدفّق السميوطيقي المُعمَّم الذي يسري خلال عروق الاقتصاد الكوكبي، بينما يصبح العملُ هو التفعيلُ الدائم لذكاءِ فاعلين سميوطيقيين بلا حصرٍ مربوطين ببعضهم البعض.

باستعادة مفهوم «الذهن العام» في التسعينات، أدخلت نزعةُ الفكر التركيبي الإيطالي بقيادة پاولو فيرنو، وكريستيان ماراتزي، وكارلو فورمنتي،
Telegram:@mbooks90
وماوريزيو لاتزاراتو مفهومَ الذهنية الجماهيرية، وشدّدت على التفاعلِ المتبادل بين العملِ وبين اللغة.

---

(1) سياتل: بمناسبة انعقاد مؤتمر منظمة التجارة العالمية في المدينة، حشدت حركة العولمة البديلة المناهضة للرأسمالية في 29 نوفمبر 1999، أربعين ألف متظاهر من جميع أنحاء العالم للاحتجاج ونجحت في تعطيل المؤتمر، في أول حدث من نوعه استهل سلسلةً من التظاهرات السلمية الحاشدة التي تقابل بقمعٍ وحشي من الشرطة، في نيس بفرنسا في ديسمبر 2000 وبورتو أليجري (البرازيل) في 2001، وكيبيك (كندا)، وجوتبرج (السويد)، وجنوا (إيطاليا)، وعام 2002 في نيويورك، وبرشلونة، وفلورنسا، واستمرت الاحتجاجات عدة أعوام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(2) اليابي/اليوبي yuppie: Young-upward mobile professional: الشاب التقني المحافظ، الخاضع تمامًا لقيم مجتمعه والمنخرط في تحقيق صعوده في قلب آلة النظام ووفق قوانينه.

(3) ريزومي: نسبة إلى الريزومة. والريزومة جزء تحت - أرضي أفقي عادةً من النبات تنشأ منه إنباتات إلى أعلى وجذور إلى أسفل. ابتكره دولوز وجواتاري كمفهوم فلسفي للمعرفة ليصفا النظرية والبحث الذي يتيح نقاط دخول وخروج متعددة، وغير مراتبية، تقابل المفهوم الشجري للمعرفة، الثنائي المراتبي الذي يعمل بارتباطات رأسية وخطية. في مقابل نموذج الثقافة الشجري، الذي يرسم السببية عبر خطوطٍ زمنية ويبحث عن أصل الأشياء، تقيم الريزومة دون توقفٍ علاقات بين سلاسل دلالية، وتنظيمات قوة، وظروف ترتبط بالفنون، والعلوم، والنضالات الطبقية، وتُمثّل التاريخ والثقافة كخريطةٍ أو ترتيبٍ واسع من التجاذبات والتأثيرات دون أصل نوعي أو تولُّد، فتحبذ نسق بداوةٍ للنمو والانبثاق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

04. ماذا يعني الاستقلال الذاتي اليوم؟

لا أنوي إعطاء تقريرٍ تاريخي عن الحركة المسماة «الاستقلال الذاتي autonomia »، لكنني أودُّ فهمَ خصوصيتها من خلال نظرةٍ عامة على بعض المفاهيم مثل رفض العمل، والتركيب الطبقي. غالبًا ما يستخدم الصحفيون كلمة 'Operaismo' [العمّالية] لتعريف حركةٍ ظهرت في إيطاليا خلال الستينات. لا يروقُني هذا المصطلح على الإطلاق، لأنه يختزلُ تعقيدَ الواقعِ الاجتماعي إلى مجرد معلومةٍ عن مركزيةِ العمال الصناعيين في الديناميات الاجتماعية للحداثة المتأخرة.

يمكن تحديدُ أصلِ هذه الحركة الفلسفية والسياسية في أعمال ماريو ترونتي، ورومانو ألكواتي، ورانييرو پانزييري، وتوني نجري، ويمكن رؤية بؤرتها المركزية في الانعتاق من مفهوم الذات الهيجلي.

بدل الذاتِ التاريخية الموروثة من التراث الهيجلي، يجب أن نتحدث عن سيرورة الصيرورة ذاتًا. يأخذ اكتسابُ الذاتية المكانَ المفهومي للذات. وهذه الحركة المفهومية شديدةُ القربِ من التعديل المعاصر للمشهد الفلسفي الذي حفزته ما بعد - البنيوية الفرنسية. اكتسابُ الذاتية مكانَ الذات. يعني هذا أننا لا يجب أن نركّز على الهوية، بل على سيرورة الصيرورة. ويعني أيضًا أن مفهومَ الطبَقة الاجتماعية لا يجب النظر إليه كمفهوم أنطولوجي، بل كمفهومٍ مُتَّجهي vectorial.

في إطار الفكر المستقل ذاتيًا يُعاد تعريفُ مفهومِ الطبقة الاجتماعية باعتباره استثمارًا للرغبة الاجتماعية، وهذا يعني الثقافةَ، والجنسانية، ورفض العمل. خلال الستينات والسبعينات لم يتحدث المفكرون الذين كتبوا في مجلاتٍ من قبيل Classe Operaia [الطبقة العاملة]، وPotere

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Operaio [السلطة العمالية] عن الاستثمارات الاجتماعية للرغبة: بل تحدثوا بطريقةٍ أكثر لينينية، لكن إيماءتهم الفلسفية أنتجت تغيرًا كبيرًا في المشهد الفلسفي، من مركزية الهوية العمالية إلى نزع مركزيةِ سيرورةِ اكتساب الذاتية.

شدّد فيليكس جواتاري دوما على فكرة أننا لا يجب أن نتحدث عن الذات، بل عن «سيرورة اكتساب الذاتية». ومن هذا المنظور يمكننا فهم ما يعنيه تعبيرُ رفضِ العمل.

لا يعني رفضُ العمل مجرد الحقيقةِ البديهية القائلة بأن العمال لا يحبون أن يُستَغَلّوا، بل ما هو أكثر. يعني أن إعادةَ الهيكلةِ الرأسمالية، والتغيّر التكنولوجي، والتحول العام للمؤسسات الاجتماعية يُنتجها الفعلُ اليومي للانسحاب من الاستغلال، لرفضِ الالتزام بإنتاج فائض قيمةٍ وزيادةِ قيمةِ رأس المال بخفض قيمةِ الحياة. لا يروقني مصطلح «العمالية»، بسبب الاختزال الضمني إلى مرجعٍ اجتماعي ضيّق (العمال، 'operai' بالإيطالية)، وأفضل استخدام كلمة «التركيبية» compositionism. فمفهوم التركيب الاجتماعي، أو «التركيب الطبقي» (المستخدم على نطاقٍ واسع بواسطة مجموعة المفكرين التي نتحدث عنها)، يرتبط بالكيمياء أكثر من ارتباطه بتاريخ المجتمع.

تروقني فكرةُ أن المكان الذي تجري فيه الظواهر الاجتماعية ليس الموطنَ الصلب، الصخري ذا النسَب الهيجلي، بل بيئةٌ كيميائية تتقاتل فيها الثقافة، والجنسانية، والمرض، والرغبة وتلتقي وتختلط وتُغيّر المشهَد بصورةٍ مستمرة. إذا استخدمنا مفهومَ التركيب، يمكننا أن نفهم بصورةٍ أفضل ما حدث في إيطاليا في السبعينات، ويمكننا أن نفهم بصورةٍ أفضل ما يعنيه الاستقلالُ الذاتي: ليس تأسيسَ ذاتٍ، وليس التماهي القوي للكائنات البشرية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع مصيرِ اجتماعي، بل التغيرُ المستمر للعلاقات الاجتماعية، والتماهي ونزع التماهي الجنسيين، ورفض العمل. فرفضُ العمل يتولد فعليًا بواسطة تعقيد الاستثمارات الاجتماعية للرغبة.

في هذه النظرة يعني الاستقلالُ الذاتي أن الحياةَ الاجتماعية لا تعتمد فقط على التنظيم الانضباطي الذي تفرضُه السلطةُ الاقتصادية، بل يعتمد أيضًا على الإزاحة الداخلية، والتحايلات، والتسويات، والتحلّلات التي تمثل سيرورةَ التركيب - الذاتي للمجتمع الحيّ؛ النضال، والانسحاب، والاستلاب، والتخريب، وخطوط الهروب من نسق السيطرة الرأسمالي. **الاستقلال الذاتي هو استقلالُ الزمن الاجتماعي عن زمنية الرأسمالية**. هذا هو معنى تعبير رفض العمل. إنه يعني ببساطة: لا أريدُ الذهابَ إلى العمل لأنني أفضل أن أنام. لكن هذا الكسل هو منبعُ الذكاء، والتكنولوجيا، والتقدم. الاستقلال الذاتي هو التنظيم - الذاتي للجسد الاجتماعي في استقلاله وفي تفاعله المتبادل مع المعيار الانضباطي.

وهناك جانبٌ آخر للاستقلال الذاتي، نادرًا ما تم التعرُّف عليه حتى الآن. فقد أثارت سيرورةُ العمال كي يصيروا مُستقلين ذاتيًا بعيدًا عن دورهم الانضباطي زلزالًا اجتماعيًا أطلق نزع - الضوابط الرأسمالي. إذ يمكن النظرُ إلى نزع - الضوابط الذي دخل المشهدَ العالمي في حقبة ثاتشر - ريجان، باعتباره الردَّ الرأسمالي على إدخال الاستقلال الذاتي عن النظام الانضباطي للعمل. طالب العمالُ بالحرية من الضوابط الرأسمالية، ثم فعل رأسُ المال نفس الشيء، لكن بطريقة معكوسة. أصبحت الحريةُ من ضوابط الدولة استبدادًا اقتصاديًا على النسيج الاجتماعي. طالب العمالُ بالحرية من السجن طول العمر في المصنع. ورد نزع - الضوابط بإدخال مرونةِ وتفتيت العمل.

أطلقت حركةُ الاستقلال الذاتي في السبعينات سيرورةَ خطرة، سيرورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تطورت من الرفض الاجتماعي للحكم الانضباطي الرأسمالي إلى الانتقام الرأسمالي، الذي اتخذ شكل نزع - الضوابطِ، حريةِ المشروع عن الدولة، وتدمير أوجه الحماية الاجتماعية، وتقليل حجم الإنتاج وجعله خارجيًا، وخفض الإنفاق الاجتماعي، والإعفاءات الضريبية، وأخيرًا إدخال المرونة.

أطلقت حركة الاستقلال الذاتي، في الحقيقة، نزعَ استقرار الإطار الاجتماعي الناشيء عن قرنٍ من الضغوط من جانب النقابات وضوابط الدولة. فهل كان ذلك خطأً فظيعًا ارتكبناه؟ هل يجب أن نندم على أفعال التخريب والانشقاق، أفعال الاستقلال الذاتي، ورفض العمل التي يبدو أنها أثارت نزعَ - الضوابط الرأسمالي؟ بالقطع لا.

لقد أحبطت حركة الاستقلال الذاتي التحرك الرأسمالي بالفعل، لكن سيرورة نزع - الضوابط كانت منقوشةً في التطور ما بعد - الصناعي القادم وكانت مُتضَّمنةً بصورة طبيعية في إعادة الهيكلة التكنولوجية وفي عولمة الإنتاج.

ثمة علاقةٌ وثيقة بين رفض العمل، وإدخال المعلوماتية في المصانع، وتقليل حجم المشروع، وتجنيد الوظائف من الخارج، وفرض مرونة العمل. لكن هذه العلاقة أكثر تعقيدًا بكثير من سلسلة سببٍ ونتيجة. فسيرورة نزع - الضوابط كانت منقوشةً في تطور تكنولوجياتٍ جديدة تتيح للشركات الرأسمالية الكبرى إطلاق سيرورة عولمة. إذ حدثت سيرورةٌ مماثلة في مجال الميديا، خلال نفس الفترة.

فكّر في محطات الراديو الحرة في السبعينات. في إيطاليا في ذلك الوقت كان هناك احتكارٌ مملوكٌ للدولة، وكانت الإذاعةُ الحرة ممنوعةً. وفي عامي 1976-75 بدأت مجموعةٌ من نشطاء الميديا في خلق محطات راديو صغيرة مثل راديو أليس في بولونيا. شجب اليسارُ التقليدي (الحزب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشيوعي الإيطالي وسواه) نشطاءَ الميديا أولئك، محذرًا من خطر إضعافِ نسق الميديا العمومي، وفتح الباب أمام الميديا المملوكة ملكيةً خاصة. فهل يجب أن نعتقدَ اليوم أن أولئك الناس من اليسار الدولتي التقليدي كانوا على صواب؟ لا أعتقد ذلك، أعتقد أنهم كانوا مخطئين في ذلك الوقت، لأن نهايةَ الاحتكارِ المملوك للدولة كانت حتمية، وحريةُ التعبير أفضل من الميديا المُمركَزة. كان اليسارُ التقليدي قوةً محافظة، مُقدّرٌ لها الهزيمة حيث كانوا يحاولون بصورةٍ يائسة الحفاظ على إطارٍ قديم لم يعد ليستطيعَ البقاء في الوضع التكنولوجي والثقافي الجديد للانتقال ما بعد - الصناعي. ويمكننا أن نقول نفسَ الشيء تقريبًا عن نهاية الإمبراطورية السوفيتية وما يسمّى «الاشتراكية الواقعية».

يعلم الجميعُ أن الشعب الروسي ربما كان يعيش قبل عشرين عامًا أفضل مما يفعل الآن، وأن المقرطة المزعومة للمجتمع الروسي قد تمثّلت في غالبيتها حتى الآن في تدمير أوجهِ الحماية الاجتماعية، وإطلاقِ عنان كابوسٍ اجتماعي من المنافسة العدوانية، والعنف، والفساد الاقتصادي، لكن تحلّلَ النظامِ الاشتراكي كان حتميًا، لأن ذلك النظام كان يُعيق دينامية الاستثمار الاجتماعي للرغبة، ولأن النظام الشمولي كان يُعيق التجديدَ الثقافي. كان تحلّل النظم الشيوعية منقوشًا في التركيب الاجتماعي للذكاء الجمعي، في المخيلة التي خلقتها الميديا الكوكبية الجديدة، وفي الاستثمار الجمعي للرغبة. لهذا السبب شاركت الإنتليجنسيا الديموقراطية والقوى الثقافية المنشقّة في النضال ضد النظام الاشتراكي، رغم علمهم أن الرأسمالية ليست فردوسًا. الآن يجعل نزعُ - الضوابط المجتمعَ السوفيتي السابق وحشيًا، ويختبرُ الناسُ الاستغلال والبؤس والإذلال إلى درجةٍ لم يبلغوها أبدًا من قبل، لكن هذا الانتقال كان حتميًا وبمعنى معيّن يجب النظر إليه كتغيّرٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقدمي. نزع - الضوابط لا يعني فقط تحريرَ المشروع الخاص من ضوابط الدولة وخفضَ الإنفاق العام والحماية الاجتماعية، فهو يعني كذلك مرونةً متزايدة للعمل. واقع مرونة العمل هو الجانبُ الآخر لهذا النوع من التحرر من الضوابط الرأسمالية. ولا يجب أن نقلّل من قيمة الارتباط بين رفضِ العمل وبين فرضِ المرونة الذي تلاه.

أتذكّر أن واحدةً من الأفكار القوية لحركة البروليتاريين المستقلين ذاتيًا خلال السبعينات كانت فكرة أن «التقلقل جيد». فتقلقل الوظائف هو شكلٌ من الاستقلال الذاتي عن العمل المنتظم الثابت، الذي يدوم حياةً بطولها. خلال السبعينات اعتاد الكثيرُ من الناس العملَ بضعة أشهر، ثم الذهابَ في رحلة، ثم العودة إلى العمل لفترة. كان هذا ممكنًا في أزمنة تشغيلٍ كامل تقريبًا وفي أزمنة ثقافةٍ مساواتية، وأتاح هذا الوضع للناس أن يعملوا لصالحهم وليس لصالح الرأسماليين، لكن من البديهي تمامًا أن هذا لم يكن ليستمرّ للأبد، وكان الهجوم النيوليبرالي لأعوام الثمانينات يستهدفُ قلبَ هذا التوازن للقوى.

كان نزعُ - الضوابط وفرضُ مرونة العمل تأثيرًا وعكسًا للاستقلال الذاتي للعمال ويجب أن نحاول فهم ذلك لأسبابٍ ليست تاريخيةً فحسب. إذا أردنا فهمَ ما يجب عمله اليوم، في عصر العمل المرن تمامًا، علينا أن نفهم كيف يمكن أن يحدث الاستيلاءُ الرأسمالي على الرغبة الاجتماعية.

العمل الإدراكي ورأس مال إعادة التوليف

خلال العقود الأخيرة، لعب إدخالُ المعلوماتية إلى الآلات دورًا حاسمًا في جعل العملِ مرنًا، مما عزّز لا مادية الإنتاج. قام إدخالُ التكنولوجيات الإلكترونية الجديدة في دورة الإنتاج، بفتح الطريق أمام خلق شبكةٍ كوكبية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الإنتاج - المعلوماتي، المنزوعِ - التوطين، المنزوع - المحلية، المنزوع - الشخصية. يمكن بشكل متزايدٍ مماهاة ذاتِ العملِ مع الشبكة الكوكبية للإنتاج - المعلوماتي.

كان العمالُ الصناعيون يرفضون دورَهم في المصنع ويكتسبون الحريةَ من السيطرة الرأسمالية. إلّا أن هذا الوضع دفع الرأسماليين إلى الاستثمار في تكنولوجيات توفيرِ العمل وكذلك في تغيير التركيبِ التقني لعملية العمل، حتى يطردوا العمال الصناعيين الجيّدي التنظيم ويخلقوا تنظيمًا جديدًا للعمل يكونُ أكثرَ مرونة.

الطبيعة الذهنية واللامادية بشكلٍ متزايد للعمل هي أحد جوانب التغير الاجتماعي في أشكال الإنتاج. والعولمة الكوكبية هي الوجه الآخر. اللامادية والعولمة تابعتان ومكملتان لبعضهما. والعولمة لها جانبٌ مادي في الحقيقة، لأن العمل الصناعي لا يختفي في العصر ما بعد - الصناعي، بل يهاجر إلى المناطق الجغرافية التي يمكن فيها دفعُ أجورٍ زهيدة ولا تُطبّقُ فيها الضوابط بشكل كبير.

في العدد الأخير من مجلة **كلاسى أوبرايا** [الطبقة العاملة] عام 1967، كتب ماريو ترونتي: أن الظاهرة الأهمّ للعقود القادمة ستكون تطورَ الطبقة العاملة على مستوىً كوكبي كلّي. لم يكن هذا الحدسُ قائمًا على أساس تحليلٍ لعملية الإنتاج الرأسمالية، بل بالأحرى على فهمٍ للتحول في التركيب الاجتماعي للعمل. العولمة وإدخال المعلوماتية يمكن التنبؤُ بهما كتأثيرٍ لرفضِ العمل في البلدان الرأسمالية الغربية.

خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين شهدنا نوعًا من التحالف بين رأسِ مال إعادة - التوليف والعملِ الإدراكي. وما أسميه مُعيدًا - للتوليف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي تلك الأقسامُ من الرأسمالية التي لا ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتطبيقٍ صناعي معيّن، بل يمكن بسهولةٍ نقلُها من مكانٍ إلى آخر، من تطبيقٍ صناعي إلى آخر، من قطاعٍ للنشاط الاقتصادي إلى آخر وهكذا دواليك. ورأس المال المالي الذي يتولى الدورَ المحوري في سياسة وثقافة التسعينات يمكن تسميته بأنه مُعيدٌ - للتوليف. وقد أنتج تحالفُ العملِ الإدراكي ورأس المال المالي تأثيراتٍ ثقافية هامة، هي بالتحديد التماهي الإيديولوجي بين العمل والمشروع. جرى حثُّ العمال على رؤية أنفسهم كروادِ أعمالٍ - ذاتيين، ولم يكن هذا زائفًا تمامًا في فترة الدوت كوم، حين كان يمكن للعامل الإدراكي خلقُ مشروعه الخاص، بمجرد استثمار قوته الذهنية (فكرة، مشروع، صيغة) كأصلٍ من الأصول. كانت تلك هي الفترة التي عرّفها جيرت لوفينك Geert Lovink بأنها «هوس الدوت كوم» في كتابه البارز Dark Fiber **الخيط الداكن** (2003)

ماذا كان هوس الدوت كوم؟ نظرًا للمشاركة الجماهيرية في دورة الاستثمار المالي خلال التسعينات، بدأت سيرورةٌ واسعة للتنظيم - الذاتي للمُنتجين الإدراكيين. استثمر العمالُ الإدراكيون خبرتَهم، ومعرفتهم، وإبداعيتهم، ووجدوا في سوق الأوراق المالية وسيلةَ خلق المشروعات. لعدة أعوامٍ، أصبح شكلُ ريادةِ الأعمال هو النقطة التي يلتقي فيها رأسُ المال المالي والعملُ الإدراكي المرتفعُ الإنتاجية. وقامت الإيديولوجيا الليبرتارية(1) والليبرالية التي سادت ثقافة السايبر (الأمريكية) لأعوام التسعينات بإضفاء المثالية على السوق بتقديمها على أنها بيئةٌ نقية. وفي هذه البيئة، بقدر طبيعيةِ النضال من أجل بقاءِ الأصلح الذي يجعلُ التطورَ ممكنًا، كان العمل سيجد الوسائلَ الضرورية ليُكسِب نفسَه القيمة ويصبح مشروعًا. وفور أن يثرَك لديناميته الخاصة، كان مقدورًا للنسق الاقتصادي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشبكي أن يجعلَ المكاسَب الاقتصادية مُثلى للجميع، للمالكين وللعمال، وأيضًا لأن التمييز بين المالكين والعمال سيُصبح غيرَ محسوسٍ بصورةٍ متزايدة حين يدخلُ المرءُ دورةَ الإنتاج الافتراضي. هذا النموذج، الذي نظَّر له مؤلفون من قبيل كيفين كيلي Kevin Kelly وحوّلته مجلة Wired إلى نوعٍ من رؤيةِ العالم الرقمية الليبرالية، والساخرة، والانتصارية، أفلسَ في السنتين الأوليين من الألفية الجديدة، مع الاقتصادِ الجديد وجزءٍ كبير من جيش رواد الأعمال الإدراكيين الذين يُشغّلون أنفسهم والذين سكنوا عالم الدوت كوم. أفلسَ لأن نموذج السوقِ الحرة تمامًا هو كذبةٌ عملية ونظرية. فما كانت النيوليبرالية تدعمُهُ على المدى الطويل لم يكن السوقَ الحرة، بل الاحتكار. بينما كان يتم إسباغُ المثاليةِ على السوق كفضاءٍ حر تلتقي فيه المعارفُ، والخبرة، والإبداعية، أظهر الواقعُ أن مجموعات السيطرةِ الكبرى تعملُ بطريقةٍ أبعد ما تكون عن الليبرتارية، بل تُدخِل، بدلًا من ذلك الآلياتِ الذاتية التكنولوجية، لتفرضَ نفسها بقوة الميديا أو المال، وأخيرًا تسرقُ بلا حياءٍ مجملَ حملةِ الأسهم والعمالةِ الإدراكية.

في النصف الثاني من التسعينات جرى صراعٌ طبقيٌ حقيقي داخل الدائرة الإنتاجية للتكنولوجيات الراقية. وتميزت صيرورةُ الويب بهذا الصراع. محصلةُ الصراع، الآن، غير واضحة. بالتأكيد اتضح أن إيديولوجيا سوقٍ حرةٍ وطبيعية هي خطأٌ فاضح. فكرة أن السوق تعمل كبيئةٍ نقية للمواجهةِ المتكافئة بين الأفكار، والمشروعات، والجودة الإنتاجية، وفائدة الخدمات تم اكتساحُها من جانب الحقيقة

المرّة لحربٍ شنّتها الاحتكاراتُ ضدَّ حشد العمال الإدراكيين الذين يُشغّلون أنفسهم وضد الجمهور، المُثيرِ للشفقةِ بعض الشيء، لصغار المتعاملين في البورصة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يكسب الصراعَ من أجل البقاءِ من هم الأفضلُ والأنجح، بل من سَحبَ بندقيته -بندقيةَ العنف، والسطو، والسرقة المنهجية، وانتهاكِ كل المعايير القانونية والأخلاقية. دشّن تحالفُ بوش - جيتس تصفيةَ السوق، وعند تلك النقطة انتهت مرحلةُ الصراعِ الداخلي للطبقة الافتراضية. دخل جزءٌ من الطبقة الافتراضية المجمّع التقني - العسكري؛ وتم طردُ جزءٍ آخر (الأغلبية الساحقة) من المشروع ودفعه إلى هوامش البلترةِ الصريحة. وعلى المستوى الثقافي، تأخذُ في الظهور شروطُ تشكُّل وعيٍ اجتماعي للكوجنيتاريا، ويمكن لهذا أن يكون أهمَّ ظاهرةٍ في الأعوام القادمة، المفتاحَ الوحيد لتقديم حلولٍ للكارثة.

كان أنصارُ الدوت كوم المختبرَ التدريبي لنموذجٍ إنتاجي وسوقٍ. في النهاية تمت هزيمةُ السوق وخنقِه بواسطة الشركات الكبرى، وتمت سرقةُ وتشتيت جيشِ رواد الأعمال الذين يُشغّلون أنفسهم والرأسماليين المغامرين متناهي الصغر. هكذا بدأت مرحلةٌ جديدة: فالمجموعات التي أصبحت سائدةً في دورة اقتصاد النت تصوغُ تحالفاً مع المجموعةِ السائدة في الاقتصاد القديم (عصبة بوش، التي تُمثّل البترول والصناعة العسكرية)، وهذه المرحلة تُشير إلى إعاقةِ مشروع العولمة. أنتجت النيوليبراليةُ نفيَها الخاص، وأصبح من كانوا أشدَّ مؤيديها حماسًا هم ضحاياها المُهمَّشين.

مع انهيار الدوت كوم، فصلت العمالةُ الإدراكية نفسَها عن رأس المال. الحرفيون الرقميون، الذين شعروا كأنهم روادُ أعمالٍ لعملهم ذاته خلال التسعينات، يدركون ببطءٍ أنهم قد خُدعوا، وجُرِّدوا من ممتلكاتهم، وهذا سوف يخلقُ شروط وعيٍ جديد للعمال الإدراكيين. سيُدركُ هؤلاء الأخيرون أنهم رغم امتلاكهم لكل القوة الإنتاجية، قد جُرِّدوا من ثمارها بواسطة أقليةٍ من المضاربين الجهلة الذين لا يُجيدون سوى التلاعبِ بالجوانب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القانونية والمالية لعملية الإنتاج. القسم غير المُنتِج من الطبقة الافتراضية، المحامون والمحاسبون، يستحوذون على فائض القيمة الإدراكي للفيزيائيين والمهندسين، للكيميائيين، والكتّاب ومُشغّلي الميديا. لكن بإمكانهم أن يتباعدوا عن القلعة القانونية والمالية للسميورأسمال، ويبنوا علاقةً مباشرة مع المجتمع، مع المستَخدِمين. عندها ربما ستبدأ سيرورةُ التنظيم الذاتي المستقل ذاتيًا للعمل الإدراكي. وهذه السيرورة جاريةٌ بالفعل، كما تُبيّن خبراتُ نشاطية الميديا وخلق شبكاتٍ للتضامن من العمالة المهاجرة.

كنا بحاجةٍ إلى المرور خلال مَظهَر الدوت كوم، خلال وهمِ الاندماج بين العمل وبين المشروع الرأسمالي، ثم من خلال جحيم الانكماش والحرب بلا نهاية، حتى نرى المشكلةَ تتجلّى على أسسٍ واضحة. فمن جهةٍ، يكمن النسقُ الحواذي والعديم الجدوى للتراكم المالي وخصخصة المعرفة العامة، ميراثُ الاقتصاد الصناعي القديم. ومن جهةٍ أخري، يجري بصورةٍ متزايدة نقشُ العملِ الإنتاجي في الوظائف الإدراكية للمجتمع: يبدأ العملُ الإدراكي في النظر إلى نفسه باعتباره كوجنيتاريا، ويبني مؤسساتٍ للمعرفة، للإبداع، للرعاية، للابتكار والتعليم مستقلةٍ ذاتيًا عن رأس المال.

الزمن الشَذْري fractal والمرض الاجتماعي

في اقتصاد النت، تطوّرت المرونة إلى شكلٍ من تفتيت العمل fractalization. ويعني التفتيت تقسيم النشاطية - الزمن إلى شذرات. لم يعد العاملُ يوجد كشخص. إنه مجردُ المنتِجِ القابل للتبادل لشذراتٍ متناهية الصغر من علاماتٍ قابلة لإعادة التوليف تدخلُ في التدفق المستمر للشبكة. لم يعد رأسُ المال يدفع مقابلَ توفّرِ العامل كي يُستغلَّ لفترةٍ طويلة من الزمن؛ لم يعد يدفعُ أجرًا يُغطّي مجملَ مجال الاحتياجاتِ الاقتصادية لشخصِ عامل. العامل (مجرد آلةٍ تملك عقلًا يمكن استخدامه لشذرةٍ من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزمن) يُدفَعُ لهُ مقابل أدائِه الفوري. تم جعل زمن العمل شذريًا وخلويًا. خلايا الزمن معروضةٌ للبيع على النت، ويمكن للشركة الكبرى أن تشتري قدرَ ما تحتاج. والهاتفُ المحمول هو الأداةُ التي تُعرِّفُ أفضل ما يمكن العلاقةَ بين العامل الشَذْري وبين رأس مال إعادة التوليف.

العمل الإدراكي هو محيطٌ من الشذرات الميكروسكوبية للزمن يمكن تفتيتها وإعادةُ توليفها. ويمكن النظرُ إلى الهاتف المحمول باعتباره خطَّ التجميعِ للعمل الإدراكي. ما اعتاد أن يكونَ الاستقلالَ الذاتي والسلطةَ السياسية لقوة العمل قد أصبح الاعتمادَ الكامل للعمل الإدراكي على التنظيم الرأسمالي للشبكة الكوكبية، لأن الزمن قد تم تفتيتُه وجعله مرِنًا بطريقة شذريةٍ قابلةٍ لإعادة التوليف. وحيث وُجِد رفضٌ للعمل نجد اليوم اعتمادًا تامًا للمشاعر والفكر على تدفّق المعلومات. وتأثير هذا هو نوعٌ من الانهيار العصبي يضربُ العقلَ الكوكبي وأثارَ ما سمّيناه انهيار - الدوت كوم.

يمكن النظر إلى انهيار - الدوت كوم وأزمة رأسماليةِ ـ الجمهور المالية كتأثيرٍ لانهيار الاستثمار الاقتصادي في الرغبة الاجتماعية. أنا أستخدمُ كلمة انهيارٍ بمعنى ليس استعاريًا، بل وصفٌ إكلينيكي لما يجري في العقل الغربي. أستخدمُ كلمةَ انهيار كي أعبّرَ عن انهيارٍ مرضي واقعي للكيان العضوي النفسي - الاجتماعي. فما رأيناه في الفترة التالية لأولى علاماتِ الانهيار الاقتصادي، في الشهور الأولى من القرن الجديد، هو ظاهرةٌ مرضيةٌ نفسية، هو انهيارُ العقل الكوكبي. أرى الكساد depression الاقتصادي الراهن باعتباره تأثيرًا جانبيًا لاكتئابٍ depression نفسي. فالاستثمار الكثيفُ والممتدُّ للرغبة وللطاقات العقلية والليبيدية في العمل قد خلق المناخَ النفسي للانهيار الذي يتبدّى الآن في مجالِ الانكماش الاقتصادي، وفى مجال العدوانِ العسكري، ومجال الميلِ الانتحاري.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصبح اقتصادُ الانتباهِ موضوعًا هامًا خلال السنواتِ الأولى من القرن الجديد. فالعمال الافتراضيون لديهم وقتٌ أقل فأقل للانتباه، إنهم مُنخرطون في عددٍ متزايد من المهام الذهنية، ولم يعد لديهم وقتٌ يكرّسونه لحياتهم الخاصة، للحب، والرقة، والعاطفة. يتناولون الفياجرا لأنهم ليس لديهم الوقت للمداعبات التمهيدية الجنسية. فالاتصال الخلوي أتاح احتلالًا كاملًا لعمر العمال. وتأثيره هو المرض العصبي للعلاقة الاجتماعية. وأعراضهُ بالغةُ البداهة: ملايين العبوات من عقار بروزاك Prozac تُباع كل شهر، وباءُ اضطرابات نقص الانتباه بين الصغار، انتشارُ عقاقير مثل ريتالين Ritalin بين أطفال المدارس، ووباءُ الهلع المنتشر.

يبدو سيناريو الأعوامِ الأولى من الألفية الجديدة محكومًا بموجةٍ حقيقية من السلوكِ المرضي النفسي. وتنتشر ظاهرةُ الانتحار فيما وراء حدودِ الاستشهاد الإسلامي المتعصّب. منذ تفجيرات مركز التجارة العالمي، أصبح الانتحارُ الفعلَ السياسي المحوري في المشهد السياسي الكوكبي.

Telegram:@mbooks90

لا يجب النظرُ إلى الانتحار العدواني كمجرد ظاهرةِ يأسٍ وعدوان، بل يجب النظر إليه كإعلانِ النهاية. يبدو أن الموجة الانتحارية تُوحي بأن البشرية قد فرغَ وقتها، وأصبح اليأسُ هو الطريقةُ السائدة للتفكير في المستقبل.

ماذا إذن؟ ليس لدي إجابة. كل ما نستطيع فعلهُ هو ما نفعلهُ بالفعل: التنظيم - الذاتي للعمل الإدراكي هو الطريقُ الوحيد لتجاوزِ الحاضر المرضي النفسي. لا أعتقد أن العالمَ يمكن أن يحكمهُ العقل. فقد أخفقت يوتوبيا التنوير، لكنني أظن أن نشر المعرفة المنظَّمة - ذاتيًا يمكن أن يخلق إطارًا اجتماعيًا يضم عوالمَ لا نهائية مستقلةً ذاتيًا ومعتمدةً على نفسِها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيرورةُ خلق الشبكة تبلغُ من التعقيدِ حدّ أنها لا يمكن أن يحكمها العقلُ البشري. والعقل الكوكبي أعقدُ من أن تعرفهُ وتسيطرَ عليه عقولٌ موضعيةٌ تحت-قطاعية subsegmental localized minds. لا يمكننا أن نعرف، لا يمكننا أن نتحكّم في، لا يمكننا أن نحكم مجملَ قوةِ العقل الكوكبي. لكن يمكننا أن نتحكّم في السيرورةِ الفريدة لإنتاج عالمٍ فريد من التفاعل الاجتماعي sociality. هذا هو الاستقلال الذاتي اليوم.

---

(1) الليبرتارية: فلسفة سياسية تعتنق الحرية كأهم مبدأ جوهري. يسعى الليبرتاريون إلى تعظيم الاستقلال الذاتي والحرية السياسية إلى الحد الأقصى، مشددين على حماية حرية الاتحاد، وحرية الاختيار، والفردية، والاتحاد الطوعي، وتوسيع حرية الآخرين السياسية والاجتماعية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

05. المجال النفسي الواهن

الفيل

كرّس مايكل مور Michael Moore فيلمًا وثائقيًا زاخرًا بالعاطفة لحادث إطلاق النار في كولومباين Bowling for Columbine, 2002 يحكي فيه ما يمكن أن يراه أي شخص، بيعُ الأسلحة النارية والعدوانية التي تغذّي الخوف. لكن في فيلم الفيل(2003) Elephant، يُسائل جوس فان سانت Gus Van Sant نفسَ الحادث من وجهة نظرٍ أعمق، أكثر خفاءً ومن ثم أكثر غرابة. ماذا حدث وماذا يحدثُ في عقل ذلك الجيلِ الذي بلغ سن النضج مع منعطف الألفية؟ ماذا يعني وإلى أين يمكن لهشاشتهِ النفسية أن تقودَنا، مع كونِه مُزوّدًا بقوةٍ تكنولوجية وتدميريةٍ مرعبة؟ القوة التكنولوجية المفرطة والهشاشة النفسية هما المزيجُ الذي يُعرّفُ الجيل الفيديو - إلكتروني الأول، خصوصًا في تنويعته الأمريكية الشمالية.

تقلل تخصصات العلوم الطبيعية والعلاج النفسي من قيمة تأثيرات التحول الإدراكي - النفسي الذي يخترق الجيل الفيديو - إلكتروني الأول. تتجاهلهم السياسة أو تزيحهم بالكامل، لكن إذا أردنا فهم شيءٍ عما يحدث في مجتمع الألفية الجديدة، فنحن بحاجةٍ إلى تحريك نقطة مراقبتنا في هذا الاتجاه، صوب المجال النفسي. فضمن المجال النفسي تتبدى تأثيرات عشرين عامًا من الغزو المعلوماتي، والإجهاد العصبي، والعقاقير النفسية الجماهيرية، والمهدئات، والمنشطات، ومواد إثارة النشوة، وتفتيت زمن العمل والزمن الوجودي، وعدم الأمان الاجتماعي الذي يُترجَم إلى خوفٍ، ووحدة، ورعب. تنفجر قنابل - نفسية موقوتة في العقل الكوكبي المتشابك. والتأثير لا يمكن التنبؤ به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلال العقود الأخيرة، تعرّض الكيان العضوي لكتلةٍ متزايدة من مثيرات الاستنفار - العصبي. ويبدو أن تسارعَ وتكثيفَ المثيراتِ العصبية على الكيان العضوي الواعي قد رقّقت الغشاءَ المعرفي الذي يمكن أن ندعوه الحس الوجداني sensibility. الكيان العضوي بحاجةٍ إلى تسريع ردّ فعله الإدراكي، والإيمائي، والحركي. فقد تم بشكِل درامي تقليلُ الزمنِ المتاح للاستجابة للمثيرات العصبية. وربما يكون هذا هو السببُ في أننا نرى انخفاضًا في قدرتنا على التقمُّص الوجداني empathy [المواجدة]. فالتبادل الرمزي بين الكائنات البشرية تتم معالجته دون تقمُّصٍ وجداني، لأن الإدراك الحسّي لوجود جسدِ الآخر في الزمن يزداد صعوبة. كي تخبَر الآخر كجسدٍ حسي، تحتاجُ إلى الزمن، الزمن للملاطفة والشمّ. ينقصنا زمن التقمُّص الوجداني، لأن الاستثارة أصبحت مُفرطةَ الشدّة.

كيف حدث ذلك؟ ما سببُ هذه الاضطرابات في التقمص الوجداني التي نجدُ علاماتها بالغةَ الوضوح في الحياة اليومية، وفي الأحداث التي تُضخّمها الميديا؟ هل يمكن أن نفترضَ علاقةً مباشرة بين توسّع دائرة المعلومات (تسارع المثيرات والمطالَبات العصبية، وإيقاعات الاستجابة الإدراكية) وبين تَقوُّض الغشاء الحسّي الذي يتيح للبشر فهمَ ما لا يمكن صياغته في كلمات، ما لا يمكنُ اختزالهُ إلى علامات مُشفَّرة؟

مُقلِّلات التعقيد مثل النقود، والمعلومات، والنماذج النمطية أو الواجهات المشتركة interfaces للشبكة الرقمية بسّطت العلاقة مع الآخر، لكن حين يظهر الآخر بلحمه وشحمه، لا يمكننا تحمّل حضوره، لأنه يجرح (لا)حسّنا الوجداني. لا يحتملُ الجيلُ الفيديو - إلكتروني شعرَ الإبط أو العانة. يحتاج المرء إلى تساوقٍ كامل كي يُقيم واجهةً مشتركة مع الأسطح الجسمانية التي في اتصالٍ معه. جيلٌ ناعم الاقترانُ يجد طُرقَه من خلال الشَعرِ وعيوب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التبادل. إنه قادرٌ على القراءةِ التناظرية، والأجسادُ المتنافرة يمكنها أن تفهمَ بعضها البعض حتى لو لم تكن تملك لغةً واجهةٍ مشتركة.

يرتبطُ تدميرُ الغشاءِ الحسّي المشترك بين البشر بالعالم التكنو - معلوماتي، لكنه يرتبط أيضًا بفرض الانضباطِ الرأسمالي للجسمانية. في المرحلة الأخيرة من التحديث الرأسمالي، أحدث تحريرُ المرأة وإدخالها في الإنتاج تأثيرَ خلخلةٍ في الاتصال الجسماني والذهني مع الطفل. اختفت الأمُ أو قلّلت حضورَها في الدائرة الخبراتية للجيل الفيديو - إلكتروني الأول. ويرتبط التأثيرُ المركّب لما يُسمَى تحرير المرأة (الذي كان في الواقع إخضاعَ النساء لدائرة الإنتاج الرأسمالي)، وانتشار عنصر التفاعل الاجتماعي التلفزيوني، بعلاقةٍ مع الكارثة النفسية - السياسية المعاصرة.

فورانٌ آخر في طورِ الإعداد في الجيل القادم. ففي العديد من الأماكن، تجري سيرورةٌ يمكن أن يكون لها عواقبُ بارزة في المستقبل. إذ تُجبرُ ملايينُ النساء في البلدان الفقيرة على هجران أطفالهن كي تنتقلن إلى الغرب لرعاية أطفالِ أمهاتٍ أخريات لا يمكنهن رعايتهم لأنهن مُفرطاتُ الانشغالِ بالعمل. أيُّ أشباحٍ للإحباطِ والعنف ستنمو في عقول الأطفالِ المهجورين؟ لقد غزا المشهدَ العالمي شعبٌ من الأطفال المفرطي - التسلّح. ومن المقدور له أن يُؤذَى بشدة، مثلما في فيتنام. لكنه لسوء الحظ يُؤذينا نحنُ أيضًا. رأينا ذلك في الصور المُلتَقَطَة في سجن أبو غريب(1) وغيره من سجون سوءِ السمعة الأمريكية.

برقةٍ ثلجية يُطلِعُنا جوس فان سانت **Gus Van Sant** على الهمهمات العُصابية، والهستيريات الأنوركسية(2)، وعدم الكفاءة في العلاقات لجيل كولومباين (أفكر في الحوارِ الوحشي بصورةٍ مذهلة بين الفتيات الثلاث في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكائنتين، حين يقرّرن الذهابَ للتسوق بعد أن ناقشنَ بصورةٍ مرعبة الصداقة وواجباتها والنسبة المئوية من الوقت التي يجب أن يُخصصها المرءُ لأعز الأصدقاء، في حسابٍ كمّي دقيقٍ للوجدانية). يُرينا غرفَ انتظارٍ لامعة، وأروقةً براقة يعبرها مرضى نفسيون. أجسادٌ فقدت الاتصال بروحها فلم تعد تدري شيئًا عن جسمانيتها. ثم يحدثُ كُل شيء بينما تعبرُ السماءُ بسرعة، مثلما يحدث دائمًا في أفلام جوس فان سانت. في الضوءِ المعلّقِ ليومٍ عادي تأتي جرائمُ القتل الانتحارية. يجري كلُّ شيء ضمن دقائق قليلةٍ ممتدة، سجلتها الكاميرات التلفزيونية ذات الدوائر المغلقة: يختبئ المراهقون تحت المناضد، محاولين تجنّب الرصاص. ليس ثمة تراجيديا، ولا صرخة مدوية؛ ولم تصل سياراتُ الإسعاف بعد. تُغيّر السماء الهائلة لونَها. طلقاتٌ جافة، متفرقة. ليست الحشودُ المرعبة التي رأيناها حول وول ستريت بينما ينهارُ البرجان. مذبحةٌ هادئة، هامشية - قابلة لإعادة الإنتاج، لإعادة الاستنساخ، مُعدِية.

التحوّل الارتباطي

يتحدث فيلم الفيل عن جيلٍ مضطرب عاطفيًا وعاجزٍ عن ربط الفكر بالفعل. يتحدث عن تغيّرٍ إدراكي يتفتّح في سياق تحولٍ اتصالي: هو العبورُ من الاقتران conjunction إلى الارتباط connection. أشكالُ الاقتران لانهائيةٌ، والارتباط أحدُها. لكن داخل مفهوم الارتباط ثمة تحديدٌ نوعي ضمني connexio يتضمن وظيفيةَ الموادِ التي يجري الربطُ بينها، قولبةٌ وظيفية تُعدُّها سلفًا لتشكيل واجهاتٍ مشتركة. بينما الاقترانُ هو الصيرورةُ آخرَ، ففي الارتباط يبقى كل عنصرٍ متميزًا، رغم أنه متفاعلٌ وظيفيًا.

الاقتران هو التقاءُ واندماج أشكالٍ مستديرةٍ وغير منتظمة تتداخل بطريقةٍ غير دقيقةٍ، غير قابلةٍ للتكرار، غير مكتملةٍ، ومستمرة. **والارتباط هو**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التفاعلُ المضبوطُ والقابلُ للتكرار لوظائف خوارزمية، لخطوطٍ مستقيمةٍ ونقاطٍ يمكن تماما مُراكبتها فوق بعضها، تُدخِل وتفصِل نفسَها طبقًا لصيغٍ ضمنيةٍ للتفاعل. صيغٌ تؤسِّس تساوقًا بين أجزاء متنوعة طبقًا لمعايير مُحدَدةٍ سلفًا. وتُنتج رقمنةُ السيرورات الاتصالية نوعًا من نزع الإحساسِ بالمنحنى، بالسيروراتِ المتصلة للصيرورةِ البطيئة، وزرعًا مُناظرًا للإحساس بشفرةٍ، تغيراتٍ مفاجئة في الحالة وتتابعًا لعلامات منفصلة.

يخبَر الجيلُ الفيديو - إلكتروني الأولُ تغيرًا، ويعتمد المستقبل الاجتماعي، والسياسي، والتقني على تأثيرات هذا التغير. لكن في تقاليد العلوم الإدراكية، لا تكون مقولةُ التغير مقبولةً، لأن الأسس الإبيستمولوجية [المعرفية] لتلك العلوم تظل مربوطةً بفرضيةٍ من طبيعةٍ بنيوية. من الناحية الفعلية، تعتبر الإدراكيةُ العقلَ البشري أداةً تقوم بوظيفتها طبقًا لقواعد متأصلةٍ وغير قابلةٍ للتغير. لا تستطيع الإدراكية أن ترى كيف تؤثر البيئةُ على الأنماط العينية والخاصة لأداء العقل. ولهذا السبب، لا يمكن السماحُ بمقولة التفاعلِ الدينامي بين النشاط العقلي والبيئة الذي تدخلُ فيه العقول في اتصال. بالنسبة للعلوم الإدراكية، فإن التعقيد التقني للاتصال غير قادرٍ على تعديل صيغِ الإدراك، حتى لو افترق إدراكيون معينون عن هذا المبدأ المؤسِّس. ففي **الإدراك والواقع** Cognition and Reality، على سبيل المثال، يتحدث أولريك نايسر Ulric Neisser عن إيكولوجيا إدراكية ويُقرّ بإمكانية تفاعلٍ دينامي بين البيئة التي يتطورُ فيها العقلُ وبين أنماط أدائه (1976).

التسارع، واللغة، والهوية

إن تسارعَ دورانِ المعلومات، كتلةَ المعلومات التي نستقبلُها، ونفكُّ شفرتَها، ونهضمُها، ولا بد أن نستجيبَ لها حتى نحافظَ على إيقاع التبادلات الاقتصادية، والوجدانية، والوجودية، يجلبُ معه أزمةً في ملكةِ الصياغةِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللفظية تتبدى بأشكالٍ متنوعة: التوحُد autism والتصاعدِ المثير للدُوار لعُسر القراءة dyslexia في الأجيال الأصغر، خصوصًا في الطبقات الاجتماعية والمهنية الأشد انخراطًا في تكنولوجيات الاتصال الجديدة.

يبدو أن الرقمنة تفتح حركةً مزدوجة لإعادة التشكيل reformatting. فاللغةُ اللفظية يتم استبدالها بأشكالٍ من الاتصال أسرعَ، وأكثر تخليقيةً، وأكثر رشاقةً في تنفيذ مهام مختلفة بصورةٍ متزامنة، طبقًا لطريقة تعدد – المهام، لكن تسارع النبضات يُثير الإجهادَ في الكيان العضوي الفيزيقي ويتطلب إعادةَ تشكيلٍ نفسية - عقلية للإدراك والتفاعل الإدراكي، من خلال استخدام العقاقير النفسية أو الإبطالِ الخالص والبسيط للتقمُّص الوجداني (الذي يُبطيء الإيقاع الإدراكي) وتخفيفِ مستوياتِ حسّيةٍ معينة مثل الشمّ واللمس، تمت إعادةُ تشكيلها بالفعل بواسطة تسارُع الكتابة.

بوجهٍ عام يمكننا القولُ بأن توسّعَ وظيفةٍ إدراكيةٍ معينة يُعيدُ تعريفَ مجمل الإدراك. يُضخِّمُ تعرُّضُ الكيانِ العضوي الواعي للفيديو - إلكترونيات كفاءاتٍ من نوعٍ ترتيبي configurational مثل القدرةِ على فكِ شفرةِ مجاميعٍ بصريةٍ مركبة أو تطويرِ عملياتٍ متعددةٍ للتفاعلِ بصورةٍ متزامنة. لكنه في نفس الوقت يُعيد تشكيلَ كفاءاتٍ أخرى، من قبيل القدرةِ على التفاعلِ العاطفي مع المثيراتِ الممتدّةِ في الزمن أو القدرةِ على إدراك العمق الزمني.

تعتمد صيغُ التذكّر على قدرةِ العقل على تخزين المعلومات التي تركت انطباعًا عميقًا، وكانت نشطةً عبر فترةٍ طويلة من الزمن أو بطريقةٍ تكرارية. التذكر يُعدِّلُ الكيانَ العضوي الواعي ويُشكِّلُ هويّته، باعتبار أن الهوية يمكن تعريفُها كتراكمٍ دينامي لذاكرةِ الأماكنِ والعلاقات التي تشكّل استمراريةَ خبرةٍ ما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن ماذا يحدثُ للذاكرة حين ينفجرُ تدفّقُ المعلومات، ويتّسعُ بصورةٍ هائلة، ويحاصرُ الإدراكَ، ويحتلُّ مجملَ الزمن العقلي المتاح، ويتسارعُ ويختزِل زمنَ تعرُّضِ العقلِ للانطباع المعلوماتي المنفرد؟ ما يحدث هنا هو أن ذاكرة الماضي تتضاءلُ وتميلُ كتلةُ المعلوماتِ الراهنة إلى أن تحتلَّ مجملَ فضاءِ الانتباه. وكلما زادت كثافةُ المجال - المعلومات، كلما شحّ الزمنُ المتاح للتذكّر. كلما قصرت برهةُ تعرّضِ العقلِ لقطعةٍ منفردة من المعلومات، كلما نَحل الأثرُ الذي تخلّفهُ هذه القطعة من المعلومات. بهذه الطريقة يميل النشاطُ العقلي إلى الانضغاطِ في الحاضر، ويُختزلُ عمقُ الذاكرة وهكذا يميل إدراكُ الماضي التاريخي وحتى التتابعُ الوجودي إلى الاختفاء.

وإذا كان صحيحًا أن الهويةَ ترتبطُ بقدرٍ كبير بما استقرَّ ديناميًا في الذاكرة الشخصية (أماكن، وجوه، توقعات، أوهام)، يمكننا افتراضُ أننا نتحركُ صوبَ نزع هويةٍ متزايد، حيث تأخذُ الكيانات العضويةُ بشكلٍ متزايدٍ في تسجيل تدفقٍ يتفتح في الحاضر ولا يتركُ وسمًا عميقًا بسبب السرعةِ التي يظهرُ بها للعين ويستقرُّ في الذاكرة. هكذا فإن زيادةَ سُمكِ قشرةِ مجال - المعلومات وزيادةَ كميةِ وكثافة المادة المعلوماتية الداخلة تُنتج تأثيرَ اختزالٍ لمجال الذاكرة المفردة. الأشياء التي يتذكرها فردٌ (الصور، إلخ) تعمل باتجاهِ بناءِ ذاكرةٍ لا شخصية، متجانسةٍ، مُستوعَبةٍ بصورةٍ منتظمة، ومُعالجَةٍ بصورةٍ هيّنةٍ لأن زمن التعرُّضِ من السرعةِ بحيث لا يُتيح شخصنةً عميقة.

الزمن السيبراني، والشبقية، ونزع - الحساسية

يبدو لي أن المسألةَ الأساسية للتغيُّر الحالي - التغير الذي يسري خلال الكياناتِ العضوية الفردية، والسكان، ومجمل الكوكب - يمكن العثورُ عليها عند تقاطع الفضاءِ السيبراني الإلكتروني والعضوي. والشباب هم طبيعيًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأكثرُ تعرّضًا لتأثيرات هذا التغير، لأن القوةَ الغازية للفضاء السيبراني قد انغرسَت فيهم إلى الحد الأقصى، ونتيجةً لذلك فإن قدرتهم على التوافق في الزمن السيبراني (أي القدرةَ المفترضة لجهازهم الإدراكي، والنفسي، والنفسي - البدني) خاضعةٌ لمطالبةٍ قصوى. المشكلة الجوهريةُ هي أن إيقاعاتِ التغير التكنولوجي أسرعُ بكثير من إيقاعاتِ التغير العقلي. ومن ثم فإن توسُّعَ الفضاء السيبراني أسرعُ بما لا يقاس من قدرةِ العقل البشري على التوسُّع والتوافق (الزمن السيبراني). يمكننا زيادةُ طولِ الزمن الذي يتعرَّضُ فيه كيانٌ عضوي للمعلومات، لكن الخبرةَ لا يمكن تكثيفُها أبعدَ من حدٍ معين. يثير التسارعُ إفقارًا للخبرة، باعتبار أننا مُعرَضون لكتلةٍ متزايدة من المثيرات لا يمكننا هضمُها في الأنماطِ الكثيفة للمتعة والمعرفة. فمجالات العلائقية والسلوك التي تتطلب فترةَ انتباهٍ ممتدةٍ مثل مجالات الوجدانية، والشبقية، والفهم العميق، يتم تشويشُها، وإخضاعُها للانكماش. في هذه الظروف من التسارع وإجهاد المعلومات، تميل الآلياتُ الذاتية لأن تصبح الشكلَ السائد لردّ الفعل إزاء المثيرات، بمعنى أن ردودَ الفعل الآلية هي تلك التي لا تتطلبُ تأملًا أو رد فعلٍ واعٍ وعاطفي. إنها ردود فعلٍ قياسية، مُتضمَّنةٌ في السلسلة المتشكّلة سلفًا للأفعالِ وردود الأفعال في المجال - المعلوماتي المتجانس.

لا شك أن رقمنة البيئةِ الاتصالية وحتى بيئة الإدراك تؤثر على الحسّ الوجداني للكيانات العضوية البشرية. لكن، كيف نتناول هذه الإشكالية؟ ما هي أدواتُ التحليل، وما معاييرُ التقييم التي تُتيح لنا أن نتحدث عن الحس الوجداني، عن الذوق، عن المتعة والمعاناة، عن الشبقية والحسّية؟ ليس لدينا أداةٌ سوى أنفسنا، هوائياتنا، أجسادنا، ردِ فعلنا النفسي والشبقي. وفضلًا عن ذلك، فإن فلتر المراقبِ يمكن أن يكون له أثرٌ مُشوِّه. إلّا أن الشعورَ بتخلخُلِ التلامس، والبرودة، والانكماش هو لبُّ أمراضنا المعاصرة، الواضحةِ بوجهٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاص في الجيل الشاب. ومجالُ الشبقيةِ مُعرّضٌ لها بوجه خاص.

بعد نهاية حركات الطليعة وتغلغلها في دوائر الاتصال الاجتماعي، فإن الاستثارة الجمالية في شكل الإعلان، والتلفزيون، والتصميم، والتغليف، وتصميم الويب إلخ...، منتشرةٌ بشكلٍ متزايد، شاملةٌ، ومُلحّة، ولا تنفصل عن الاستثارة المعلوماتية التي صارت مُكمّلةً لها. الكيانُ العضوي الواعي - الشعوري ملفوفٌ في تدفقٍ من العلامات ليس حاملةً للمعلومات ببساطة، بل كذلك عواملُ للتحفيز والاستثارة الإدراكيين. في الماضي، كانت الخبرةُ الفنية تقوم على أساس المركزية الحسّية للتطهر catharsis. كان العمل الفني يخلقُ موجّة من الانخراط والإثارة تندفعُ صوبَ ذروةٍ، صوب حالةٍ تطهرية من التهيج تقارنُ بتصريفِ الذروةِ الجنسية. كان الجمالُ، في مفهومه الكلاسيكي، وكذلك الرومانسي والحديث، قابلًا للتماهي مع لحظة الاكتمال، تغلّبًا على التوترِ المتضمنِ في العلاقة بين الكيان العضوي الشعوري وبين العالم: تطهّرٌ، تناغم، انفصالٌ متسامٍ. وبلوغ التناغم هو حدثٌ يمكن مقارنته مع تصريف الذروة الجنسية الذي يعقبُ إثارةَ التلامسِ بين الأجساد. يسترخي التوتر العضلي في اكتمال اللذة. في الإدراكِ السعيد لجسدِ المرء والبيئة المحيطة فإن ما يعمل هو مسألةُ إيقاعٍ جوهرية، زمنٍ وزمنياتٍ مُعاشَةٍ. لكن، إذا أدخَلنا في دائرةِ الإثارة عنصرًا لاعضويًا مثل الإلكترونيات وفرضنا تسارعًا للمثيرات وانكماشًا في أزمنةِ ردِ الفعل النفسي - البدني، ينتهي الأمرُ بأن يتغير شيءٌ في الكيان العضوي وأشكالِ رد فعلهِ الشبقي. تحلُّ محلَ الذروة الجنسية سلسلةٌ من الاستثارات دون تصريفٍ. لا تعود الذروة الجنسيةُ مقدمةً لأي تحقُّق. تأخذ الاستثارةُ غير المكتملة مكانَ تصريف الذروة الجنسية. هذا شيءٌ يشبه الشعورَ الذي ينقلهُ إلينا الفنُ الرقمي، وبرودةُ الفيديو آرت، والطبيعةُ الدورية غير المكتملة لعمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تينجلي(3)Tinguely أو موسيقى فيليب جلاس(4)Philip Glass. ليست الجمالياتُ وحدها بل كذلك الشبقيةُ يبدو أنهما متورّطتان في هذا التسارع اللاعضوي للعلاقة بين الأجساد. وعمل الفيديو المركب، الريح(2002) TheWind، لإيجا ليسا آتيلا Eija Liisa Ahtila، الذي يتكون من ثلاث شاشات تتتابعُ عليها مشاهدُ الدمار، ومحاولاتُ التلامس مع جسد الآخر، والأزماتُ المدمّرة للوحدة، هو أكثرُ تساؤلٍ مُباشرٍ أعرفه عن شكلٍ من المرض النفسي يميلُ، عند بداية الألفية الجديدة، لأن يُصبح وبائيًا.

مُرتحلًا في دوائر الاتصال الاجتماعي، يتضاعف الموضوعُ الشبقي إلى حد أن يصبح كلّيَ الحضور، لكن الاستثارةَ لم تعد مقدّمةً لأي اكتمالٍ وتُضاعفُ الرغبةَ إلى حد تحطيمها. الطبيعة اللامحدودة للفضاء السيبراني تضفي على الخبرة نوعًا من عدم الاكتمال. وتنبع العدوانيةُ والإرهاق من هذا الانفتاحِ اللامحدود لدوائر الإثارة. ألا يمكن أن يكون ذلك تفسيرًا للقلق الشبقي الذي يؤدي إلى نزع - الشبقية وذلك الخليطِ من الجنسانية - المفرطة واللاجنسانية الذي يميز الحياةَ ما بعد - الحضرية؟ كانت المدينةُ هي المكان الذي يُقابلُ فيه الجسدُ البشري جسدًا بشريًا، موضعُ النظرةِ، واللمس، والعاطفة البطيئة، والمتعة. وفي البعد ما بعد - الحضري لتمدُّدِ فضاء السايبر، يبدو أن التلامسَ يصبحُ مستحيلًا، وتحل محله أشكالٌ مُتهوِّرَة من الخبرة تتراكبُ مع الترويج التجاري والعنف. الحركة البطيئةُ نادرةٌ وغير محتملة. ونفسُ بطءِ الحركة يتحولُ شيئًا فشيئًا إلى سلعةٍ، إلى حالةٍ اصطناعية يمكن مُبادلتها بالنقود. الزمن شحيحُ ـ الزمن يمكن مبادلتهُ بالنقود. الزمن، بوصفه بعدًا لا غنى عنه للّذة، يُقطّع إلى شذراتٍ لم يعد يمكنُ التمتُّع بها. تحلُّ الإثارةُ دون تصريفٍ محلَّ اللذة.

في الفينومنولوجيا الثقافية للحداثة المتأخرة، يمكن أن يكون التغيُّر الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نتحدثُ عنه مرتبطًا بفترة الانتقالِ التي جرت من الستينات والسبعينات إلى الثمانينات والتسعينات. كانت سنوات ثقافة الهيـپـي(5) متمحورةً حول مشروع زرعِ الشبقية فيما هو اجتماعي، مشروع التلامُس الكلي بين الأجساد. وفي فترة الانتقال التي تتطابقُ مع إدخال تكنولوجياتِ الاتصال الإلكترونية إلى الدائرة الاجتماعية، انفجرت ظاهرة الـپانك(6) punk. صرخ الـپانك بيأس ضد خلخلةِ التلامس، ضد الصحراء ما بعد - الحضرية، وردّوا بنوعٍ من تدميرِ - الذات الهستيري. أما الانتقال صوب البُعد ما بعد - الحداثي والتكنولوجي - المفرط فسجّلته النيو وويف New Wave في بدايات الثمانينات، والتي عرّفت نفسَها في شكلها الأشد تطرفًا باعتبارها النو وويف No Wave. لا تعني النو وويف السكونَ أو التدفقَ المتصل دون تموُّج؛ بل على العكس، تعني التشظي اللانهائي للموجة، تعني النانو - وويف، الاهتياجَ المتناهي الصغر للمجموع العضلي، الاستثارةَ المتناهيةَ الصغر، الواقعة تحت مستوى الوعي، غير القابلة للتحكم: الانهيارَ العصبي. وفيما بين السبعينات والثمانينات، كان انفجارُ الهيروين في الخبرة الوجودية للانتقال ما بعد - الحضري جزءًا من هذه السيرورة للتكيُّف مع وضع الاستثارةِ دون تصريف. يتيح الهيروين توقيفًا، انفصالًا عن دائرة الاستثارة - المفرطة غير - المنقطعة، نوعًا من تخفيف التوتُّر. في الاستهلاك الواسع النطاق للهيروين، بحث الكيانُ العضوي الجماعي للمجتمع الغربي عن إبطاءٍ أو، بصورةٍ مكمِّلة، نظر إلى الكوكايين كطريقةٍ لملاحقة الإيقاع. ما كان يجري هنا كان التحولُ في سرعة المجال - المعلوماتي الذي جعل من الممكن إخضاعُ الزمنِ البشري لنظام الاستغلالِ المطلق والمتَّصلِ للشبكة العصبية - الاتصالية عن بعد - فرضُ مرونة العمل.

الهوس بالهوية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تُحدّد أزمةُ المنظور الأممي بعد عام 1989 نشوبَ حربٍ أهلية حول مسألة الهوية على نطاقٍ كوكبي. هذا هو المشهدُ الذي تفتح عبر مسار التسعينات. تظل النزعةُ الكوزموبوليتانية الحضرية قاصرةً على الطبقة الافتراضية، على الشريحة المُعولمَة من الشبكة الكوكبية، أما الغالبيةُ العظمى من البشرية فتظل مُستبعَدَةً عن الدائرةِ المترابطة للكوزموبوليتانية الحداثية - المفرطة، وواقعةً في قبضة هوسها بالهوية. تتطلب النزعاتُ المحلية المترسّبة طاقةً يائسةً لكن ذلك يُشيرُ إلى بداية أزمة النزعة الكونية الحديثة.

ماذا تعني النزعةُ الكونية؟ يمكننا الحديثُ عن نزعةٍ كونية حين نكون في مواجهة منظورٍ ذي قيمةٍ أخلاقيةٍ، وسياسية، ووجودية يمتلك قوةً معيارية كونية تتجاوزُ الاختلافات الثقافية. عارض الجدلُ المادي النزعةَ الكونية البورجوازية بالخصوصية البروليتارية، القوةِ السلبية لمصلحةِ مُشايعين تحتوي في داخلها على نواة شكلٍ أرقى، وأكمل إنسانيةً للعلاقة الاجتماعية. لكن هذه النزعة الخصوصية ما زالت تملك (جدليًا) أفقًا كونيًا. فتوكيد خصوصيةِ طبقةٍ عاملةٍ فصائلية كان يعني، في الرؤية الجدلية، طرح شروط كونيةٍ أرقى. هذا المخططُ الإيديولوجي واضحٌ أنه اشتقاقٌ هيجلي، تاريخاني، لكنه لا يُلغي حقيقة أن النزعة الأممية كانت أكثر تعيُنًا من مجرد اقتراحٍ أخلاقي.

لم تكن الأمميةُ قيمةً مجرّدة يجب اتباعُها، بل حقيقةَ خبرةٍ جماعية عاشت في صراعِ العمال ضد الرأسمالية، وفي وحدةِ المصالح البروليتارية التي لا تعرف حدودًا. للعمال نفسُ المصالح في كل مكان عبر الكوكب: أن يتملكوا حصّةً متزايدة من الثروة التي أنتجوها هم أنفسُهم، وأن يخفضوا زمنَ اعتمادهم على العمل المأجور. وكلما كان العمالُ أقوى في نقطةٍ واحدةٍ من الدورة، كلما كان العمالُ أقوى في كل النقاط الأخرى من الدورة. هذا الصدقُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأوّلي لم يُتح لنا أن نستشرف التحوّلَ الثقافي العميق الذي تلا الهجمة الرأسمالية لأعوام الثمانينات.

إن عودة ظهور الشعوبِ على المشهد العالمي لهو علامةٌ على هزيمة الطبقة العاملة: فالشعوب هي الخصوصيةُ التي لا يمكن جعلُها جدليةً، الخصوصيةُ دونَ مشروعٍ كوني، الخصوصية الحمقاء.

في الأعوام التي كانت فيها الحركاتُ في أوجها، بدت لنا الفاشية، بكل أشكالها، بمثابة حقبةٍ ماتت وانقضت إلى الأبد؛ أو بدت، على أقصي تقدير، أداةً وحشيةً للقمع. اعتقدنا أن طرازًا جديدًا من الشمولية كان ممكنًا، لكن تحت رايات الديموقراطية الاجتماعية، راياتِ تطورٍ - فائق مُركّز وتكنولوجي. الديموقراطية الاجتماعية وحدها، كما بدا لنا، كانت قادرةً على تقسيم حركةِ العمال وإخضاعها للإصلاحية والدولتية. لكن السيناريو منذ التسعينات كان مختلفًا تمامًا. لم يعد صحيحًا أن القوتين الحاسمتين هما رأسُ المال والطبقة العاملة. مثلما في لعبةِ مرايا، تشظّى السياقُ، وتعدّد، وانقلب. فرأس المال والطبقة العاملة يواصلان مواجهة بعضهما، لكن بطريقةٍ تقلب العلاقةَ التي كانت بينهما خلال الستينات: فالمبادرة (التي انتمت للعمال) قد انتقلت اليوم بشكلٍ حاسم إلى رأسِ المال المالي الدولي. وفي نفس الوقت، ظهر شخصان آخران: الطبقةُ الافتراضية، التي هي دورةُ العمل الذهني المُعولَم؛ والطبقة المترسّبة، الكتلة التي لا شكلَ لها للسكانِ المُستبعَدين من (أو الذين لم يكونوا أبدًا جزءًا من) دورةِ الإنتاج، الذين يضغطون بعدوانيةٍ ليكسبوا فضاءً للبقاء واعترافًا في الاستعراض الكوكبي.

لم تعد كلمةُ الثورة تعني أي شيءٍ داخل هذا التشكُّل الجديد لكن لا تعني شيئًا بدورها عبارةُ الديموقراطية السياسية. لم يعد يوجد مستوى سياسيّ مشترك بين شخوص العمل المتشظي المعولم، لأنهم يفتقرون إلى أساسٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اجتماعي مشترك. بينما يجتاز رأس المال خلالهم جميعًا (لأنه مازال فاعلَ التشفير المعمم)، فإن شخوص العمل الذهني هم في آن واحدٍ متشظُّون في تأسيسهم الداخلي، وعولميين في علاقتهم الخارجية، التي تتوسط فيها التكنولوجيا.

الفاشية والتماهي

الفاشية كلمةٌ بلا شكل. وقد جاهدتُ لزمنٍ طويل لأجد مفهومًا قادرًا على تعريفِ الأشكال المختلفة (والمتناقضة) للنزعة السلطوية، وللعدوان القومي النزعة أو الإثني وما شابه، لكن دون نجاح. في مقال «Il fascismo eterno»، يعترف أومبرتو إكو Umberto Eco بأن «الخصائص المُميّزة لا يمكن ترتيبُها في نسقٍ، فالكثير منها متناقضةٌ فيما بينها ونمطيةٌ بالنسبة لأشكالٍ أخرى من الاستبداد والتعصب. لكن يكفي أن يكون المرءُ حاضرًا حتى تتخثّر غمامةٌ فاشية».

فيما يلي قائمةٌ بخصائص الفاشية - الأصلية: عبادةُ التقاليد، رفض الحداثة، الفعلُ من أجل الفعل، الخوف من الاختلاف، إلى آخره. لكن، بقدر ما أن هذه الخصائص وثيقةُ الصِّلة بالموضوع ومثيرةٌ للاهتمام، يعترف إكو ذاته بأن جهد التعريف يبدو أنه ينتهي أخيرًا بالإحباط لأن موضوعه يواصلُ الهرب. فمثلًا، بعد أن قلنا إن الفاشية مضادةٌ للحداثة، يجب الاعترافُ بأن الفاشية التاريخية لعبت دورًا في تحديث المجتمع في كلٍ من إيطاليا وألمانيا. إذن، ففي غياب تعريفٍ مُرضٍ وشامل، نخاطرُ بأن نُعرّف الفاشية بأنها كل شيءٍ يثير نفورنا، وبأن نُعرّف الفاشية، ببساطةٍ: بأنها فريقُ الحماقة والعنف، فريق الشر. وهذا، بالطبع، لا يفيد، لا يُعرّف أيَّ شيء. المشكلة التي نشيرُ إليها باستخدام كلمة الفاشية هذه غير الدقيقة والعتيقة جدًا تاريخيًا، هي مجالٌ بالغ الاتساع من أشكال الحياة، والسلوكات، والإيديولوجيات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتعصّبات التي تشترك، في التحليل الأخير، في عنصرٍ واحدٍ مشترك: الهوس بالتعريف. والهوس بالتعريف هو، في التحليل الأخير، الخاصيةُ المشتركة لمجال الظواهر التي نُعرّفها بأنها الفاشية. وهذا هو السبب في أن هذا الموضوع يصعبُ تعريفه.

الفاشية، في أقصى اتساعها المفهومي: تشمل القوميةَ والأصولية الدينية، والسلطوية السياسية، والعدوان الجنسي وما إلى ذلك، ويمكن إرجاعُها إلى هوس جوهري: الهوس بالهوية، الهوس بالانتماء، بالأصل، بقابلية الاعتراف. وقد نما هذا الهوس، ووسّع نفسه، وانفجر عبر مسار قرننا، بالضبط لأن قرننا هو قرنُ نزع التوطين، قرن التلوث الثقافي ونزع التماهي. والضغط الذي يبدو أنه يوجّه جوهريًا تلك السلوكات التي تقع ضمن نطاق الفاشية هو ضغطُ الاعتراف بأنفسنا على أننا متماثلون، قابلون للتماثل، ومن ثم ننتمي إلى مجتمعٍ نوعي (للغة، أو المعتقد، أو الجنس) يقوم على الأصل. الأصل وحده يشهدُ على الانتماء، وكما نعرف، فإن الأصل وهمٌ، أسطورةٌ، نعتٌ مُقتَسَمٌ بدرجةٍ أو بأخرى، لكن لا أساسَ له. الهويةُ الإثنية لا توجد بقدر ما لا توجد الهويةُ اللغوية. فبينما يأتي كلٌّ منا من تاريخٍ من التهجين والتلوثات التي لا يمكن لا البرهنةُ عليها ولا تأصيلها، توجد أوهامٌ عن الانتماء العرقي؛ بينما يتكلم كلٌّ منا لهجتَنا التي لا يمكن أبدًا ترجمتُها جوهريًا بواسطة متحدثٍ آخر، توجد أوهامٌ عن الفهم اللغوي. والعيش معا مُتوقّفٌ على هذه الأشياء. وكلما اضطرب مجالُ قابلية التماهي العرقي، مجال قابلية الفهم، مجال الأصل، كلما زادت حدّةُ الحاجةِ إلى التماهي، إلى حد الهوس.

الشفرة الشمولية

في النهاية، يبدو اللا - إنسانيُ على أنه الشكلُ السائدُ للعلاقات الإنسانية: ردُّ فعلٍ تحولَ إلى تطورٍ لرأس المال يستبعدُ ويُبلور، حتى وهو يتقدّم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منتصرًا، أقسامًا متزايدةً من الجهاز العصبي الكوكبي، ويُفرزُ اللا - إنسانية. فبعد أن أخضع مُتغيِّرَ الطبقة العاملة، يُعِدُّ رأسُ المال نفسَه لمشروعه الجديد العملاق: إخضاع مجملِ دورة النشاط الإدراكي البشري لنسقٍ آلي موصولٍ بالكابل cabled على عددٍ من المستويات: الاقتصادي، والتكنولوجي، والكيميائي - النفسي - وربما البيو - جيني في المستقبل، لكن الرواسب التي يُخلِّفها ذلك المشروع عبر مسارهِ هائلةٌ، وتناظر غالبيةَ البشر.

بعد أن أدمج الاستقلالَ الذاتي للطبقة العاملة في التقنية، وبعد أن ألغى كلَّ منظورٍ بديل، يفرض رأسُ المال نفسه كتراكمٍ لسيرورات آلية لم تعد قابلةً للسيطرة أو المعارضة. ترتبط الواجهاتُ المشتركة التقنية - الاجتماعية بشكلٍ متزايد باتجاه تحويل الاقتصاد الكوكبي إلى عقلٍ كخلية النحل يعمل طبقًا لأهدافٍ محدّدة سلفًا و موصولةٍ بالكابل في الرداء التقني - اللغوي لنهاياتها الطرَفية البشرية. عند هذه النقطة، يقرأ الكيانُ العضوي الفائق للبيو - كمبيوتر ما هو إنسانيٌ وينبذُه باعتباره ضجيجًا. هذه السيرورة تؤدي إلى خلق هويةٍ - فائقة غير مباليةٍ على الإطلاق بهويات الأصل (بالجنس، والعرق، والعقيدة، والقومية). لكن خلال سيرورة تشكّل هذه الهوية الفائقة، يجري نبذُ كميةٍ هائلة من المادة البشرية: أغلبيةِ البشرية، التي تبقى خارج الدائرة المربوطة بالكابل للاقتصاد - التقني المعولم. يحدّدُ هذا الراسبُ المادي هويتَه من خلال عقائد عدوانيةٍ، تقوم على وهم أصالةٍ أصلية بحاجةٍ إلى الاستعادة. وحدهُ تأكيدُ الهوية يجعل البقاءَ ممكنًا في عالمِ متزايدِ الكثافة بمشاريع موطنيةٍ متنازعة، في عالمٍ محكومٍ بمفارقة ثروةٍ متنامية تنتجُ بؤسًا آخذًا في الاتساع.

وفي أفق التطور، يتم طرحُ مشكلة السعادةِ والتحرر الجمعيين على أسسٍ لا تتناظرُ مطلقًا مع تلك التي عرفناها في الماضي. كيف سيُعيدُ التفرُّد البشريُ

Telegram:@mbooks90
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنتاج نفسِه في مجال ما بعد - الإنساني؟ التناغم، السعادة، الوعي: كيف تمكن فَرْدَنتها في مجال العقل العالمي المربوط بالكابل؟ الكلّيةُ التي كان يطمحُ إليها الفكرُ الجدلي كانت نتيجةَ نفس سيرورةِ قدرةِ الخصوصيات على تأسيس نفسها كذاتٍ واعية، ومن ثم تتجاوزُ ما هو خاصّ. وبدلًا من ذلك نتعاملُ الآن مع فكرةٍ مختلفة عن الكلّية: الكلّية المجرّدةِ للشفرة التي تُحوِّلُ إلى علاماتٍ كل شذرةٍ من الموجود دون احترامِ أي نبضٍ للخصوصية البشرية الحيّة.

ينتهي القرنُ تحت علامة كليةٍ لا إنسانية، كليةِ الشفرة، كلية التجريدِ الذي يتبدّى في النقود، في دورة المعلومات والتمويلات. ومن هنا تأخذ شموليةٌ مجرّدةٌ وغيرُ مُتجسّدةٍ مكانَ آلةِ التحويلِ الكلي إلى علامات. وفي مواجهتها العودةُ الضخمة للبشري المترسّب، للجسد، للدم والتربة، للتقاليد والهوية: إعادةُ التوكيدِ الحانِقة والعدوانية للخصوصيةِ ضد كل خصوصيةٍ أخرى، ليس باسم أيةِ كلّيةٍ.

الأخلاق، الحساسية، الحس الوجداني

قصّ ضابطٌ أمريكي قديم، يتولى تدريب جنود المارينز على شن حربٍ في مكانٍ ما، لمجلة **نيوزويك Newsweek** شيئًا مثيرًا للاهتمام بشأن خبرته: «اعتدتُ أن أقوم بهذا العمل في السبعينات، خلال الحرب في فيتنام. في تلك الأعوام كان تدريب شابٍ على أن يكون مستعدًا لقتل كائنٍ بشري يستغرق ستة أشهر. والآن أقوم بنفس العمل في العراق، لكن الأمور تغيّرت. فالشباب يأتون إلى هنا مُدرّبين بالفعل. يأتون إلى هنا جاهزين للقتل».

ماذا طرأ على جيل ما بعد - الأبجدية الأول، أولئك الذين تعلّموا من آلةِ كلماتٍ أكثر مما تعلموا من أمهاتهم (أولئك الذين يسميهم البعض الجيل ما بعد -الإنساني)؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل يجب معالجة الأمر كمسألةٍ أخلاقية؟ في رأيي، تأتي الأخلاقُ من الحس الوجداني. لا أرى أي خطابٍ أخلاقي بديلٍ فعّال لا يؤسّس نفسَه على حب - الذات. وحب - الذات لا يمكن إلّا أن يكون حبَ الآخر. احتقار - الذات والكلبية يتماشيان معًا. وفي قلب السؤال الأخلاقي تكمن مشكلة الحس الوجداني (أو ربما الحساسية؟).

في الإيطالية يكون لكل من 'sensibilità' و'sensitività' معنى مختلف عن معنى 'sensibility' و'sensitivity' في الإنجليزية. Sensibility (الحس الوجداني) هي القدرةُ على التقاطِ معنى ما لا يمكن التعبيرُ عنه في كلمات. وSensitivity (الحساسية) هي القدرةُ على الشعور بجلد الآخر كمتعة. لكن، بين هاتين الملكتين، حين يحدّد المرءُ حيودًا، فإن تشوُّش الإدراكِ الحسي بجلد الآخر يصبح عدمَ القدرة على فهم معنى العلامات التي تنبعث من الآخر.

السقوط المتحيِّزُ لمعرفة المتعة

في يوم 19 يونيو 2007 نشرت صحيفة لوموند Le Monde أن شركة دوركس Durex، عملاق الواقِيات، كبرى الشركات الضخمة لمنتجي الواقيات الذكرية، قد كلّفت معهد هاريس التفاعلي Harris Interactive Institute بإجراء تحقيق. تم اختيارُ عشرين بلدًا من ثقافات مختلفة. وفي كل بلد سُئل 1000 شخص سؤالًا بسيطًا: كيف كانوا راضين عن الجنس. فأجاب 44% فقط من المستجوَبين بأنهم سعداء بحياتهم الجنسية.

ربما أمكن القول بأن ذوي القدمين ما بعد - الحداثيين يخبَرون متعًا معقّدة في العمل والحرب؛ من يدري؟ لكن المؤكدَ أن الحب لا يتمتع بنجاحٍ كبير مع الجمهور، إلى حدّ أن من الصعب تصديق أن 44% ذكروا حقيقتَهم الحميمة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك التي تعكس أعمقَ مشاعرهم، بينما يمكننا أن نكون متأكدين أن البقية تُعساءُ حقًا.

التفسيرات التي يقدّمها علماءُ الجنس، وعلم النفس، وعلم الاجتماع في هذه الأمور قليلةُ الأهميةِ بوجهٍ عام: تحريرُ العادات الجنسية، أزمةُ الرغبة، تسليعُ الجسد الإنساني، ابتذالُ الجنس من خلال الميديا. هذه تفسيراتٌ لا تقدّمُ الكثير. لكن لوسي فنسان Lucy Vincent، عالمةُ البيولوجيا العصبية التي تم الحوار معها في يونيو 2007 في مجلة **لو باريزيان** Le Parisien، قدمت تفسيرًا ذكيًا، وإن كان مُتكلَّفًا بعض الشيء: «الأمرُ لا يُولَى الكثير من الانتباه». لم نعد قادرين على إيلاء انتباهٍ لأنفسنا ولأولئك الذين يعيشون حولنا. بكوننا مشدودين إلى دوّامة المنافسة فإننا لم نعد قادرين على فهم أيّ شيءٍ عن الآخر.

الانتباه، المَلكةُ الإدراكية التي تُتيح الإدراكَ الحسّيَ الكامل للموضوع العقلي (جسدنا، مثلًا، أو جسد الشخص الذي نلاطفه) متاحٌ بكمياتٍ محدودة، إلى درجة أن بعض الاقتصاديين (حفّاري القبورِ الحقيقيين للروح الإنسانية) بدأوا في السنوات الأخيرة يتحدثون عن اقتصادِ الانتباه، وحين يصبح أي مَورِدٍ موضوعا لعلمٍ مُحبٍ للموت، فهذا يعني أنه أصبح مَورِدًا نادرًا.

الانتباه ,موردٌ نادر، لذا فإن من المفهوم أن توجدَ تقنياتٌ لاستغلاله الاستغلالَ الأمثل.

الهوس بالجسد (المتلاشي)

كبُر الجيلُ المُقلقَلُ حين أخذ الإنترنت يُصبح عضوًا اصطناعيًا مُضافًا إلى اللغة الاجتماعية. وقد تعرّضوا لتدفقٍ مُتّصلٍ من المثيرات الإلكترونية، مما غيّر أنماطَ التعلُّم اللغوي، وإيقاعات الانتباه، والذاكرة، والمخيّلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كتب ماكلوهان McLuhan أنه خلال العبور من الدائرة الأبجدية إلى الدائرة الإلكترونية، يميل الفكرُ الأسطوري إلى الحلولِ محل الفكرِ المنطقي - النقدي. لكن ماذا عن الدائرة الوجدانية والنفسية للجيل الفيديو - إلكتروني؟

نعرفُ أن ملايين الأطفال في العالم الغربي يأخذون الريتالين لمعالجة أعراض ما يُطلق عليه اضطراباتُ نقصِ الانتباه. أخذ التركيزُ على موضوعٍ لبرهةٍ معينة من الزمن يُصبح مهمةً مستحيلة لعددٍ كبير من الصبية؛ إذ يميلُ الانتباهُ إلى تغيير بؤرته على الفور، باحثًا عن موضوعٍ جديد. ثمة علاقةٌ مباشرةٌ بين زمن تعرّضِ العقل للمثير الفيديو - إلكتروني وبين التطايرِ المتزايد للانتباه. فلم يحدث أبدًا في تاريخ البشرية أن تعرّضَ عقلُ طفلٍ إلى مثل ذلك القصفِ السريع والغازي للنبضات المعلوماتية. وبديهيٌ أن هذا التسارع يُنتج تأثيراتٍ لا يمكن التنبؤُ بها على المجال الإدراكي.

تعلّمُ اللغة يرتبط بدرجةٍ كبيرة بالعلاقةِ الجسمانية. اللغة والتطبيعُ الاجتماعي كانت تتوسّط فيهما على الدوام الوجدانيةُ، التلامسُ المُطفِئ والبهيج مع جسد الأم. وخلال العقود الأخيرة تم فصلُ جسدِ الأم عن جسدِ الطفل. ففي المجتمع النيوليبرالي تكون النساء مُجبراتٌ على العمل بعيدًا عن المنزل، وهكذا يُبعَدنَ عن أطفالهن، في ظروف توترٍ نفسي - جسدي، وقلق، وإفقارٍ وجداني.

أخذت الآلاتُ - المعلوماتية مكانَ الأم، فغيّرت سيرورةَ تعلُّم اللغة. بالتأكيد فإن الجيل الفيديو - إلكتروني الأول تمتع بحضور الأم الجسدي أقلَّ بكثيرٍ مما في الأزمنة الماضية. كان التلامسُ الجسدي والوجداني عاملًا لفَردَنة اللغة، وقد فُقِد. تميل العاطفةُ والكلمة إلى التباعدِ في هذه الظروف. تصبحُ الرغبةُ بعدًا منفصلًا أكثر فأكثر عن الصياغةِ اللفظية، عن المعالجةِ الواعية للمعلومات. وتميل العواطفُ دون كلماتٍ إلى تغذية المرضِ النفسي والعنف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفعلُ دون اتصالٍ لفظي مُنغلقٌ على العنف. والكلماتُ دون عاطفةٍ تغذي حِسًّا اجتماعيًا أفقر وأفقر، مُختَزَلةً إلى منطقِ خُذْ وهَات. يجري ضغط المعالجة اللفظية للمعلومات والعاطفة المرتبطة بالمعلومات في أزمنة متسارعة باستمرار، مما يفتح الطريق لاضطرابٍ في العاطفية والصياغة اللفظية.

ويمكن تفسير الحُبسَةِ aphasia [احتباس الكلام] كنتيجةٍ للمسافة المتزايدة بين الاستثارة - المعلوماتية وبين الزمن الضروري لمعالجة المثيرات - المعلوماتية. فهل يمكننا أن نرى تأثيرًا لهذا التسارع في ظاهرة عُسر القراءة dyslexia التي تؤثر بوجهٍ خاص على العمال الإدراكيين، المُعرّضين لإيقاع الاتصال الإلكتروني؟ يبدو أن قراءة نصٍ من البداية إلى النهاية يعتبر مهمةً مستحيلة بالنسبة للمديرين.

الرغبة تكمن في الاقتران conjunction، ويقتلها الارتباط connection. فالارتباط يعني علاقةً بين شرائح مُتشكّلة formatted؛ تجعل الأجساد المنزوعة التفرُّد متساوقة. أما الاقتران فيعني الاتصالَ الفريد، غير القابلِ للتكرار بين أجسامٍ مستديرة. الارتباط يعني تكاملَ أجسامٍ ناعمة في فضاءٍ ليس فضاءً وزمنٍ ليس زمنًا.

سيرورة التغيُّر الجارية في زمننا تتمحورُ حول الانتقال من الاقتران إلى الارتباط كنموذجٍ معياري للتبادل بين كياناتٍ عضويةٍ واعية. والعنصر الرئيسي في هذا التغير هو إدخالُ ما هو إلكتروني فيما هو عضوي، انتشارُ الأدوات الاصطناعية في العالم العضوي، في الجسد، والاتصال، والمجتمع. لكن تأثير هذا التغير هو تحوّلٌ في العلاقة بين الوعي وبين الحس الوجداني، ونزعُ الحساسية المتزايد في تبادل العلامات.

الاقتران هو التقاءُ واندماجُ أشكالٍ مستديرة وغير منتظمة تُراوغ باستمرار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتشقّ طريقها دون دقةٍ، ولا تكرارٍ، ولا كمال. والارتباط هو التفاعلُ الدقيق والقابلُ للتكرار بين وظائف خوارزمية، خطوطٍ مستقيمة ونقاطٍ تتراكب بشكلٍ كامل، وتتَّصل أو تنفَصل طبقًا لأنماطٍ ضمنية للتفاعل تجعل الأجزاءَ المختلفة متساوقة مع معيارٍ مُقام - سلفًا. والانتقال من الاقتران إلى الارتباط كنمطٍ سائدٍ لتفاعلِ الكيانات العضوية الواعية هو نتيجةٌ للرقمنة التدريجية للعلامات وإدخال التوسُّط المتزايد في العلاقات.

رقمنة السيرورات الاتصالية يبعثُ نوعًا من نزعِ الحساسية للمنحنى، للسيرورةِ المتصلة من الصيرورة البطيئة؛ ونوعًا من زرعِ الحساسية للشفرةِ، للتغيراتِ المفاجئة للحالة وسلاسلِ العلامات المُضمَرة.

يستلزم الاقترانُ معيارًا سيمانطيقيًا [يتعلّق بالمعاني] للتفسير. حين يدخل الآخرُ في اقترانٍ معك، فإنه يُرسل علاماتٍ لا بد لك أن تفسّر معناها، بأن تتتبّع إذا لزم الأمر القصدَ، والسياق، والظلال، والمسكوتِ عنه. وعلى النقيض، يستلزم الارتباطُ معيارَ تفسيرٍ صرفي syntactic خالص. يجب أن يتعرّف المفسّر على تتابعٍ ويكون قادرًا على القيام بالعملية المقررةِ سلفًا بواسطة الصرف العام (أو النسقِ التشغيلي)؛ ولا يمكن أن توجد هوامشُ للالتباسِ في تبادل الرسائل، ولا يمكن أن يتَّضح القصدُ من خلال الظلال. الترجمة التدريجية للاختلافات السيمانطيقية إلى اختلافاتٍ صرفية هي السيرورة التي أدت من العقلانية العلمية الحديثة إلى السيبرنطيقا وبالتالي أتاحت خلقَ شبكةٍ رقميةٍ.

الاقتران هو سيرورةُ «الصيرورةِ آخرَ». وعلى النقيض، في الارتباط، يظل كلُّ عنصرٍ متميزًا ويتفاعلُ فقط بطريقةٍ وظيفية. التفرُّدات تتغير حين تقترن - تصبح شيئًا آخر عما كانته قبل اقترانها. وتوليفةُ العلاماتِ غير - الدالةِ تُتيح انبثاقَ المعنى الذي لم يكن موجودًا من قبل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبدلًا من اندماج الشرائح، يتطلّب الارتباط تأثيرًا بسيطًا لوظيفيةِ الآلة. ووظيفيةُ مواد الربط مُتضمّنةٌ في الارتباط بوصفه نموذجًا وظيفيًا يُعِدّها للواجهات المشتركة والوظيفية - المتبادلة. وكي يكون الارتباط ممكنًا، يجب أن تكون الشرائحُ متساوقةً لغويًا. الارتباط يتطلّبُ سيرورةً أسبق يتم فيها جعلُ العناصر التي تحتاج إلى الارتباط متساوقةً. وفي الحقيقة تمتدّ الشبكةُ الرقمية من خلال الاختزالِ التدريجي لعددٍ متزايدٍ من العناصر إلى تشكيلِ format، إلى توحيدٍ قياسي وشفرةٍ تجعل مختلفَ العناصرِ مُتساوقةً.

الأجساد المرتبطة خاضعةٌ لنوعٍ من العجزِ المتزايد عن الشعور بالمتعة، ومُجبرةٌ على اختيار طريقٍ مُشابَهة simulating المتعة؛ الانتقال من اللمس إلى الرؤية، من الأجساد المُشعِرة إلى الأجسادِ الناعمة القابلة للاتصال. التحكّم في الجسد لا يأتي من الخارج. التحكم مبنيٌ داخله، في ذات العلاقة بين الإدراك الحسي- الذاتي وبين الهوية.

حين تُصبح الدائرةُ - المعلوماتية مُفرطةَ - السرعة، مفرطة - الكثافة، وتتوالد النبضات أبعدَ من أي حدٍ، نصبحُ أقلَ قدرةً باستمرار على أن نعالج بصورةٍ واعية النبضاتِ الشعورية التي تصلُ إلى جِلدنا، وحساسيتنا، وعقلنا. الوعي ينفصلُ عن الحساسية، ويتم إخضاعُه بواسطة آلةِ الارتباط.

يمكن وصفُ السلوكِ المتوحّد autistic بأنه تأثيرُ العجزِ عن الإحساس بعاطفية الآخر، وعن إسقاطِ المتعة والألم اللذين نحسّهما في جسدنا على جسد الآخر. يبدو أن الافتقادَ إلى التقمص الوجداني هو تأثيرٌ وبائي للزمن المتزايد لتعرّضِ العقلِ للدائرة - المعلوماتية الافتراضية المتسارعة. يبدو أن تسارعَ وتكثُّفَ المثيرات العصبية على الكيان العضوي الواعي قد أوهنَت الغِلالة الإدراكية التي يمكن أن نسمّيها الحسّ الوجداني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الـپورنوجرافيا تجذبُ الانتباه بسرعة، فأنت لا تحتاج للعمل عليها، لا تحتاج إلى الشعور بالتقمُّص الوجداني، أنت تشاهدُ فحسب. تمامًا مثل حالة توحّدٍ عقلية. ليس ضروريًا أن تحاول تفهُّم مشاعرِ الشخص الآخر، فلا يتعلق الأمر بالآخرين، إذ أنهم موضوعاتٌ أو أدواتٌ للحاجةِ إلى الإشباع. الأجساد محرومةٌ من كلِّ شيءٍ يجعلها آدميةً بواسطة ما يكمنُ فيها.

في هذه الحالة من الاستثارة التوحُّدية دون تحققٍ يميل السلوكُ الاجتماعي لأن يصبح شيئًا مماثلًا لطقوسٍ حُواذية. في عام 1907، كتب فرويد مقالًا عن علم أعراضِ الحُواذ والطقوس الدينية. يقول إن الطقسَ له علاقةٌ بالحواذ، لأن له نفسُ خاصية عدم التحقُّقِ والتكرار القهري. وعدم التحقق والتكرار القهري مُميّزان للسلوك الديني مثلما للجنس الـپورنوجرافي، فالسلوك الديني، مثل الجنسانية الـپورنوجرافية، يمارس طقسًا له، في طبيعته، وصمةُ العُصاب الحواذي: تكرارُ أفعالٍ مُفرَغةٍ من المعنى السيمانطيقي ومُفرَغةٍ من الفعالية الخاصة. **الحواذ**: هو التكرارُ القهري لطقسٍ لا يحقّقُ هدفه. والمجال الواقعي للطقس هو المناشدةُ التي تُبقي عالم (مُمارس الطقس) متماسكًا. والـپورنوجرافيا بوجهٍ عام لها علاقةٌ بالطقس. يبدو أنه، في خبرة الجيل الاتصالي الأول، تصبح العلاقةُ الجسمانية صعبةً بشكلٍ متزايد، وتبعثُ على الحرج. الطقس إذن يأخذُ مكانَ المتعة، وتصبح الـپورنوجرافيا تكرارًا لفعل رؤيةٍ لا يبلغُ نهايتَه العاطفية.

أنا لا أزعم أيةَ أصالةٍ للذاتِ الشبقية؛ ولا أقوم بالاستيهام بصدد العصر الذهبي للسعادة الجنسية. أنا مهتمٌ فقط بالعثور على علامات مرضٍ في الانتشار الراهن للـپورنوجرافيا: هو بالتحديد مرضٌ للعاطفية. هذا المرض، الكامنُ في كل أنواع المنتجات الـپورنوجرافية، يتم التشديد عليه بواسطة تدخُّل الوسائط، وخصوصا انتشار الـپورنوجرافيا في شبكة النت. حيث أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصورةَ والعاطفة منفصلان، فإن الفعل الـپورنوجرافي (فعل الرؤية) لا يُنتج التأثير العاطفي الذي نتوقعه. ومن ثم، نكرّر الفعل (فعل الرؤية).

النت هي مكانُ الاستنساخِ اللانهائي، ومن ثم فهي المكان المثالي لطقس الـپورنوجرافيا. والتضخُّم - المفرط للمُثير هو الإطار العام الذي يُولِّد الحوادثَ الحالي في الدائرة - المعلوماتية المتشبّعة.

خلال تطوّرها الطويل، تعلمت الكائناتُ البشرية ببطءٍ أن تُعالج مُثير الاستثارة الجنسية: إذ يمكن النظرُ إلى مجمل تاريخ الثقافة باعتباره طريقةً لمعالجة الرغبة الجنسية. من خلال المخيّلة واللغة تستطيع الكائناتُ البشرية الموازنة بين المثير القادمِ من البيئة، وبين الاستجابة النفسية والجنسية له.

والآن نحيا في عصر انتشار المعلومات. يثير تشبّعُ الدائرة - المعلوماتية تحميلًا - زائدًا من المثيرات، ولهذا تأثيرٌ إدراكي بديهي: فزمن الانتباه يتناقص. لكن الانتباه الوجداني يستغرق وقتًا، ولا يمكن تقصيرهُ أو تسريعُه. ويؤدي هذا إلى اضطرابٍ في المعالجةِ العاطفية للمعنى. يعاني الانتباهُ الوجداني نوعًا من الانكماش، ويُجبَرُ على ايجاد طرقِ التوافق: يتبنّى الكيانُ العضوي أدواتٍ للتبسيط، ويميل إلى تلطيفِ الاستجابةِ النفسية المُعاشَة، إلى إعادةِ تغليفِ السلوك الوجداني في إطارٍ ثلجيٍ ومُقيَّد.

نقطة البُؤرة هي تقصيرُ زمن المعالجة العاطفية: والـپورنوجرافيا بدورها أحدُ أسبابِ هذا التشبّع، وأحدُ تأثيراته، أو بالأحرى، أحدُ أعراضه. تُسهم الـپورنوجرافيا في تشبّع الدائرة - المعلوماتية، وهي في نفس الآن مهربٌ من الدائرة - النفسية المضطربة.

ما معنى كلمة عاطفة؟ العاطفةُ هي نقطةُ التقاءِ الجسد والإدراك: هي معالجةٌ جسمانية للمعلومات التي تصلُ إلى عقلنا. يمكن لزمنِ العاطفية أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكون سريعًا (سريعًا جدًا) وأن يكون بطيئًا. لكن العاطفةَ الجنسية بحاجةٍ إلى زمنٍ بطيءٍ للمعالجة. زمن الملاطفة لا يمكن تقصيرهُ بآلاتِ آليةِ التسيير، رغم أن الصيدلة يمكنها تسريعُ ردودِ الفعل الجنسية، وتعجيلُ الانتصاب. واستخدام المنشِّطات الجنسية مثل الفياجرا لا يرتبط كثيرًا بالعجز، بل بالتعجُّل، والاضطرابات العاطفية.

الاستثارة الإلكترونية المنقولةُ من خلال مجمل مجالِ الميديا تضعُ الكيانَ العضويَ الحساس في حالة صعقٍ كهربي دائم. يتم اختزالُ زمنِ المعالجة اللغوية لمُدخَلٍ منفرد فيما يزداد عدد المُدخَلات، وتزداد سرعة المُدخَل. لم يعد الجنسُ يعني التحدّث. إنه بالأحرى ثرثرةٌ، وتلعثمٌ، وكذلك معاناةٌ منه. كلماتٌ قليلةٌ جدًا، ووقتٌ قليل جدًا للكلام. زمنٌ قليل جدًا للشعور. والپورنوجرافيا هي تطبيقٌ للأتمتة العاطفية وتجانسِ زمنِ الاستجابة العاطفي. لا تخلِط بين تضمينِ الصعق الكهربي الدائم، تقصيرِ المعالجة اللغوية الانتباهية وبين ضمورِ الاستجابة العاطفية. الپورنوجرافيا هي بالضبط السطحُ المرئي لهذا الصعقِ العصبي.

يُظهر الجيلُ الاتصالي علاماتٍ على وباءِ ضمورٍ عاطفي. فالانفصالُ بين اللغة والجنسانية مُذهلٌ، والپورنوجرافيا هي الشكلُ النهائي لهذا الانفصال.

حين قتلت مجموعةٌ من الشباب الصغار في مكانٍ بشمال إيطاليا فتاةً صغيرة بعد التحرُّش بها، ذُهل المحققون الذين درسوا الحالة من عجز الشباب الصغار عن الصياغةِ اللفظية لفعلِهم، ومشاعرهم، ودوافعهم. فالمعالجة الصرفية مُختزلةٌ إلى الصفر. مقاطعُ منفردة، وأصواتٌ محاكاتية.

الحساسية مستثمرةٌ في هذا التحول، وتدخلُ سيرورةَ إعادة - تشكيل re-formatting؛ والتشكيلُ الجديد هو الناعمُ، القابلُ للتوصيل. تجتاحُ المخيلةَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجنسيةَ تلك النعومةُ عديمةُ الشَّعرِ للصورة الرقمية. يصبح الإدراكُ الحسي لجسدِ الآخر الواقعي في الحياة اليومية بَغيضًا: يصعب لمسُه، يصعب الشعورُ به، يصعب التمتعُ به.

هذا التحولُ المرضي للدائرة - النفسية يبدو لي أنه الملمحُ الرئيسي للتحول الأنثروبولوجي الراهن الذي يشمل التغيرَ الاجتماعي، والسياسة، والمأساةَ الكوكبية للرعب الذي يُدمّر الإدراكَ الحسي للأجساد التي تُحيطُ بجسدنا وتلمسُه.

التكرارُ الحواذي لإيماءةٍ لم تعد قادرةً على تحقيقِ هدفها، الجهدُ اليائس للإمساك بمتعةٍ ليس لدينا الوقت لرعايتها، كل هذا وثيقُ الصلة بعودة العنفِ، والحرب، والتعذيب إلى المشهد العالمي.

في كلٍ من العالمين الغربي والإسلامي، نشهدُ تحريضًا يوميًا على الخوفِ، والعدوانِ، والكراهية. وبيئةُ الخوفِ المتنامية التي تشمل كلَّ شيءٍ تُوقِع الاضطرابَ في المخيِّلة الجسدية. ورغم أن التعذيب لم ينمحِ أبدًا من الواقعِ الخفي للتاريخ، فقد رفضهُ الوعيُ لزمنٍ طويل واستبعده من مجال الرؤيةِ الاجتماعية. وبعد هزيمة النازية، اعتُبر التعذيبُ العلامةَ النهائية للاّ إنسانية.

لكن خلال الأعوام القليلة الماضية، بالضبط عند فجر القرنِ الجديد، ظهر التعذيبُ مِن جديد، ليصبح فجأةً أداةً طبيعية للفعل السياسي. المُعذِّبون وشركاؤهم يحتلّون رسميًا مقاعدَ السلطة في الولايات المتحدة، وروسيا، والكثير من الأماكن الأخرى. ويقوم المُعذِّبون بعرضِ أعمالهم على أصدقائهم بواسطة العرضِ الفيديو - صوتي والإنترنت. ويتم عرضُ قطعِ الرؤوس بفخرٍ كإظهارٍ للشجاعة والإيمان الديني.

كيف أمكنَ أن يحدثَ ذلك؟ لماذا تحوّلت الحساسيةُ الاجتماعية إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهمجية واللا إنسانية؟ علينا أن نفهم ما يجري في عمق الإدراكِ الحسي الجسماني، إذا أردنا فهمَ ما يجري على سطحِ الفعل الإرهابي والعسكري. لا تشترك الپورنوجرافيا والتعذيب في الكثير، إن كانا يفعلان على الإطلاق. لكن تعميمهما من خلال الميديا يجري في نفس الفراغ الذي يُولِّده ضُمور العاطفية. إن العجزَ عن الشعور بالمتعة يجد نظيرَه في العجزِ عن إدراكِ الرعبِ باعتباره رعبًا.

---

(1) أبو غريب: سجن بغداد السيء الصيت الذي خرجت منه صور وفيديوهات تعذيب وانتهاك السجناء العراقيين أثناء الاحتلال الأمريكي للبلاد.

(2) الأنوركسيا anorexia: هي العزوف المرضي عن الطعام.

(3) تينجلي أو جان تينجلي (1925ـ 1991): نحات سويسري معروف بآلاته النحتية الحركية التي مدت تقاليد الدادائية إلى أواخر القرن العشرين. سخر فنه من الأتمتة والإنتاج التكنولوجي المفرط للسلع المادية.

(4) فيليب جلاس: مؤلف موسيقي وعازف بيانو أمريكي ارتبطت أعماله بنزعة الحد الأدنى لبنائها على عبارات تكرارية ذات طبقات متحوِّرة.

(5) الهيبِي: طائفة الشباب من معتنقي الثقافة المضادة التي نشأت في الولايات المتحدة أواسط الستينات وانتشرت في كل أرجاء العالم. تجسدت في المهرجانات الموسيقية من قبيل وودستوك وفي الفرق الشبابية من قبيل البيتلز. ورثوا اللغة والثقافة المضادة لجيل البيت. مارست هذه الثقافة تأثيرًا هائلًا على الأزياء والفنون والأدب والموسيقى الشعبية ووسائل التواصل ونشرت التعددية والمذاهب الروحانية الشرقية والانسحاب من المنافسة والتخلي عن الصعود الاجتماعي.

(6) البانك: موسيقى روك وثقافة صاخبة وسريعة وعدوانية انتشرت خلال السبعينات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

06. الرغبات القاتمة

الاستياء والقمع

بطريقةٍ مباشرة أو غير مباشرة، مارسَت مقولة القمع عند سيجموند فرويد تأثيرًا ضخمًا على الفكر المناهض للسلطوية في القرن العشرين. وأفضل شرح لها يقدمه في **الحضارة ومساوئها** (1) Civilisation and its Discontents:

لا يمكننا ألّا نندَهش من التماثُل بين سيرورة الحضارة وبين التطور الليبيدي للفرد. إذ يجري حثُّ الغرائز الأخرى على إزاحةِ شروط إشباعها، على قيادتها إلى مسارب أخرى. وفي معظم الحالات تتطابق هذه السيرورة مع سيرورة التسامي (للأهداف الغريزية)... من المستحيل إغفالُ المدى الذي تنبني فيه الحضارة على إنكار الغريزة، إلى أي حدٍ تفترضُ سلفًا على وجه الدقة لا - إشباع الغرائز القوية (بالكبت، أو القمع، أو بوسائل أخرى؟). هذا «الإحباط الثقافي» يحكمُ المجال الضخم للعلاقات الاجتماعية بين الكائنات البشرية. وكما نعرف بالفعل، فإنها قضيةُ العداءِ الذي يجب أن تُناضل ضده كل الحضارات (1929: 34).

يعتبر فرويد القمع مَلمحًا مؤسّسًا لا يلين للعلاقات الاجتماعية. وخلال القرن العشرين، فيما بين أعوام الثلاثينات والستينات، ساءلت النظريةُ النقدية الأوروبية العلاقة بين الجانبِ الأنثروبولوجي للاستلاب والطابعِ التاريخي للتحرر. فمن جهةٍ، في نقد العقل الجدلي (1964)، أقرّ چان بول سارتر بالطابع المؤسّس أنثروبولوجيًا - ومن ثم لا يمكن تجاوزهُ - للاستلاب. ومن جهةٍ أخرى، نظرت التنويعةُ التاريخانية والجدلية من النظرية الماركسية إلى الاستلاب باعتباره ظاهرةً تتحدّد تاريخيًا يمكن التغلّبُ عليها من خلال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلغاء العلاقات الاجتماعية الرأسمالية. في مقال عام 1929، وبينما ينتقد سذاجةَ التفكير الجدلي، استبق فرويد الموضوعات الرئيسية للسجال:

يعتقد الشيوعيون أنهم قد وجدوا دربَ الخلاص من شرورنا. طبقًا لهم، فإن الإنسان خيِّرٌ تمامًا وسليمُ الطويّة تجاه جاره؛ لكن مؤسّسة الملكية الخاصة أفسدت طبيعته... وإذا أُلغيت المِلكية الخاصة، وجُعلت كل الثروة مشاعًا، وسُمح للجميع بالمشاركة في التمتع بها، فسوف يختفي سوءُ الطوية والعداء بين الناس... لستُ مهتمًا بأي نقدٍ اقتصادي للنظام الشيوعي؛ ولا يمكنني بحث ما إذا كان إلغاء الملكية ملائمًا أو مُواتيًا. لكنني أستطيع الإقرار بأن الافتراضات السيكولوجية التي يقوم عليها النظام هي وهمٌ لا يمكن الدفاع عنه (1929: 50).

لستُ مهتمًا بإعادةِ فتح الجدالات بين النزعة التاريخية والنزعة الوجودية أو بين الماركسية والتحليل النفسي: فهذه يجب أن نَعهدَ بها إلى مؤرخي تاريخ الفلسفة في القرن العشرين؛ وما أودُّ إبرازهَ هو إطارها الفلسفي المشترك وفرضياتها التحليلية المشتركة، التي ترتكز على مُماهاة الحضارة الحديثة مع نسقٍ يقوم على القمع.

طبقًا لفرويد، فإن الرأسمالية الحديثة، مثل أي نسقٍ للحضارة، تقوم على أساس إزاحةٍ ضرورية لليبيدو الفردي وعلى التنظيم المتسامي لليبيدو الجماعي. هذا الحدس نفسه نجده متحوِّلًا بطرق متنوعة في كل فكر القرن العشرين.

في التحليل النفسي الفرويدي، نجد أن هذا الاستياء مؤسّسٌ ولا يمكن تجاوزه وهدف العلاج التحليلي - النفسي، من خلال اللغة وسوابقِ المريض، هو علاجُ أشكال العصاب التي ينتجها فينا. وقد شاركت الثقافةُ الفلسفية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي تستلهم الوجوديةَ في إيمانِ فرويد بعدم إمكانية تجاوزِ الاستلاب المؤسّس وقمع الدوافع الليبيدية. وعلى النقيض، في النظرية الماركسية والمناهضة للسلطوية، يتحدّدُ القمع اجتماعيًا ويمكن إزاحتُه بفعلٍ للمجتمع يحرر به الطاقاتِ الإنتاجية والراغبة الموجودة في حركته الواقعية. ورغم ذلك، يلعب القمعُ دورًا محوريًا في كلتا الفلسفتين لأنه، كمفهومٍ، يُفيد كتوضيحٍ للأمراض العُصابية التي يتّخذُ منها العلاجُ النفسي موضوعَه، وكذلك للتناقض الاجتماعي الرأسمالي الذي تستهدف الحركاتُ الثورية إلغاءَهُ لتخلق شروط إمكانِ التغلب على الاستغلال والاستلاب ذاته.

خلال الستينات والسبعينات قدّمَ مفهومُ القمع الخلفيةَ لكل سجالٍ سياسي يستلهمُ الرغبة. كانت القيمةُ السياسية للرغبة تُثارُ دومًا ضد أجهزة القمع، وتتكشّفُ هذه الأخيرة عادةً عن كونها فخًا مفهوميًا وسياسيًا. فمثلًا، في أعقاب موجةِ اعتقالات انتفاضات فبراير ومارس عام 1977، قرّرت الحركةُ الإيطالية التجمّعَ حول موضوع القمع في مؤتمر بولونيا. ربما كان هذا خطأً مفهوميًا: فباختيار القمعِ كموضوعٍ رئيسي للنقاش، دخلنا الآلةَ السردية للسلطة وفقدنا القدرةَ على تخيُّل أشكالٍ للحياة لا تتماثلُ معها ومن ثم تكون مستقلةً عنها.

على أية حال، مع نهاية القرن العشرين بدا أن مجمل مسألة القمع تتبخر إلى هواءٍ خفيفٍ وتختفي من المشهد. فبدل أنواع العُصابِ التي ينتجها قمع الليبيدو، أصبحت أمراضُ عصرنا فُصاميةً وتنتج عن انفجار التعبير: افعلها فقط.

البنية والرغبة

عملت النزعةُ المناهضة للسلطوية لأعوام السبعينات ضمن إطارٍ مفهومي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فرويدي، من خلال توسيع وتخريب نظرته التاريخية. في كتاب **إيروس والحضارة** يعلن هربرت ماركوزه Herbert Marcuse راهنية تحرير الإيروس الجماعي. يُقيّد القمعُ الإمكانيةَ الكامنة للتكنولوجيا والمعرفة ويمنع تطوّرهما الكامل؛ إلّا أن الذاتيةَ النقدية تتفتّحُ فعليًا بتمكين التعبير الكامل عن الإمكانية الكامنة الليبيدية والإنتاجية للمجتمع، وخلق الشروط لتحققٍ كاملٍ لمبدأ اللذة. يُقيم تحليلُ المجتمع الحديث تقاطعًا بين وصف آليات الانضباط التي تُشكّل المؤسساتِ الاجتماعية قمعيًا وبين الخطابِ العام. ويُجبرُنا نشرُ محاضرات ميشيل فوكوه لعام 1979 مؤخرًا (2008) على إزاحة مركزِ ثقل فكر فوكوه بعيدًا عن الانضباط القمعي وباتجاه خلق أجهزةِ السيطرة البيو - سياسية. ورغم ذلك، ما زال فوكوه يعمل بطريقته الخاصة ضمن النموذج المعياري «القمعي» خلال كل عمله حول جينالوجيا الحداثة (وخصوصًا في تاريخ الجنون، ومولد العيادة، والمراقبة والعقاب).

وحتى جيل دولوز وفيليكس جواتاري Gilles Deleuze & Félix Guattari، رغم تخلّيهما المُعلن عن الإطار الفرويدي في كتاب ضد - أوديب، يعملان ضمن طرح الإشكاليات الذي رسم فرويد خطوطَهُ العريضة عام 1929: فالرغبة هي المحرّكُ للحركة التي تعبر كلًا من المجتمع ومسار التفرُّد، بينما يكون على الإبداعية الراغبة أن تتوافقَ باستمرارٍ مع آلات الحرب القمعية المُغروسةِ من قِبل الرأسمالية في كل طيّاتِ الوجود والمخيلة. ولا يمكن تسطِيحُ مفهوم الرغبة بقراءتها على أساس «القمع». ففي ضد - أوديب تتعارض الرغبةُ مع النقص. ازدهرت فلسفةُ الديالكتيك وبَنَت سياسةُ القرن العشرين حظوظها (السيئة) على مقولةِ النقص: وهي مقولةُ تبعيةٍ لا استقلالٍ ذاتي. النقص هو نتاجٌ، يُحدّده نظامُ الاقتصاد، والدين، والسيطرة النفسية.

بدلًا من النقص، فإن الرغبةَ بوصفها إبداعًا هي التي تُوفّر أرضيةً لسيرورات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اكتسابِ الذاتية الشبقي والسياسي. وفي هذا الصدد، يساعد دولوز وجواتاري فهمنا للقمع بوصفه لا يعدو أن يكون إسقاطًا للرغبة: فبدلًا من أن تكون تبدّيًا لبنيةٍ، فإن الرغبة هي إمكانية خلق آلاف البِنيات. يمكن للرغبة أن تُبلوِر بنياتٍ وتُحوّلها إلى نغماتِ قرارٍ حُوادية. تنصِبُ الرغبةُ فخاخًا لاصطياد الرغبة.

إلاّ أن الجهازَ التحليلي الذي صاغته جينالوجيا فوكوه ومذهبُ إبداعيةِ دولوز وجواتاري ينظرُ بصورةٍ سائدةٍ إلى الذاتية باعتبارها قادرةً على جعلِ الرغبة التي أُزيحت تُعاود الظهورَ في وجه التسامي الاجتماعي القمعي؛ وهذه نظرةٌ ضد-قمعية، أو بالأحرى، تعبيرية.

العلاقة بين البنية والرغبة هي مفتاحُ تحرّكِ التحليل - الفصامي لدي جواتاري خارج مدار الفرويدية اللاكانية. بالنسبة لجواتاري، لا يمكن فهمُ الرغبة لا من وجهةِ نظر البنية، ولا كمتغيّرٍ محتمل يعتمدُ على ثبات الماثيم(1) mathème؛ فالرغبة الخلاقة تُنتج بنياتٍ لا نهائية، بينها تلك التي تعملُ كأجهزةِ قمع.

مجال السميورأسمال

إذا أردنا أن نُخلّف الإطار الفرويدي وراءنا، علينا مقاربة موقف جان بودريّار Jean Baudrillard، الذي بدا إسهامُه في البداية نوعًا من التفكير المُثبّط. إذ يرسم بودريار سيناريو مختلفًا: ففي أوائل السبعينات **(في كتب نسق الأشياء، ومجتمع الاستهلاك، وانسوا فوكوه)**، يزعم أن محرّك التطور الرأسمالي هو الرغبة، وتُناظر إيديولوجيا التحرر السيطرةَ الكاملة للسلعة: وبدلًا من القمع، فإن المُشابَهة simulation وتَوالد الأشباه والإغواء هي الإطار الجديد لما هو مُتخيَّل. يرى بودريار إفراطًا في التعبيرية باعتباره اللبّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجوهري لهذه الجرعة الزائدة من الواقع.

ينمو الواقعي مثل صحراء، أوهامٌ، أحلام، مشاعر، جنون، عقاقير، لكن كذلك الاصطناع artifice والشبيه simulacrum، اعتادت جميعها أن تكون الضواري الطبيعية للواقع، لكنها جميعًا فقدت طاقتَها، كأنما أصابها مرضٌ خبيثٌ ولا شفاء منه (2006: 21).

استشرف بودريار ميلًا كان سيُصبح سائدًا خلال العقود التالية. ويبين تحليلُه كيف تُحوِّل المشابهة علاقة الذات - الموضوع مُجبرةً الذات على الموقع التابع لشخصٍ يستسلم للإغواء. بدلًا من الذات، نجد أن الموضوع هو الفاعلُ وبذلك يتلاشى برمته سؤالُ الاستلاب، والقمع، وعدم الارتياح الذي يُنتجانه.

وفي «حاشية على مجتمعات السيطرة»، التي يتم الاستشهادُ بها كثيرًا، والتي كتبها دولوز خلال سنوات حياته الأخيرة، يبدو أنه يطرحُ للتساؤل المعمار المُستمد من مقولة فوكوه عن الانضباط ويتحرك في اتجاه بودريار بداية السبعينات. وأنا هنا لستُ مهتمًا بالمقارنة بين نظريةٍ في الأشباه ونظريةٍ في الرغبة - الأمر الذي يستحق القيام به عاجلًا أو آجلًا- بل بسيناريو الأمراض النفسية التي تنبثق بينما يشارفُ المجتمع الصناعي على نهايته مُفسحًا الطريق للسميورأسمالية، أي بالتحديد، رأسماليةٍ مؤسَّسةٍ على العمل اللامادي واستغلال الدائرة - المعلوماتية.

الإنتاجُ - المفرط هو ملمحٌ كامنٌ في الرأسمالية لأن إنتاج السلعة، بدلًا من منطق الاحتياجات العينية للكائنات البشرية، يستجيبُ للمنطق المجرّد لإنتاج القيمة. ورغم ذلك، فإن نوع الإنتاج المفرط المُتبدّي في السميورأسمالية سميوطيقيٍ بوجهٍ خاص؛ إفراطٌ لا نهائي لعلاماتٍ تدور في الدائرةِ -

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعلوماتية وتُشبّع الانتباه الفردي والجماعي.

أثبت حدسُ بودريار أنه حاسمٌ على المدى الطويل. والمرض السائد في العصر المقبل هو نتاجُ إلزامٍ مُعمَّم بالتعبير، بدلًا من القمع. ويُظهر الجيلُ الفيديو - إلكتروني الأول علاماتٍ على التأثيرات المرضية لفرط - التعبير، وليس للقمع.

حين نتعامل مع معاناة عصرنا وعدم ارتياح الجيل الاتصالي الأول، لا نعود في الإطار المفهومي لمقال فرويد «**الحضارة ومساوئها**». ففي الفرويدية، في أساس المرض يكمن إخفاءٌ: ثمة شيءٌ مخفيٌ عنا، مُزاح، ثم يختفي؛ نحن ممنوعون من شيء. وبديهي، أن أساس المرض اليوم لم يعد الإخفاءَ بل فرط - الرؤية، إفراطٌ في المنظورية، انفجارُ الدائرة - المعلوماتية، وإجهادُ المثيرات العصبية - المعلوماتية.

ليس القمعُ، بل التعبيريةُ - المفرطة هي المجال التكنولوجي والأنثروبولوجي لفهمنا لتولّد الأمراض النفسية المعاصرة من قبيل اضطراب نقص الانتباه وفرط النشاط، وعُسر القراءة، والهلع. وهذه تشير إلى طريقةٍ مختلفة لمعالجة المُدخَلات المعلوماتية، بينما تتبدّى كمعاناةٍ، وعدم ارتياح، وتهميش. ورغم أن ذلك قد لا يكون ضروريًا، يجدر التأكيد على أن مقاربتي لا علاقةَ لها بالوعظِ الرجعي والمتعصّب حول الشرور التي تُسبّبها الإباحية المزعومة أو كم كان القمعُ السابق مفيدًا لعقولنا وعاداتنا.

أمراض التعبيرية

في التقديم لكتابٍ حول الأشكالِ المعاصرة للمرض النفسي، يقول محرّرو Civiltà e Disagio [الحضارة وعدم الارتياح]: هدفنا في هذا الكتاب أن نُعيد التفكير في العلاقة الثنائية بين الحضارة وعدم الارتياح في ضوء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التحولات الاجتماعية العميقة التي مرّت بها حيواتنا. وأحد أبرز هذه التحولات هو التغير في واجبِ الأنا - الأعلى لعصرنا. فبينما كان الواجبُ الفرويدي يتطلب تخلّيًا عن الغرائز، يدفعُنا الواجبُ الاجتماعي الجديد نحو المتعة. وفي الحقيقة، فإن أعراضَ عدم ارتياح الحضارة المعاصرة وثيقةُ الارتباط بالمتعة؛ هي إمّا ممارساتٌ فعلية لها (الانحرافات المتعلقة بالمخدرات، والشرَه المرضي، والبدانة، وإدمان الكحول)، أو تبديات انغلاقٍ نرجسي يُنتج حالاتِ ركودٍ للمتعة في الجسم (الأنوركسيا [العزوف عن الطعام]، والاكتئاب، والهلع) (Cosenza, Recalcati, Villa: 2006).

مَاهىَ فرويد المرضَ النفسي السائد بالعُصاب neurosis، الذي كان يعتقد أنه تأثيرُ إزاحةٍ؛ لكنه اليوم هو الذُهان psychosis، الذي يرتبط بصورةٍ متزايدة بمجال إفراطات الطاقة والمعلومات، بدلًا من الإزاحة.

في أعماله التحليلية - الفصامية، ركّز جواتاري على إمكانية إعادةِ ترتيب مجمل مجال التحليل النفسي انطلاقًا من إعادة تعريفِ العلاقةِ بين العصاب والذهان، ومن الدورِ المركزي المنهجي والإدراكي للفصام. وكانت التأثيراتُ السياسية لإعادة تعريفه بالغةَ القوة وتطابقَت مع انفجار الحدودِ العصابية التي فرضتها الرأسماليةُ على التعبير من خلال تقييد دورِ الفاعل في الحدود القمعية للعمل وإخضاعِ الرغبة لإزاحةٍ انضباطية؛ لكن نفس الضغط الفصامي الشكلِ للحركات وتفجّر التعبير فيما هو اجتماعي أدّى إلى تحوُّلٍ (أو تحوّل - فصامي) للّغات، وأشكالِ الإنتاج، وأخيرًا، للاستغلال الرأسمالي.

لا يمكن فهمُ الأمراضِ النفسية المنتشرة في الحياة اليومية للأجيال الأولى لعصر الاتصال ضمن الإطارِ القمعي والانضباطي. فبدل أن تكون أمراض إزاحةٍ، فإنها أمراضُ «افعلها فقط» Just do it:

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من هنا مركزيةُ الذهان. فعلى خلافِ العصاب الإكلينيكي، الرمزي لأنه يعمل ضمن المجال اللغوي والبلاغي للإزاحةِ والأسس المعيارية لأوديب، نجد أن الذهان هو دائمًا عيادةٌ للواقعي، لا يحكمُه إخصاءُ رمزي، وبذلك فهو أقرب إلى حقيقة البنية (من المستحيل بنيويًا إضفاءُ الرمزية على واقعي المتعة ككل) (Cosenza, Recalcati, 2006: 4).

يُشير تشتُّتُ الهوية إلى غياب مركزٍ للتماهي يحدثُ في العصاب، مما يُمكّن الذات من بَنْيَنة أنا Ego قوي ضمن حدودٍ معينة ويصبح مندمجًا في علاقاتٍ أولية مع الأشياء وتماهيها (Cosenza, Recalcati, 2006:22).

من وجهة نظر المرض - السميوطيقي، يمكن اعتبارُ الفصام فرطًا في التدفقات السميوطيقية بالنسبة للقدرةِ على التفسير. بينما يبدأ الكونُ في التحرك بسرعةٍ مفرطة وتُطالب علاماتٌ مفرطة العدد بتفسيرنا، لا يعود العقلُ قادرًا على تمييز الخطوط والنقاط التي تُشكّل الأشياء. ومن ثم نحاولُ التقاطَ المعنى من خلال سيرورة إدراجٍ - مفرط وتوسيعٍ لحدود الدلالة. في ختام عملهما المشترك الأخير، يكتب دولوز وجواتاري:

إننا نتطلب فقط القليلَ من النظام لحمايتنا من الكاوس. ليس ثمة ما هو أشدُّ إيقاعًا للأسى من خاطرٍ يهربُ من نفسه، من أفكارٍ تتطاير، تختفي ولم تكد تتشكّل، وقد تآكلت فعلًا نتيجة النسيان أو ترسّبت إلى أخرى لم نعد نتملّكها. هذه قابلياتُ تغيُّرٍ لا نهائية، يتطابق ظهورُها واختفاؤها. إنها سرعاتٌ لا نهائية تمتزج في سكونية العدم الصامت بلا لونٍ الذي تعبرُه دون طبيعةٍ أو فكر (1994: 201).

سميوطيقا الفصام

يكون أيُّ نسقٍ سميوطيقي قمعيًا حين يُنسبُ مدلولٌ واحدٌ، وواحدٌ فقط،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكل دالٍ. وكل من يُخفق في تفسير علاماتِ السلطة بالطريقة الصحيحة، لا يُحيّي العلَم أو لا يحترم رؤساءه، ويخرق القانون، يجلبُ لنفسه المتاعب، إلّا أن النسق السميوطيقي الذي نجدُ أنفسَنا فيه كسكّانٍ للكونِ السميورأسمالي يتميّز بإفراطٍ في سرعة الدوال وُيثير نوعًا من حركيةٍ - مفرطة في التفسير. يُصبح الإدراجُ - المفرطُ النمطي للتفسير الفصامي هو النمطُ السائد للإبحار في الكون المتوالدِ للميديا الفيديو - إلكترونية.

في فصل بعنوان «نحو نظريةٍ للفصام»، عرّف باتيسون Bateson التفسيرَ الفصامي على النحو التالي:

يُظهر الفُصامي ضعفًا في ثلاثة مجالاتٍ للوظيفة الاتصالية: **أ)** صعوبة في نسبة نمطِ الاتصال الصحيح للرسائل الآتيةِ من الناس الآخرين؛ و **ب)** صعوبة في نسبة نمطِ الاتصال الصحيح للرسائل اللفظية وغير اللفظية؛ و **ج)** صعوبة في نسبة نمطِ الاتصال الصحيح لفكره الخاص، وإحساسه، وإدراكه (1972: 240).

في الدائرةِ - المعلوماتية الفيديو - إلكترونية نسكنُ جميعنا الظروفَ التي تصفُ الاتصالَ الفصامي. بِكون المتلقّي البشري مُعرّضًا لتحميلٍ مفرطٍ من النبضات الدالة، فإنه يصبح عاجزًا عن معالجة معنى عباراتٍ ومثيراتٍ بالتتابع ويُواجه الصعوباتِ التي أوردَها باتيسون. والطابع الخاص الذي يذكره باتيسون للفصامي علاوة على ذلك هو أنه لا يعرف كيف يميّز الاستعارةَ عن التعبير الأدبي.

خصوصية الفصامي ليست أنه يستخدم الاستعارات، بل أنه يستخدمها دون أن يُحدّدها (1972: 248).

في مجال المشابهة الرقمية، تقلّ إمكانية التمييز بين الاستعارات والأشياء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باستمرار؛ فالشيء يتحول إلى استعارة والاستعارة إلى شيء، يحل التمثيل محل الحياة، وكذلك تحل الحياة محل التمثيل. تضع التدفقات السميوطيقية ودورة السلع شفراتهما في تعارضٍ وتصبحان جزءًا من نفس الكوكبة، التي يسمّيها بودريار باسم الواقعِ المفرط. هكذا يصبح سِجِلُ الفصام هو النمط الرئيسي للتفسير. يفقد نسقُ الإدراكِ الجمعي كفاءَته النقدية؛ وهذا يعادلُ القدرةَ على تبيُّن قيمة الصدقِ في العبارات التي كانت تُقدَّم تتابعيًا لانتباهٍ واعٍ نسبيًا. وسط توالدِ الميديا السريعة، لا يعود التفسيرُ يتفتح على طولِ خطوطٍ تتابعية؛ وبدلًا من ذلك يتبعُ دواماتٍ تداعياتية وارتباطاتٍ دون دلالة.

التفسير والإجهاد

في كتاب «الاستماع القائم على المتعلِّم والأصالة التكنولوجية»، يدرس ريتشارد روبين Richard Robin، الباحثُ في جامعة جورج واشنطن، تأثير تسارعِ الكلام على فهمِ الاستماع. يقوم بحثُ روبين على أساس حساب عددِ المقاطع المُتحدَّثة كل ثانية. المعدل الأسرع، والمقاطع الأكثرُ كلّ ثانية تُقلِّل مستوى فهم المستمع للمعنى: كلما زادت سرعةُ تدفق المقاطع لكل ثانية، كلما قل الزمن أمام المستمع ليعالج الرسالة نقديًا. سرعةُ البثّ وكمية النبضات السميوطيقية المُرسَلة خلال وحدة زمنٍ مُعطاة هما دالةٌ للزمنِ المتاح لمعالجةٍ واعية.

الحديث بسرعةٍ يُخيفُ المستمعين. وتشير الدلائلُ إلى أن العولمة قد أنتجت معدّلات بثّ كلامٍ أسرعَ في أماكن من العالم حلَّ فيها النمطُ الغربي لبث العلامات محل الأنماط التقليدية والسلطوية. فمثلًا، في الاتحاد السوفيتي السابق نجد أن سرعةَ البثِ مُقاسةً بالمقاطع لكل ثانية قد تضاعفت تقريبًا منذ سقوط النظام الشيوعي: من ثلاثةٍ إلى ستةِ مقاطع تقريبًا لكل ثانية؛ وتوصلت أبحاثٌ مماثلة إلى نفس النتائج في الشرق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأوسط والصين (1991: 403).

تضمينات دراسة روبين بالغةُ الأهمية لفهمنا للانتقال من شكلٍ من السلطةِ البيو - سياسية الإقناعية (مثل الأنظمة الشمولية للقرن العشرين) إلى شكلٍ من السلطة البيو - سياسية الشاملة (مثلًا الإنفوقراطية infocracy [المعلوماتوقراطية] المعاصرة).

السلطة الإقناعية تقومُ على الإجماع: يجب أن يفهم المواطنون أسبابَ الرئيس، أو الجنرال، أو السكرتير، أو الدوتشي. يُرخَّص بمصدرٍ واحدٍ فقط للمعلومات. وتُخضَع الأصواتُ المنشقة للرقابة. وبدلًا من ذلك، يُقيم النظامُ الإنفوقراطي للسميو - رأس مال سلطتَه على الإجهاد، على تسريع التدفقات السميوطيقية وانتشار مصادرِ المعلومات إلى حدّ إنتاج الضوضاء البيضاء لعدم التمايز، لانعدام المغزى وعدم قابليةِ فك الشفرة. جرى إدراكُ فنِ القرن العشرين على أنه تدفقاتٌ للرغبة وتعبيراتٌ مُحرِّرَة؛ احتفت السوريالية بالسلطة التعبيرية للوعي الباطن باعتبارها مُحرِّرةً للطاقات الاجتماعية والنفسية. واليوم، نجدُ أن الفن هو أيضًا تدفُّق علاجِ البيئة العقلية. حلَّ الفنُ محل الشُرطة في الجهاز الكلي لضبط العقل، لكنه في نفس الوقت يسعى إلى غزو العلاج.

بينما كان المرضُ الوبائي السائد للحداثة هو العُصاب الناتجُ عن القمع، تُبدي الأمراضُ المنتشرة وبائيًا اليوم علاماتِ الذُهان والهلع. الاستثارة - المفرطة للانتباه تُقلِّل القدرةَ على التفسير النقدي والتتابعي لكلام الآخر الذي يُحاولُ لكنه يفشلُ في أن يكون مفهومًا.

أوبئة الاكتئاب

صباح يوم 20 إبريل عام 2007، كنت أقرأ صحيفة إل **كوريرى ديللا**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيرا Il Corriere della sera. كان في الركن الأعلى لصفحة 20، تقريرٌ عن مآثر تشو سيونج هوي Cho Seung Hui، الفتى الكوري الذي ذهب يبحث عن صديقته في كلية فيرجينيا تِك، ولمّا لم يجدها، أطلق النار على 30 طالبًا وأستاذًا في المدرسة.

الأسلحة، الموت، الهذيان

فيديو القاتل على التلفزيون

كان هذا عنوانُ المقال: وفي الصورة التالية له رأينا الفتى مُمسكًا بمسدّسين، والذراعان متباعدتين مثلما في إعلانٍ شهير لألعاب فيديو لارا كروفت Lara Croft.

حتى الآن، لا شيءَ غير مألوف. فكل صحف الكوكب كانت تتحدث عن تشو سيونج هوي ذلك اليوم. بعد أن قتلَ شخصين الساعة 8:30، وقبل أن يعود إلى فيرجينيا تك ليقتل كثيرين آخرين، ذهب إلى منزله، وأعد لفافةً تحتوي على شهادة -بالفيديو وأرسلها إلى شبكة إن بي سي NBC التي قرّرت، بالطبع، بثها.

لكن ما شد انتباهي حقًا كان الصورةَ أسفل صفحة 20. في البداية، بعد أن لمحتها بسرعة، اعتقدتُ أنها جزءٌ من نفس القصة.

على خلفيةٍ سوداء، رأيتُ صورةَ امرأةٍ ذات ملامح آسيوية، كورية فعليًا. كانت ترتدي نظاراتٍ شمسية داكنة، منحتها مظهرًا صارمًا، عدوانيًا، فخورًا، وكانت مُصوَّرةً في ثلاثة أوضاعٍ مختلفة ومتراكبة. في الوسط تتمثل مُواجهةً وهي تُديرُ جِذعها وتُبرز رأسَها إلى الأمام وذراعَها اليسرى إلى الوراء، كأنها تنطلق تجاهكَ مباشرةً. وعلى اليمين، ترفع نفسُ المرأة إحدى ساقيها وتحمل حقيبة أوراقٍ مصنوعةً من نسيجٍ تخليقي أبيض مثل ردائها بالضبط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى اليسار، يصبح الوضعُ عنيفًا بصورةٍ حاسمة: نرى السيدةَ ترفسُ بعنفٍ هدفًا غير منظور بساقها اليسرى، بينما يبدو أن ذراعها اليمني المثنية تستجمعُ كلَّ قوتها المتاحة.

كان هذا إعلانًا لشركة إنتل كوربوريشن Intel Corp، يُروِّج لبروسيسور إنتل الجديد كور 2 دوو، وفي نفس الصورة، يمكنك، في الحقيقة، أن تقرأ شعارًا يقول:

زِد حريتك

ضاعف أداءَك ببروسيسور إنتل كور 2

لماذا اختاروا امرأةً لتؤدّي تلك الأوضاع؟ الشرق الأقصى ينقلُ ذبذباتِ عدوانية، وأخلاقياتِ عملٍ لا تكلّ، ونشاطًا، واستنفارًا شخصيًا دائمًا، ونجاحًا في المنافسات الدولية.

يشترك تشو وفريق دعاية إنتل في نفس المُتخيَّل الاجتماعي. والرسالة المنبعثةُ من صور الشاب المسجَّلة كانت هي نفسها الرسالة التي يوصّلها المُعلِنون لقرّائهم.

دورة الهلع - الاكتئاب

عادةً ما تُرتبط الانفجاراتُ الانتحارية المُميتة بتشخيصٍ مرضي للاكتئاب. وكان ثمة بلاغاتٌ عديدة عن تأثيراتٍ عنيفة انتحارية و/أو قاتلة لدى مرضى جرى شفاؤهم بمضادّات الاكتئاب التي، بدل أن تتعامل مع التضمينات السيكولوجية العنيفة للاكتئاب، تُزيح ببساطةٍ الكبتَ عن الفعل.

الاكتئاب لا يمكنه تفسير انفجارٍ عنف تشو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان فعل تشو معقّدًا، مُدرَكًا بإبداعيةٍ ومتمفصلًا. كان عملًا فنيًا مُشبعًا بمرجعياتٍ رمزية مأخوذة من أدب - الرعب الشعبي. على خلفيةٍ اكتئابية، يؤكّدها أيضًا النصُ الذي كتبه تشو، نرى رد فعلٍ قوي ينبثق، تُساعده موادُ متاحةٌ بسهولة: عقاقيرُ عقلية - نفسية، مُخيِّلةُ أدب - رعبٍ شعبي، أسلحةٌ دقيقة وقوية. ولا أدري ما نوع المواد التي كان يتناولها تشو.

توحي تلك الصفحة من كوريبرى ديللا سيرا، بالطبيعة العارضة لإعلاناتها، بمفتاحٍ تفسيري لا يقبل الاختزال إلى تشخيصِ اكتئاب: ففعل تشو مرتبط بتشبُّعٍ للدوائر العاطفية، بمايس كهربي سبّبه الإجهاد. هذا السلوك العنيف بصورةٍ متفجّرة يتبعُ فقدانَ السيطرةِ على العلاقة بين المثيرات المعلوماتية والمعالجة العاطفية.

هذا التفعيل القاتل يمكن أن يكون تبعةَ اكتئابٍ معالجٍ بعقاقير مضادة - للكبت لا تأثيرَ لها على سببِ الاكتئاب. لقد طعّم عالمُ سميوطيقي كاملٌ نفسَه في هذا النزع الصيدلاني للكبت، قشرةٌ من المثيرات - السميوطيقية التي أوصلت الكيانَ العضوي إلى استثارة ـ مفرطة لا يمكن التحكم فيها.

موضوع الدراسة هو دورةُ الهلع - الاكتئاب

ورسالة شركة إنتل كوربوريشن، مثل كل تدفق المثيراتِ الإعلانية، تستنفرُ عدوانًا تنافسيًا، انتهاكًا عنيفًا للقواعد، توكيدًا دافعيًا لتعبيرية المرء الخاصة. تعدد -الوظائف الذي تعرضهُ إنتل هو أقوى عنصرٍ في تكثيف الإنتاجية المميّز للعمل الإدراكي، لكن تعدُّدَ - الوظائف هو أيضًا عنصرُ تفكيكٍ للمَلكة التي لدينا لمعالجة المعلومات عقلانيًا، ويثيرُ بإفراطٍ نسقَنا العاطفي بطريقةٍ مَرَضية. في اللغة الجديدة للنيوليبرالية - المفرطة السميورأسمالية فإن تعبير **«ضاعف حريتك»** يعني فعليًا **«ضاعف إنتاجيتك»**.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا يجب أن تكون ثمة مفاجأةٌ في أن التعرّض للتدفق المعلوماتي – الإعلاني - الإنتاجي المُحفِّز يُنتج تأثيراتٍ شبيهة - بالهلع، ومتعلقةٍ بوهن - الأعصاب، وتهيجية مرضية، لكن التعاقبَ بين الاستثارة الاستنفارية للطاقة العصبية وبين الفعل العنيف ليس خطّيًا، لأن الحالة لو كانت كذلك لكان كلُّ العمال الذين يُعانون استغلالًا عصبيًا مكثفًا قد أصبحوا قتلةً، ولم يحدث ذلك بعد. الدورة أعقدُ من ذلك. الاستنفارُ الدائم للطاقات العصبية يمكن أن يؤدّي إلى رد فعلٍ اكتئابي: فإحباط محاولاتنا للفعل وللتنافس تقود الذاتَ إلى سحبِ طاقتها الليبيدية من الحلبة الاجتماعية. تتراجع نرجسيتُنا المحبَطة وتنغلقُ طاقتنا على نفسها.

عند هذه النقطة، لا ينصبُّ الفعلُ العلاجي على السبب العميق للاكتئاب، لأن هذا السبب، كما سنرى، لا يمكن أن يهاجمه علاجٌ صيدلاني. فالتناول العلاجي للاكتئاب يتضمنُ عملًا عميقًا وممتدًا للمعالجة اللغوية، بينما لا يمكن للتناول الصيدلاني أن يعمل بفعالية إلّا على الانسدادات الكبتية، وليس على الأسبابِ العقلية للاكتئاب. وفعل نزع الانسدادات هذا يمكن أن يُنشّط فعلًا عنيفًا يتميّزُ بخلفيةٍ اكتئابية.

تكثيف المثيرات العصبية، وتراجع الاستثمار الليبيدي، والفهم المؤلم للنرجسية: هذه هي الجوانب الأساسية لملمحٍ مرضي واسع الانتشار بشدة في مجتمع اليوم. يمكننا التمييزُ بوضوحٍ بين الأمراض التي يُسبّبها الإجهاد (الهلع، اضطرابات الانتباه، عسر القراءة) وبين الأمراض التي يسببها نزع الاستثمار (الاكتئاب وحتى التوحُّد). لكن هذا التمييز المفهومي يجب أن يتبعه الإقرارُ بأن هذه الأمراض، ذات الأصول المختلفة، تعمل تزامنيًا وتكميليًا، مُسبّبةً تبدياتٍ بالغة العنف.

بالطبع، فإن العقاقير التي تُزيل أوجهَ الكبت على الفعل دون أن تمسّ اللبّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاكتئابي يمكن أن ينتهي بها الأمر إلى إطلاق أفعالٍ خرقاء، انفجاراتٍ خالصةٍ وبسيطة لقوى عنيفة أو مُدمِّرة للذات.

بعد عام 1980، تم تقسيم عُصابات القلق إلى فئتين: نوبة الهلع ومتلازمة القلق العام. وقد انتقل هذان المرضان بسرعةٍ إلى المجال الاكتئابي، لأنهما يمكن علاجهما بمضادات الاكتئاب بصورةٍ أفضل مما بالعلاجات التي تُقلِّل القلق. واليوم، يشكل القلقُ جزءًا من المجال الاكتئابي. (Ehrenberg 1988: 25)

الصورة الأساسية لتولُّد المرضِ المنبثقة من حقبة الجيل الاتصالي الأول تتميز بالاستنفار - المفرط للطاقات العصبية، بالإجهاد المعلوماتي، بالتوتر المستمر لملكات انتباهنا. والوجه الخاصُ والنتيجةُ الهامة لهذا الاستنفار - المفرط هو ندرةُ التلامُس الجسدي، العزلةُ البدنية والنفسية للفرد في الدائرة - المعلوماتية. وضمن هذا الشرط، علينا أن ندرسَ الاكتئاب كظاهرةٍ وبائية ثانوية، تتكاملُ تمامًا في علم تشخيصِ الأمراض الذهانية - الهلعية للجيل الاتصالي الأول.

ومفهوميًا، أجدُ من المثير للاهتمام التمييزَ بين متلازمات الاكتئاب والقلق، لأنني أرى في الأولى تأثير إجهادٍ للمثيرات، بينما تنتجُ الثانية عن نزع - استثمار الطاقة. لكن إذا أردنا شرحَ الانفجارِ الوبائي للعنف عند فجر ألفيّتنا الجديدة سيكون علينا أن نقرّ بارتباطهما، فالاستثارة - المفرطة المُحبَطة تؤدّي إلى نزع - استثمار الطاقة الليبيدية الذي نسميه الاكتئاب، لكن الذات يمكنها تفجيرُ الانسدادِ الاكتئابي بعقاقيرٍ نفسية - عقلية أو ربما بصدماتٍ سلوكيةٍ قاتلة.

المعنى، الاكتئاب، الصدق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا يمكن اختزال الاكتئاب إلى المجال النفسي، فهو يطرح للتساؤل أسس الوجود ذاتها. ويمكن فهم الاكتئاب السوداوي في علاقته بدوران المعنى. في مواجهة هاوية اللا-معنى، يتحدث الأصدقاء إلى الأصدقاء، ومعًا يبنون جسرًا فوق الهاوية.

الاكتئاب يطرحُ للتساؤل موثوقيةَ هذا الجسر. الاكتئاب لا يرى الجسر. فهو يسقطُ من راداره. أو ربما يرى أن الجسرَ غير موجود. الاكتئاب لا يثقُ في الصداقة، أو لا يعترف بها. لهذا لا يمكنه إدراكُ المعنى، فليس ثمة معنى إن لم يكن في فضاءٍ مُقتَسَم.

المعنى هو إسقاطُ استثمارٍ ذهني وعاطفي. يمكننا القولُ بأن المعنى هو تأثيرُ استثمارٍ ليبيدي في التفسير، في بناء المعنى.

الكتاب الأخير لجيل دولوز وفيليكس جواتاري، **ما الفلسفة؟**، يضمُّ تأملاتِ في الشيخوخة، والصداقة، والكاوس، والسرعة. تظهر أخيرًا تيمةُ الاكتئاب (التي يجرى قمعُها أو حتى إنكارها دائما في بقية أعمالهما).

لا يُعرّف الكاوس بفوضاه بقدر ما يُعرّف بالسرعة اللانهائية التي يتلاشى بها فيه كلُّ شكلٍ يتّخذ هيئةً. إنه خواءٌ ليس عدمًا بل افتراضيٌ، يتضمن كلَّ الجزيئات الممكنة ويتّخذُ كل الأشكال الممكنة، التي لا تنبثقُ إلاّ لتختفي على الفور، دونَ اتساقٍ أو مرجع، دون عاقبة. الكاوس هو سرعةٌ لانهائيةٌ للميلاد والاختفاء. (1994: 118)

ويضيفان:

ليس ثمة ما هو أشدُّ إيقاعًا للأسى من خاطرٍ يهرب من نفسه، من أفكارٍ تتطاير، تختفي ولم تكد تتشكّل، وقد تآكلت فعلًا نتيجة النسيان أو ترسّبت إلى أخرى لم نعد نتملّكها. هذه قابلياتُ تغيُّرٍ لانهائية، يتطابقُ ظهورُها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واختفاؤها. إنها سرعاتٌ لا نهائية تمتزجُ في سُكونيةِ العدم الصامتِ بلا لونٍ الذي تعبرُه دون طبيعةٍ أو فكر (1994: 201).

التسارعُ اللانهائي للعالم بالنسبة للعقل هو الشعورُ بانقطاع الصلة النهائي عن معنى العالم. وهو يعكسُ نفسَه على الفور، ناسيًا ذلك النوع من الشعور الذي هو المعنى.

المعنى لا يوجدُ في العالم، بل فيما نستطيع خلقُه. وما يجري تداوُله في دائرةِ الصداقة، دائرةِ الحب، دائرةِ التضامن الاجتماعي هو ما يُتيح لنا العثورَ على معنى. يمكن تعريفُ الاكتئاب كافتقادٍ للمعنى، كعجزٍ عن العثور على معنى من خلال الفعلِ، من خلال التواصلِ، من خلال الحياة. والعجزُ عن العثورِ على معنى هو في المقام الأول العجزُ عن خلقه.

لنفكر في اكتئابِ سببهُ الحب. العاشق يُبنينُ خلقَ معنى حول الشخصِ الذي هو موضوعُ رغبته أو رغبتها. موضوعُ الحبِ هو القطبُ المغناطيسي الذي يجذبُ الطاقةَ الراغبة. وإذا اختفى هذا الموضوعُ، تنعدمُ إمكانيةُ خلقِ المعنى، وبالتالي لا يعودُ لشيءٍ معنى. «لا شيءَ له معنىً بالنسبة لي»، هكذا يقول العاشقُ المهجور، وهذه العبارة لها معنى مُتعيّن، لا معنى استعاري.

تكتب جوليا كريستيفا Julia Kristeva، في **الشمس السوداء**:

يتأسّس المزاجُ الاكتئابي كدعامةٍ نرجسية سلبية، قادرةٍ رغم ذلك على أن تقدّم للأنا تكاملًا معينًا، رغم أنه غيرُ لفظي. وبالتالي، يعمل الوجدان الاكتئابي كملحقٍ لعدم -المصادقةِ والانقطاعِ الرمزي، للـ «هذا لا معنى له» للذاتِ المكتئبة، بينما يحميها من الفعل الانتحاري. إلّا أن هذه الحمايةِ هشّةٌ Verleugnung، الإنكارُ الاكتئابي الذي يُبيدُ معنىَ الرمزي، يُبيدُ أيضًا معنىَ الفعل، ويقود الذاتَ إلى الانتحار دون خوفٍ من التفكّكِ، كإعادةِ التحاقٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باللاتكاملِ العتيق، القاتلِ بقدر ما هو ابتهاجيّ، أوقيانوسي. (1988: 24)

إذا اعتبرنا الاكتئابَ تعليقًا لاقتسامِ الزمن، يقظةً على عالمٍ بلا معنى، فلا بد أن نُسلّم بأن الاكتئابَ، من الناحيةِ الفلسفية، هو مجردُ اللحظةِ التي تقتربُ أكثر ما يمكنُ من الصدق.

الذات المكتئبةُ لا تفقد كلَّ ملكةِ المعالجةِ العقلانية لمحتوى حياتها ومعرفتها: على العكس، يمكن لرؤيته أو رؤيتها أن تبلغَ فهمًا جذريًا تمامًا. الاكتئاب يُتيحُ لنا أن نرى ما نُخفيه عادةً عن أنفسِنا من خلال التداولِ المستمر لسرديةٍ جماعيةٍ مُطَمئِنةٍ. الاكتئاب يرى ما يُخفيه الخطابُ العام. الاكتئاب هو الشرطُ الأفضل لبلوغِ الخواءِ الذي هو الصدقُ النهائي.

لكن، في نفس الوقتِ، يَشلُّ الاكتئابُ أية قدرةٍ على الفعل، على التواصلِ، على الاقتسام. وبالضبط على هذا الكبتِ للفعل، الثانويِ نفسيًا والحاسمِ براجماتيًا، تمارسُ مضاداتُ - الاكتئاب تأثيرَها.

لا أنتوي إنكار أن العقاقير يمكن أن تكون فعّالةً في معالجةِ أعراض الاكتئاب، ولا حتى أنهُ بإزالة الأعراضِ يمكننا أن نُعيدَ إلى الحركةِ طاقةً مشلولةً مؤقتًا، ومن ثم نتغلب على لبِّ الاكتئاب ذاته. لكنني أودُّ التشديدَ على حقيقة أن الاكتئابَ مُختلفٌ عن أعراضه، وأن شفاءَ الاكتئاب لا يمكن إلّا أن يتّبع مسارَ العنايةِ بالتفرُّدِ غير الدائم (أو بعدم دوامِ ما هو فريد).

السياق الاجتماعي لأوبئة الاكتئاب

في كتابه **إجهادُ أن يكونَ المرءُ ذاتَه** La fatigue Dêtre soi، يبدأ إيرنبرج Ehrenberg من فكرةِ أن الاكتئابَ هو اضطرابٌ يجب فهمهُ ضمن سياقٍ اجتماعي. ففي بيئة اليوم العاليةِ التنافسية، تُنتج المتلازمةُ الاكتئابيةُ دوامةً جهنمية. يُسببُ الاكتئابَ جرحٌ لميولِنا النرجسية، وهذا الجرحُ يُقلّلُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطاقةَ الليبيدية التي نستثمرُها في أفعالنا. وبالتالي، يتدعمُ الاكتئاب لأنه يُسبّبُ تضاؤلًا لمستوى نشاطِنا وقدرتِنا على المنافسة. ينتصر الاكتئابُ حين يكون النموذجُ الانضباطي لإدارة السلوكِ، والقواعدُ المُتعلّقة بالسلطة والامتثال المُميِّزةِ لزمنٍ كانت المحظوراتُ فيه تحدِّدُ مصيرَ مختلِفِ الطبقات الاجتماعية، قد تراجعَت لصالحِ معاييرٍ تُشجّع كلَّ واحدٍ على الإنجاز الفردي، آمرةً الناس أن يُصبحوا أنفسَهم. ونتيجة هذه المعيارية الجديد هي أن مجمل المسئولية عن حيواتنا تتموقعُ ليس في أنفسِنا فحسب، بل كذلك في الفضاء الجمعي. الاكتئابُ مرضٌ للمسئولية، يُسيطِر عليه شعورٌ بعدم الكفاية. الذاتُ المكتئبة ليست قادرةً. إنها متعَبةٌ من كونها نَفسَها. (1998: 10)(2)

ليس من المُدهش أن ينتشرَ الاكتئابُ في وقتٍ تصبح فيه إيديولوجيا التنافس وريادة الأعمال سائدةً، فمنذ بداية الثمانينات، بعد هزيمة حركات الطبقة العاملة وتوكيدِ الإيديولوجيا النيوليبرالية، اكتسبت اعترافًا اجتماعيًا فكرةُ أننا يجب أن نكون روادَ أعمال. لا يمكن لأحدٍ أن يدركَ حياتَهُ أو حياتَها بطريقةٍ أكثر استرخاءً ومساواتية، فمن يسترخي من المرجّح أن ينتهي به الأمر في الشارع، أو في ملاجيء الفقراء، أو في السجن. والإصلاحات النيوليبرالية المزعومةُ التي تُفرضُ باستمرار على مجتمعٍ متزايدِ التشظّي، والانهزام، والعجز، سحقتهُ الإيديولوجيات المسيطرة، موجَّهةً نحو تدمير أي أمنٍ اقتصادي للعمال، وتعريضِ حياة كل عاملٍ لمخاطر مهنةِ ريادة الأعمال. في الماضي، كانت المخاطرةُ هي وظيفةُ الرأسمالي، الذي كان يستثمر في قدراته أو قدراتها، ليحصل على مكاسب ضخمةٍ أو ليعاني إخفاقاتٍ مؤلمة. لكن المخاطرة الاقتصادية كانت عملَه. وكان الآخرون في مدىً يتراوح من البؤسِ إلى الازدهار النسبي، لكنهم لم يكونوا يُشجَّعون على المخاطرة ليحصلوا على المزيد. لكننا الآن «كلنا رأسماليون»، كما يزعم إيديولوجيو

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإصلاح النيوليبرالي صائحين، ومن ثم علينا جميعًا أن نخاطر. لن تعود المعاشات تُعطَى مقابل مُدّخراتٍ متراكمةٍ بفضل حياةٍ من العمل، بل إنها مربوطةٌ بصناديق معاشاتٍ إما ستُنتجُ عائداتٍ رائعة أو ستفشلُ بصورةٍ بائسة، تاركةً إيانا مُعدَمين في شيخوختنا.

الفكرة الجوهرية هي أننا جميعًا يجب أن نعتبر الحياةَ مشروعًا اقتصاديًا، سِباقًا فيه فائزون وخاسرون.

يرسم تحليل إيرنبرج الخطوطَ العريضة لجينالوجيا الأمراض الاكتئابية النمطية في مجتمع ريادةِ أعمالٍ مُعمَّم. قراءةٌ أعراضية لهذا الكتاب، وكذلك كتاب فوكوه لعام 1979 بعنوان مولد البيو - سياسة: فوكوه بدوره يُعرِّف انتشار النموذج الاقتصادي للمشروع الحر في طرائق حياتنا وتفكيرنا على أنه السّمة الحاسمةُ لعصرنا. إنه عصر الشمولية النيوليبرالية.

في حياة الشركات الكبرى، تتراجعُ النماذجُ الانضباطية المُميِّزة للفوردية لصالح معاييرِ تدفعُ المستَخدَمين لتبنّي سلوكاتٍ مستقلةٍ ذاتيًا. وتشكّل الإدارةُ التشاركية، ومجموعاتُ التعبير، وحلقاتُ الجودة طرقًا جديدةً لفرضِ السلطة، تستهدفُ غرسَ روحِ الطاعة في كل عامل مأجور. هذه الطرقُ لتنظيم والسيطرة على قوة العمل تقوم على المبادرة أكثر مما تقومُ على الطاعة الميكانيكية. الحسُّ بالمسئولية، القدرةُ على التطور وعلى خلقِ مشروعات، والحافز، والمرونة: هذه الخصائص ترسم طقوسًا دينية إدارية جديدة. والمسألة هي استنفارُ المشاعرِ والقدرات العقلية أكثر بكثيرٍ من كساء أجسادِ العمال المأجورين. تتغير الالتزاماتُ وطرقُ تحديد المشكلة: فمنذ منتصف الثمانينات فصاعدًا، يشدّد كلٌّ من طبِ العمل والبحث السوسيولوجي لريادة الأعمال على السيادةِ الجديدة للقلق، والاضطرابات النفسية - الجسدية، والاكتئاب. حياة الشركات الكبرى هي الدهليزُ المؤدي إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاكتئاب (Ehrenberg 1998: 199).

خلال التسعينات، انفجرت موضةٌ صيدلانية: أغرقت موادٌ من قبيل السرترالين sertraline (زولوفت) والفلووركسين fluorexine (بروزاك) السوق. على خلاف مركبات البنزوديازيبين benzodiazepines، عائلة العقاقير التي تشمل الديازيبام diazepam (فاليوم) والبرومازيبام bromazepam (ليكسوتان)، ليس لهذه المنتجات الجديدة تأثيرٌ منوِّم، مُهدِّيء ومقلِّل - للقلق؛ بل لها، بالأحرى، تأثيرٌ نشواني وتُتيح نزعَ - انسداد الكبتِ عن الفعل الذي يُمثِّلُ أحد التبديات السلوكية للاكتئاب.

في أواسط التسعينات، العقدِ الذي شهِدَ أكبر اندفاعٍ للاقتصاد الإدراكي، والذي احتاجَ إلى الاستنفار الكلّي للطاقات الذهنية اللازمة للعمل الإبداعي، جاء مولدُ أسطورةٍ حقيقية للبروزاك. أصبح هذا المُنتَج (وما زال) أحد أفضل المبيعات في الصيدليات حول العالم. دخل مجمل طبقة المديرين للاقتصاد الكوكبي في حالة دائمةٍ من النشوةِ والتحوُّلِ النفسي. والقرارات الاقتصادية لطبقة المديرين الكوكبية هي مرآةٌ أمينة للعقار الذي أتاح لـ«مُتَّخِذي القرار» أن يروا الجانبَ النشواني من العالم فقط، بينما يتجاهلون بعنادٍ التأثيراتِ المُدمِّرة التي تُسبِّبها النشوةُ الاقتصادية.

لسنواتٍ، كانت القراراتُ تُتخذُ بعقولٍ مُشبَعةٍ بالزولوفت أو بعد ابتلاعِ ملايين أقراصِ البروزاك. وعند نقطةٍ معينة، بعد الأزمة المالية لربيع عام 2000 والأزمةِ السياسية للحادي عشر من سبتمبر عام 2001، دخلت طبقةُ المديرين العالمية في مرحلةٍ اكتئابية. ومن أجل علاجِ خوائها الداخلي الخاص، أو ربما لإزالة الحقيقةِ الكئيبة لهزيمتها الأخلاقية، حقنت طبقةُ المديرين العالمية نفسَها بعقارٍ جديد، خطِر: هو الحرب، وهي أمفيتامين يفيدُ في إعادة استثمارِ عدوانيةٍ أصبحت الآن موجهةً لتدمير الطاقات المترسبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للنوع البشري وللكوكب.

انقلاب المستقبل

غيّر المستقبل علاماته، كما يُحذِّر ميجيل بيناساياج Miguel Benasayag وجيرار شميت Gérard Schmit في كتابٍ بعنوان **عصر المشاعر الحزينة** (2004)، حيث يتأملان في ممارستهما العلاجية الطويلة مع الشباب الذين يعيشون في **ضواحي** banlieues باريس. في الحقبة الحديثة، جرى تخيُّلُ المستقبل بفضل استعاراتِ التقدم. استلهم البحثُ العلمي وريادةُ الأعمال الاقتصادية في قرون التطورِ الحديث فكرةَ أن المعرفة ستؤدي إلى سيادةٍ أكثر اكتمالًا باستمرارٍ للكونِ البشري. يُصادِق التنويرُ على هذا التصور، وتجعلُ منه النزعةُ الوضعية عقيدةً مطلقة. كذلك تخيّلت الإيديولوجياتُ الماركسية الثورية، مُستَرشِدةً برؤيةٍ تاريخانية وجدلية، المستقبلَ على أساسِ نموذجٍ تقدُّميٍ غائي. فالحاضر يتضمن، على هيئة تناقضٍ، إمكانيةً يُقدَّرُ للتاريخ أن يحلّها بالضرورة. من الحلِّ الجدلي للتناقضات الراهنة سيولدُ شكلٌ اجتماعي مُتحررٌ من الفقر والحرب. وهذا الشكل هو ما تُسمّيه الحركةُ الماركسية باسم الشيوعية. خلال القسم الأخير من القرن العشرين تحلّلت هذه الافتراضاتُ الفلسفية. لكن ما اختفت، أكثر من أي شيءٍ آخر، هي مصداقيةُ نموذجٍ تقدمي للمستقبل. المستقبل، نفس فكرة المستقبل، تحمل الآن علامةً مضادة. الإيجابية الخالصة تصبح سلبيةً، والوعد يصبح تهديدًا. بالطبع، تقدمت المعرفة، لكنها عاجزةٌ عن إخماد المعاناة البشرية وتُغذّي الحزن والتشاؤم الواسِعي الانتشار (2004: 29).

يصبح المستقبل تهديدًا حين تصبح المخيلةُ الجماعية عاجزةً عن رؤية بدائل ممكنة لميولٍ تؤدي إلى الخراب، والفقر والعنف المتزايدين. وهذا بالضبط وضعنا الراهن، لأن الرأسمالية قد أصبحت نسقًا من الآليات الذاتية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التكنو - إقتصادية لا يمكن للسياسة أن تتجنّبها. إن شلل الإرادة (استحالة السياسة) هو السياق التاريخي لوباء الاكتئاب اليوم.

هامش المترجم إلى الإنجليزية:

كان العنوان الذي اختاره فرويد في البداية لهذا المقال هو Das Unglück der Kultur، الذي غيره فيما بعد إلى Das Unbehagen in der Kultur. وبينما يمكن ترجمة Unglückإلى «**التعاسة**». فإن Unbehagen تترجم أفضل ما يمكن إلى «**الاستياء**» أو «**عدم الارتياح**»، لأنها تعني أن تكون مستاءً، لكنك واعٍ بعدم ارتياحك ومدرك لعدم قابلية الإفلات منه؛ جالسًا على الحافة والذراعان واليدان معقودة على صدرك. والمصطلح المستخدم من جانب المؤلف بالإيطالية هو 'disagio'، الذي يعبّر عن شعورٍ بالسخف أكثر من السخط. ولما كان «**السخط**» يشير بوضوح إلى نقص السعادة، التي هي مفهوم غائب عن كلٍ من المصطلحين الألماني والإيطالي، استخدمنا «**استياء**» **أو** «**عدم ارتياح**».

---

(1) الماثيم: مفهوم قدمه أستاذ التحليل النفسي الفرنسي جاك لاكان في محاضرة عام 1971. تعني درس باليونانية. والماثيمات عنده هي صياغات المقصود منها تمثيل أفكاره وتحليلاته رمزيًا بهدف إدخال الصرامة التقنية في الكتابة الفلسفية والنفسية. مثال $a<> هي ماثيمة الفانتازيا بالمعنى اللاكاني. فيها تعبر $ عن الذات المنقسمة إلى وعي ولاوعي. وتمثل a الموضوع سبب الرغبة، بينما تمثل<> العلاقة بين الاثنين.

(2) ورد المقطع بترجمة أخرى في كتاب بيفو «الروح في العمل» وهي: «يبدأ الاكتئابُ في التطور بعد أن تكون النماذجُ السلوكيةُ الانضباطيةُ وقواعدُ السلطةِ والامتثال للمحظورات، التي حدّدت مصيرًا للطبقات الاجتماعية والنوعِ الاجتماعي [الجندرِ]، قد انهارت في مواجهةِ المعاييرِ الجديدة التي تدفعُ الجميعَ وكلَّ واحدٍ إلى سلوكٍ فردي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مُجبرةً الأفرادَ على أن يُصبحوا أنفسَهم. وبسبب هذا المعيار الجديد، تصبح المسئوليةُ عن حيواتِنا راجِعَةً بكاملها لكل واحدٍ منّا. عند ذلك يتبدّى الاكتئابُ كمرضٍ للمسئولية، يُسيطر عليه الشعور بعدم التكافؤ. الأشخاص المكتئبون ليسوا على مستوى المهمة، إنهم مُتعَبون من اضطرارهم لأن يُصبحوا أنفسَهم».1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

07. الخطأ (الرعب) (t)error والشعر

قرن المستقبل

منذ مائة عام نشر فيليپو تومّازو مارينتّي Filippo Tommaso Marinetti البيانَ الأول للمستقبلية؛ وفي نفس العام، فتح هنري فورد أولَ مصنع للسيارات في ديترويت. كانت بدايةُ القرن الذي آمن بالمستقبل. أكد البيانُ القيمةَ الجمالية للآلة، أي، «الآلة الخارجية»، التي لا يجب الخلطُ بينها وبين آلة إعادة التوليف المُتَمَثِّلة داخليا للحقبة البيو - معلوماتية. مجّدت المستقبليةُ الآلةَ كموضوعٍ خارجي، مرئيٍ في المشهد العام للمدينة، لكن الآلةَ الآن داخلنا: لم نعد ممسوسين بالآلة الخارجية؛ وبدلًا من ذلك، تتقاطع «الآلة – المعلوماتية» الآن مع الجهاز العصبي الاجتماعي، تتفاعل «البيو – آلة» مع الصيرورة الجينية للكيان العضوي البشري.

أعلن البيانُ المستقبلي القيمةَ الجمالية للسرعة. دعمت أسطورة السرعة مجمل بناءِ مُخَيِّلة الحداثة ولعب التسارعُ دورًا محوريًا في تاريخ رأس المال، أي، تاريخ تسارع زمن العمل. الإنتاجية هي عاملُ نموٍ تعاظمِ القيمة المضافة النسبية التي تُحدّدها سرعةُ الإيماءةِ الإنتاجية وتكثيفِ إيقاعها.

بعد تسعةٍ وتسعين عامًا من نشر البيان المستقبلي، انتقلت السرعة من مجالِ الآلات الخارجية إلى مجال المعلومات. وخلال هذه السيرورة أصبحت السرعةُ مُتَمثِّلةً داخليًا وتحولت إلى آليةٍ ذاتية إدراكية - نفسية. في قرن المستقبل، حققت آلةُ السرعة استعمارَ الفضاء الكوكبي؛ وتبع هذا استعمارُها لمجال الزمن، والخبرةِ المُعاشة، والعقل، والإدراك الحسي، الذي صادَقَ على هذا النحو على بداية القرنِ الذي بلا مستقبل.

ينفتح هنا سؤالُ العلاقة بين التوسع اللامحدود للفضاء السيبراني وبين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدود الزمنِ السيبراني، زمنِ العقل والانتباه الاجتماعي. عند نقطة التقاطع الافتراضي للإسقاطات التي يولّدها مُرسِلون لا يُحصَون، يكون الفضاء - السيبراني لا-محدودًا وفي سيرورةِ توسّعٍ متصل. وعلى العكس، فإن الزمن السيبراني، أي، قدرةَ العقل على معالجة المعلومات في الزمن، هي كل شيءٍ باستثناء أن تكونَ لا-محدودة: فحدودها هي حدودُ العقل البشري وبذلك تكون عضويةً، وعاطفية، وثقافية.

بتعرُّض العقل للتسارع اللانهائي للمثيرات - المعلوماتية، يكون رد فعله إما الهلع أو نزع - الحساسية. الحسّ الوجداني هو الملكة التي تتيح الفهم التقمصي، القدرةَ على التقاط ما لا يمكن أن تقوله الكلمات، القدرة على تفسير مُتَّصَلٍ من العناصر غير - الضِمنية، العلاماتِ غير - اللفظية وتدفُّقات التقمُّص. هذه الملكة، التي مكّنت البشرَ من فهم رسائل ملتبسةٍ في سياق العلاقات، ربما تأخذُ الآن في الاختفاء. نحن الآن شهودٌ على تطور جيلٍ من المخلوقات البشرية يفتقرُ إلى الكفاءة في الحس الوجداني، إلى القدرةِ على الفهم التقمّصي للآخر وفكِ شفرة العلامات التي ليست مُشفَّرةً في نسقٍ ثنائي.

نزع الضوابط

حدّدت المستقبليةُ والطليعة لنفسِهما مهمةَ انتهاك القواعد. كان نزع - القواعد هو الميراثُ الذي خلّفه ريمبو Rimbaud لتجريبِ القرن العشرين. كذلك كان نزعُ - الضوابط هو صيحةُ النداء للرأسمالية - المفرطة للحداثة المتأخرة، لتمهّد الطريق لتطور السميورأسمال. خلال الفترة الشموليةِ للآلة الخارجية والسرعة الميكانيكية، بعد أن كانت الرأسماليةُ قد استخدمت شكلَ الدولة لفرض حكمها على المجتمع، قرّرت أن تستغني عن توسُط الدولة في حين أتاحت تقنياتُ إعادةِ التوليف والسرعة المطلقةُ للإلكترونيات للسيطرةِ أن تُصبح مُتَمَثّلةً داخليًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الشكل الكلاسيكي للرأسمالية الصناعية، كان السعر، والأجور، وتذبذبات الأرباح تقوم على أساس العلاقةِ بين زمنِ العمل الضروري وبين تحديدِ القيمة. وبعد إدخال التكنولوجياتِ الإلكترونية المتناهية الصغر وما نتج عنها من إضفاءِ الطابعِ الذهني على العمالة الإنتاجية، دخلت العلاقةُ بين مختلفِ القيم ومختلفِ القوى الإنتاجية فترةً من عدم التحدُّد. وحدّد نزعُ الضوابط، كما أطلقته مارجريت ثاتشر ورونالد ريجان، نهايةَ قانون القيمة وحوَّل انهياره إلى اقتصادٍ سياسي. وفي عمله الرئيسي، **التبادل الرمزي والموت**، يستنتج جان بودريار حدسيًا الاتجاهَ الكلي لتطور نهاية الألفية.

تطابقَ مبدأ الواقعِ مع مرحلةٍ معينة من قانون القيمة. واليوم، سقط النسقُ كله في عدم التحدُّد وجرى امتصاصُ الواقع بواسطة الواقع - المفرط لشفرةِ المُشابهة (1976: 12).

يسقط النسقُ كله في عدم - التحدد فيما لم تعد ساريةً كلُّ التناظرات بين الرمزِ والمرجع، بين المشابهةِ والحدث، بين القيمةِ وزمن العمل. لكن أليس ذلك أيضًا ما طمحت إليه الطليعة؟ ألا يرغبُ الفنُّ التجريبي في قطع الرابطةِ بين الرمزِ والمرجع؟ بقولي هذا، لا أتَّهِمُ الطليعةَ بأنها سبب نزع الضوابط الاقتصادية الليبرالي. إنني، بالأحرى، أقترح أن اليوتوبيا الأناركية للطليعة قد تم تفعيلُها وتحويلُها إلى نقيضِها لحظةَ أن تمثّل المجتمع القواعدَ داخليًا واستطاع رأسُ المال التخلّي عن كلٍ من القانونِ القضائي والعقلانية السياسية ليُسلِم قيادَه للفوضى البادية للآليات الذاتية المُتمَثّلة داخليًا، التي هي فعليًا الشَكلُ الأشدُ جمودًا للنزعة الشمولية.

فيما تضاءل الانضباطُ الصناعي، وجد الأفرادُ أنفسَهم في حالة حريةٍ ظاهرية. لا قانون يُجبرهم على تحمّل الواجبات والتبعية. أصبحت الالتزاماتُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مُتَمَثّلةٌ داخليًا والضبطُ الاجتماعي يُمارس من خلال خضوعٍ اختياريٍ رغم أنه محتومٌ لسلاسلِ الآليات الذاتية.

في نظامٍ من القيم الصُدَفية والمتذبذبة، أصبح التقلقلُ precariousness هو الشكلُ المُعمَّمُ للعلاقات الاجتماعية، ممّا أثّر بعمقٍ في التركيب الاجتماعي والسمات النفسية، والعلائقية، واللغوية لجيلٍ جديد بينما يدخلُ سوقَ العمل. بدل أن يكون التقلقلُ شكلًا خاصًا من العلاقات الإنتاجية، فإنه الروحُ القاتمةُ للعمليةِ الإنتاجية. يدور تدفقٌ لا ينقطعُ من العمل - المعلوماتي الكسري fractal [المفتّت] ومُعيدِ التوليف في الشبكة الكوكبية كفاعلِ إكسابِ القيمة الكلي، لكن قيمته غيرُ قابلةٍ للتحدُّد. الاتصالية والتقلقل هما جانبان لنفس العملة: فتدفق الإنتاج السميورأسمالي يأسِر ويربط بين شذراتٍ خلوية من زمنٍ منزوعِ - الشخصية؛ يشتري رأسُ المال كسورًا من الزمن البشري ويُعيد توليفها في الشبكة. من وجهة نظرِ إكسابِ القيمة الرأسمالي، يكون هذا التدفقُ متواصلًا ويجدُ وحدتَه في الشيءِ المُنتَج؛ لكن، من وجهةِ نظر العمالِ الإدراكيين يكون إمدادُ العملِ مُتشظّيًا: كسورُ زمنٍ وخلايا نابضة من العمل تُوصَّلُ وتُقطَعُ في غرفة التحكّمِ الكبرى للإنتاج الكوكبي. ومن ثم يمكن فصلُ إمدادِ زمن العمل عن الشخصِ المادي والقانوني للعامل. يصبح زمنُ العمل الاجتماعي مُحيطًا من خلايا إكسَابِ القيمةِ يمكن استدعاؤها وإعادةُ توليفها طبقًا لاحتياجات رأس المال.

النشاطية

لنعُد إلى البيانِ المستقبلي: الحربُ واحتقار النساء هما السمتان الجوهريتان للاستنفار، الذي يخترقُ مجملَ أمثولةِ الطلائعِ التاريخية. تمثّل الطموحُ المستقبلي فعليًا في استنفار الطاقاتِ الاجتماعية باتجاه تسريع إنتاجيةِ الآلة الاجتماعية.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

غذّى الفنُ خطابَ الإعلان فيما تغذّى الأخيرُ على الاستنفار. وحين انتقلت الرأسماليةُ الصناعية إلى الشكلِ الجديد للسميورأسمالية، فإنها أولًا وقبل كلِ شيءٍ استنفرت الطاقةَ النفسية للمجتمع لتوجّهها إلى دافعِ المنافسة والإنتاجية الإدراكية. كان الاقتصادُ الجديد لأعوام التسعينات اقتصادَ بروزاك من الناحية الجوهرية، استنفارا - عصبيًا وكذلك إبداعيةً قسرية.

أنتج پول ڤيريليو Paul Virilio أعمالًا هامة تُبين الارتباطَ بين الحربِ وبين السرعة: ففي الأشكال الحديثة للسيطرة، يكون فرضُ الحرب على مجمل الحياة الاجتماعية ضمنيًا بالضبط لأن التنافسية الاقتصادية هي حربٌ، والحربُ والاقتصاد يقتسمان أرضيةً مشتركةً في السرعة.

وكما يكتب ڤالتر بنيامين Walter Benjamin فإن: «كل الجهود لجعل السياسةِ جماليةً تبلغُ ذروتَها في شيءٍ واحد: الحرب». صيرورةُ الحياةِ جماليةً هي جانبٌ واحدٌ من هذا الاستنفارِ للطاقات الاجتماعية. وإضفاءُ الطابعِ الجمالي على الحرب فعّالٌ لإخضاع الحياةِ اليومية لحكم التاريخ. الحرب تُجبرُ الجماهيرَ الكوكبية على المشاركةِ في سيرورة تحقيق - الذاتِ للروح الهيجلي، أو، ربما بصورةٍ أكثر واقعية، على أن تصبحَ جزءًا من التراكم الرأسمالي الكوكبي. أسيرةً في ديناميات الحرب، تكون الحياةُ اليومية مستعدةً للإخضاع لحكمِ السلعة اللامحدودِ.

من وجهة النظر هذه، لا فرقَ بين الفاشية، والشيوعية، والديموقراطية: يعمل الفنُ بوصفه عنصرَ إضفاءِ الطابعِ الجمالي واستنفارِ الحياة اليومية. الاستنفار الكلي هو رعبٌ، والرعبُ هو الشرطُ المثالي للتحقّقِ الكامل للخطةِ الرأسمالية لاستنفار الطاقةِ النفسية. والعلاقةُ الوثيقة بين المستقبليةِ والإعلان هي جزءٌ لا يتجزأ من هذه السيرورة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في **الفن والثورة** (2007)، يكتب جيرارد راونيج **Gerard Raunig** عن العلاقة بين الطليعةِ الفنية والنشاطية. يقدم عملهُ تقريرًا فنومنولوجيًا مفيدًا للعلاقة بين الفن وبين الاستنفار السياسي في القرن العشرين، لكنه يُخفق في التقاط الخاصيةِ النوعية المطلقة للوضع الراهن، أي أزمةِ واستِنفادِ كل نشاطية.

أصبح مصطلحُ «النشاطية»activism واسعَ التأثير نتيجةً لحركة مناهضة -العولمة، التي استخدمتهُ لوصفِ تواصلها السياسي والصلةِ بين الفن والفعل التواصلي. ورغم ذلك، فهذا التعريفُ هو علامةٌ على تعلّقها بالماضي وعدم قدرتها على تحرير نفسها من الإطار المفاهيمي المرجعي الذي ورِثتهُ من القرن العشرين. ألا يجبُ أن نحرّر أنفسَنا من العطش إلى النشاطية الذي غذّى القرنَ العشرين إلى درجةِ الكارثة والحرب؟ ألا يجب أن نتحرّر من المحاولةِ المتكرِّرة والفاشلة للعمل لتحريرِ الطاقات البشرية من حكمِ رأس المال؟ أليس المسارُ صوب الاستقلالِ الذاتي لما هو اجتماعي عن الاستنفارِ الاقتصادي والعسكري ممكنًا فقط من خلال الانسحابِ إلى اللانشاطية، والصمت، والتخريب السلبي؟

اكتئاب لينين

أعتقد أن هناك علاقةً عميقة بين الدافع إلى النشاطيّة وبين الاكتئاب الذكوري للحداثة المتأخرة، يتضح بأفضلِ ما يمكن في التنظيم الإرادي والذاتي النزعة للّينينية. من كلٍ من وجهةِ نظر تاريخِ الحركةِ العمالية في القرن العشرين ووجهة نظرِ الاستقلالِ الذاتي الاستراتيجي للمجتمع عن رأس المال، أجدُني مُقتنعًا بأن القرنَ العشرين كان سيصبحُ قرنًا أفضل لو لم يوجَد لينين. تُفسّرُ رؤيةُ لينين ميلًا عميقًا في تَشكّلِ نفسيةِ الذكورةِ الحديثة. وجدَت النرجسيةُ الذكورية نفسَها في مواجهةِ مع القوةِ اللانهائية لرأس المال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وخرجَت من ذلك مُحبَطةً، ومُهانةً، ومُكتئِبة. ويبدو لي أن اكتئابَ لينين هو عنصرٌ حاسم لفهم الدورِ الذي لعبه فكرُه في تطورِ سياسة الحداثة المتأخرة.

قرأتُ سيرةَ لينين بقلم هيلين كارّير دانكوس Hélène Carrère D'Encausse. والمؤلفة باحثةٌ من أصولٍ جورجية، نشرت كذلك في الثمانينات **الإمبراطورية المفتّتة** L'empire en miettes، الذي تنبأت فيه بانهيار الإمبراطورية السوفيتية كتأثيرٍ لعصيانِ الأصولية الإسلامية.ما أثار اهتمامي في سيرة لينين لكارّير دانكوس أكثر من تاريخِ نشاط لينين السياسي كان حياتَه الشخصية، نفسيتَه الهشّة، وعلاقاتِه العاطفية والفكرية بالنساء القريبات منه: أمه، وشقيقته، وكروپسكايا، الرفيقة والزوجة، التي رعَتهُ في أوقاتِ الأزمات النفسية الحادة، وأخيرًا، إينس آرمان Ines Armand، المُحيِّرة، الغريبة، العشيقةِ التي قرر لينين تحييدَها وإزاحتها، مثل الموسيقى، فيما يبدو. الإطارُ للنفسية الموصوفة في هذه السيرة هي الاكتئابُ وقد تطابقت أزماتُ لينين الأكثر حدّةً مع التحولاتِ السياسية الهامة في الحركة الثورية. وكما تكتب كارير دانكوس:

تعوّد لينين أن يستثمرَ كل ما يفعله بدأبٍ، وإصرارٍ وتركيز استثنائي: هذا الاتساقُ، الذي اعتقَدَ أنه ضروريٌ في كل جهوده، وضعَه في موقعٍ تفوّقٍ كبير على المحيطين به... وكثيرًا ما كان لهذه السمةِ في شخصيته تأثيراتٌ سلبية. فالجهود المفرطةُ الكثافة تُرهِقهُ وتُضعِفُ جهازَه العصبي الهشّ بالفعل. وترجِعُ أولى أزماتِه إلى عام 1902 (1998: 78).

كانت هذه سنواتُ التحوّلِ البلشفي، سنوات كتاب **ما العمل؟** ولعبت كروپسكايا دورًا محوريًا في أزمة رفيقها: تدخّلت لفلترة علاقاتِه بالعالم الخارجي، ودفعت تكاليفَ علاجه وعزله في عياداتٍ بسويسرا وفنلندا. خرج لينين من أزمة عام 1902 بكتابة ما العمل؟ والانخراط في بناء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«نواة من الصلب»، كتلةِ من الإرادةِ قادرةِ على تحطيم الحلقةِ الأضعف في السلسلة الإمبريالية. وحلّت الأزمةُ الثانية عام 1914 في ذروة تفكُّك الأممية الثانية وانشقاقِ الشيوعيين. وحدثت الأزمةُ الثالثة، كما يمكن أن تُخمِّنَ، في ربيع عام 1917. وجدت كروپسكايا ملاذًا آمنًا في فنلندا، حيث تصوّر لينين أطروحاتِ أبريل وقرارَ فرضِ الإرادة على الذكاء: وهي قطيعةٌ أغفلت الديناميات العميقة للصراعِ الطبقي وفرضَت عليها مخططًا خارجيًا. الذكاء اكتئابيّ، ومن ثم فإن الإرادةَ هي العلاجُ الوحيد للهاوية، تجاهُلها دون إزاحتها. بَقيَت الهاوية وكشفتها الأعوامُ التالية، حيث اندفع القرنُ إليها.

هنا لا أعتزمُ مناقشةَ سياسةِ اختياراتِ لينين الجوهرية. فأنا مهتمٌ بإبراز علاقةِ بين النزعةِ الإرادية البلشفية وبين العجزِ الذكوري عن قبول الاكتئابِ وتطويره من الداخل. هنا يكمنُ جذرُ النزعةِ الإرادية الذاتية التي أنتجت انتكاسَ الاستقلالِ الذاتي الاجتماعي خلال القرن العشرين. كانت القراراتُ الفكرية للينينية بالغةَ القوةِ لأنها استطاعت تفسيرَ الهوسِ الذكوري بالنزعةِ الإرادية بينما يُواجهُ الاكتئاب.

الموجة التالية

مع بدايةِ القرن الحادي والعشرين انتهى التاريخُ الطويل للطليعة الفنية. بدءً من عمل فاجنر Wagne الفني الشامل(1) Gesamtkunstwerk وما نتجَ من الصيحةِ الدادائية «ألغوا الفنّ. ألغوا الحياةَ اليومية. ألغوا الانفصال بين الفن والحياة اليومية». يبلغُ تاريخُ الطليعةِ ذروتهُ في إيماءة الحادي عشر من سبتمبر. كانت لدي ستوكهاوزن Stockhausen الشجاعة لقولِ هذا، بينما كان الكثيرون منا يفكرون نفسَ الشيء: الانتحارُ الإرهابي هو العملُ الفني الشامل للقرنِ الذي ليس له مستقبل. فاندماج الفنِ والحياة (أو الموت،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما الفرق؟) ظاهرٌ بوضوحٍ في شكلِ الفعل الذي يمكن أن نسمّيه «الانتحار الإرهابي». لنأخذ كمثال بيكّا أوفينن(2)Pekka Auvinen. فقد أتى الصبي إلى فصله في المدرسة ببندقيةٍ آلية، فقتل ثمانية أشخاص، بمن فيهم نفسه.

كان مطبوعًا على التي شيرت الذي يرتديه عبارة: «البشرية مُبَالغٌ في قيمتها». ألم تكن إيماءتُه حُبلَى بكل العلاماتِ النمطية للفعل التواصلي للفنون؟

دعوني أوضِّح: أنا لا أدعو القرآء الشباب لهذا المقال أن يذهبوا إلى مكانٍ مزدحم بحزامٍ ناسف. أنا أحاولُ أنْ أقول، انتبهوا: فموجة يأسٍ هائلة يمكن أن تتحولَ بسرعةٍ إلى وباءٍ انتحاري سيُحوّلُ الجيلَ الاتصالي الأول إلى قنبلةٍ نفسيةٍ ساحقة.

لا أعتقدُ أن هذه الموجةِ من الانتحارات يمكن تفسيرُها على أساس الأخلاقِ، وقيم العائلة، والخطابِ الضعيف الذي يستخدمُه الفكرُ المحافظ ليعلِّل الانجرافَ الأخلاقي الذي تُنتجهُ الرأسمالية. فكي نفهمَ الشكلَ المعاصر للحُطام الأخلاقي نحتاجُ إلى التأمل في تحوّلاتِ النشاط والعمل، في إدراج زمنِ العقل تحت المجالِ التنافسي للإنتاجية؛ علينا أن نفهمَ التغيّر في النسق الإدراكي والنفسي - الاجتماعي.

الاقتران/ الاتصال

سياقُ فهمي للديناميات التاريخية والثقافية الراهنة هو الانتقالُ من مجال الاقترانِ conjunction إلى مجال الاتصال connection، مع تركيزٍ خاصٍ على ظهور الجيل الاتصالي الأول، أولئك الذين يتعلمون من الآلةِ كلماتٍ أكثر مما يتعلمون من الأم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في هذا الانتقال، يجري تغيّرٌ في الكيان العضوي الواعي: ولجعل هذا الكيانِ العضوي متساوقًا مع بيئةٍ اتصالية، يحتاج نسقنا الإدراكي إلى إعادة تشكيل reformatted. ويبدو أن هذا يُولّدُ تبلّدًا لملكاتِ الاقتران التي ميّزت الوضعَ الإنساني حتى الآن.

ينخرط مجالُ الحس الوجداني في هذه السيرورة الجاريةِ لإعادة التشكّل الإدراكي؛ نرى أن الفكرَ الجمالي ينغرس في مُفترق. كذلك يُعيد الفكرُ الأخلاقي والسياسي تشكيلَ نقطةِ مراقبته وإطاره حول الانتقالِ من شكلٍ اقتراني إلى شكلٍ اتصالي للتسلسل البشري.

الاقتران هو الصيرورةُ آخرَ. وفي المقابل، في الاتصال يظلُّ كل عنصرٍ متميزًا ويتفاعلُ على نحوٍ وظيفيٍ فقط.

التفرّدات تتغيّر حين تدخلُ في اقتران؛ تصبح شيئًا آخر عمّا كانت قبل اقترانها. الحب يُغيّرُ العاشقَ وتُفسِح توليفةٌ من العلامات غير - الدالة المجالَ لانبثاقِ معنىً لا يوجدُ قبله.

وبدلًا من اندماجِ الشرائح، يستلزمُ الاتصالُ تأثيرًا بسيطًا لوظيفيةٍ آلاتية. من أجل الاتصال، لا بد للشرائح أن تكون متسقةً ومفتوحةً للدخول في واجهاتٍ مشتركة interfacing وتشغيليةٍ متبادلة. يتطلّبُ الاتصالُ أن تكون هذه الشرائح متسقةً لغويًا. وفي الحقيقة تنتشرُ وتتسع الشبكةُ الرقمية بالاختزال المتزايد لعناصر أكثر فأكثر إلى شكلٍ format، إلى معيارٍ قياسي وشفرةٍ يجعلان الشرائحَ المختلفة متسقة.

تنتمي الشرائحُ التي تدخل هذه الريزومة إلى مجالاتٍ ذات طبيعةٍ مختلفة: إنها إلكترونيةٌ، وسميوطيقية، وآلاتية، وبيولوجية، ونفسية؛ دوائر ألياف ضوئية، وتجريداتٌ حسابية، وموجات كهرومغناطيسية، وعيون بشرية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومراكز عصبية واقترانات صِبغية [للكروموسومات]. والسيرورة التي تُصبح بها متسقةً جميعها تخترقُ مجالاتٍ متنافرة للوجود وتطويها إلى مبدإ للاتصالية.

يحدث التحوُّلُ الراهن في هذا الانتقالِ من الاقتران إلى الاتصال، وهو نموذجٌ معياري للتبادل بين الكيانات العضوية الواعية. والمحوري في هذا التحول هو إقحامُ ما هو إلكتروني فيما هو عضوي، توالدُ الأدواتِ الاصطناعية في الكونِ العضوي، في الجسم، وفي الاتصال، وفي المجتمع. ومن ثم، تتحول العلاقةُ بين الوعي وبين الحس الوجداني ويخضع تبادلُ العلامات لسيرورة نزعٍ - حساسيةٍ متزايدة.

الاقتران هو التقاءُ واندماج أشكالٍ مستديرةٍ وغير منتظمة تتمازج بطريقةٍ غير دقيقةٍ، غير قابلةٍ للتكرار، غير مكتملةٍ، ومستمرة. والاتصال هو التفاعلُ الدقيق والقابلُ للتكرار لوظائف خوارزميةٍ، خطوطٌ مستقيمةٌ ونقاط تتناظر تمامًا وتُغرَسُ وتُزاحُ بأنماطِ تفاعلٍ رصينة. وهذه الأنماط الرصينة تجعل الأجزاء المختلفة متسقةً مع معايير موضوعةٍ سلفًا.

تؤدي رقمنةُ سيرورات الاتصال من جهةٍ إلى نوعٍ من نزعٍ - الحساسية للمُنحنَى وإلى تدفقات متصلة من الصيرورة البطيئة، ومن جهةٍ أخرى إلى الصيرورةِ حسّاسًا للشفرةِ، للتغيراتِ المفاجئة في الحالات ولتتابع العلامات الرصينة.

يتبع التفسيرُ معاييرَ سيمانطيقية في مجال الاقتران: فمعنى العلامات المُرسلة من الآخر بينما يدخلُ في اقترانٍ معك بحاجةٍ إلى فهمها بتتبع القصدِ، والسياق، والظلال، والمسكوتِ عنه، إذا لزم الأمر.

ومن الجهة الأخرى، فإن المعاييرَ التفسيرية لمجال الاتصال صرفيةٌ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

syntactic خالصة. في الاتصال، يجب على المُفسّر أن يتعرّفَ على تتابعٍ ويكونَ قادرًا على أداءِ العملية التي يتطلبها الصرف syntax العام أو النسقُ التشغيلي؛ لا مكان لهوامشِ الالتباس في تبادل الرسائل، كما لا يمكن إظهارُ القصدِ بواسطة الظلال.

هذا التحول يُنتج تأثيراتٍ مؤلمة في الكيان العضوي الواعي ونقرأها من خلال مقولاتِ المرض النفسي: عُسر القراءة، والقلق والفتور، والهلع، والاكتئاب، وينتشر نوعٌ من الوبائيات الانتحارية.

إلاّ أن التقريرَ المرضي - النفسي الخالص يُخفِقُ في التقاط المسألة في عمقها، لأننا في الحقيقة في مواجهة جهدِ الكيان العضوي الواعي للتوافقِ مع بيئةٍ متغيّرة وإعادة تكيفِ النسق الإدراكي للبيئة التكنو - اتصالية. هذا يُولّدُ أمراضًا للدائرة النفسية وفي العلاقات الاجتماعية.

Telegram:@mbooks90

والإدراك الحسي الجمالي -مفهومًا هنا على أنه مجالُ الحس الوجداني والحساسية الجمالية aesthesia- منخرطٌ مباشرة في هذا التحول: ففي محاولته للدخول في واجهةٍ مشتركة مع البيئة الاتصالية، يبدو أن الكيان العضوي الواعي يكبِتُ بصورةٍ متزايدة ما نسميه الحسّ الوجداني.

نعني بالحسّ الوجداني الملكةَ التي تُمكن الكائنات البشرية من تفسير علاماتٍ ليُست لفظية ولا يمكن جَعلُها كذلك، القدرة على فهم ما لا يمكن التعبيرُ عنه في أشكالٍ لها تصريفُ syntax متناهٍ. هذه الملكة تُظهِرُ أنها بلا فائدة وحتى ضارةٌ في نسقٍ اتصالي متكامل. فالحس الوجداني يُبطئ سيروراتِ التفسير ويجعلُها صُدَفيةً ومُلتبِسة، وبذلك يختزلُ الكفاءةَ التنافسية للوسيط السميوطيقي.

كذلك فإن المجال الأخلاقي حيث يكون الفعلُ الإرادي ممكنًا يلعبُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دورًا جوهريًا في إعادة تشكيل النسق الإدراكي. يتحسّر السوسيولوجيون الدينيون والصحفيون على نوعٍ من افتقاد الحساسية الأخلاقي ولامبالاةٍ عامة في سلوك الأجيال الجديدة. وفي حالاتٍ كثيرة، يتحسّرون على أفول القيم الإيديولوجية أو روابط الجماعة النوعية.

ورغم ذلك، فلكي نفهم عدمَ الارتياح الذي يُغلّفُ مجالي الأخلاق والسياسة، نحتاجُ إلى التشديدِ على الجماليات. إذ يبدو أن الشّلَلَ الأخلاقي والعجزَ عن السيطرةِ أخلاقيًا على الحياة الفردية والجماعية ينبُعان من عدم الارتياح في الحس الجمالي -الإدراكِ الحسي للآخر وللذات.

الشِعر اليوتوبي المعكوس (الديستوبي)

فضّلت فنونُ القرن العشرين سِجِل اليوتوبيا في شكلين: اليوتوبيا الراديكالية عند مایاكوفسكي Majakovski واليوتوبيا الوظيفية لـ[مدرسة] الباوهاوس(3) Bauhaus. وظل الخيطُ الديستوبي مخفيًا في طيات المخيلة الفنية والأدبية، لدى فريتز لانج Fritz Lang، والتعبيرية، ونوعٍ من السوريالية المُرّة يكمنُ تحت مجال الرؤية الذي يربط سلفادور دالي Salvador Dali بفيليب ديك Philip Dick. وفي النصف الثاني من القرن العشرين ازدهرت الديستوبيا الأدبية لدى أورويل Orwell، وبوروز Borroughs، وديليلو Delillo. واليوم فقط، عند بداية القرن الحادي والعشرين، تحتل الديستوبيا مركز الصدارة وتغزو مجملَ مجال المخيلة الفنية، وترسُم بذلك الأفقَ السردي للقرن الذي بلا مستقبل. في تعبير الشعر المعاصر، وفي السينما، والفيديو - آرت، والروايات، تتوالد علاماتُ وباءٍ من المرض النفسي.

في فيديوهاتها، تسرد إليا ليسا أتيلا Elija Liisa Athila **(الريح، لو أن**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6 كانت 9، آن أكي والرب) الأمراضَ النفسية للعلاقات، العجز عن أن تَلمسَ وتُلمَس. وفي فيلم **أنا وأنت وكل من نعرف** تحكي ميراندا جولي Miranda July قصةَ فنانةٍ فيديو تقع في حبِ شابٍ وصعوبةَ ترجمةِ العاطفة إلى كلماتٍ والكلماتِ إلى لمَسٍ. اللغة منفصلةٌ عن الوجدانية. اللغة والجنسُ يتباعدان في الحياة اليومية. يجري الحديثُ عن الجنس في كل مكان، لكن الجنس لا يتحدثُ أبدًا. والأقراص تُعجِّلُ الانتصابَ لأن زمنَ المداعبة محدود.

هناك فيلمٌ أخرجه چيا زانج ـ كى Jia Zhang-Ke، بعنوان **طبيعة صامتة** (Sanxia haoren) وأنتج في هونج كونج عام 2006، يبين خرابًا متزايدًا. هذا الفيلم جميلٌ بشكلٍ استثنائي ويحكي قصةً بسيطة، على خلفيةِ صينٍ حزينة، ومنبوذةٍ ومُخرَّبة، في المشاهدِ وفي روحها. واللونُ السائد هو أخضرٌ بنفسجي، عطن، ومائلٌ إلى الرمادي.

يعود هوو سانمينج Huo Sanming إلى مسقط رأسه على أمل أن يعثرَ على زوجتهِ وابنته، اللتين تركهما قبلها بأعوامٍ ليذهب للعمل في منجمٍ شمالي بعيد. قريته، الواقعة على ضفة نهر اليانجتسي، لم تعد موجودةً. فقد محا إنشاءُ سدِّ الفوّهات الثلاث قرىً عديدة. كانت المنازلُ، والناس، والشوارع قد غمرَها الماء. يتقدم بناءُ السد، ويستمر دمارُ القرى ويواصل الماءُ الارتفاع. يصل هوو سانمينج في هذا السيناريو للخراب والماء المرتفع ولا يستطيعُ العثورَ على زوجته وابنته؛ وهكذا يبدأ البحث. يُفتِّش عنهما بينما تأخذ مجموعاتٌ من العمال مُسلَّحين بالمعاول في هدم الجدران، فيما تهدم المتفجراتُ المباني في المركز الحضري.

وبعد محاولات بحثٍ طويلة يجدُ زوجته أخيرًا، كانت قد تقدَّمت في السن وباعها شقيقُها لرجلٍ آخر. يتقابلان في غرف بناءٍ يجري هدمُه ويتحدثان عن ابنتهما همسًا، خافِضي الرأس، ووراءهما خلفيةُ سفينةِ فضاءٍ خضراء داكنة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الطوبِ والحديد تُبقِّع سماءً بلون البراز. وفي المنظر الأخير من طبيعة صامتة، يمشي سائرٌ على الحبل من سطح منزلٍ إلى اللاشيء، على خلفيةٍ تستدعي السوريالية المرّة للوحات دالي. **طبيعة صامتة** هو تقريرٌ غنائي عن الرأسمالية الصينية، بالمقلوب، من وجهة نظر حياةٍ غارقة.

أما **تصحيحات**، رواية چوناثان فرانزن Jonathan Franzen، فتتحدثُ عن التوافقات النفسية - الصيدلانية باعتبارها التصحيحاتِ التي تستخدمها بشريةٌ خرَّبها الاكتئاب والقلق لتتوافق مع وجودٍ لا بد أن يتظاهر بأنه سعيدٌ. التصحيحاتُ هي التوافقُ مع سوقِ أوراقٍ ماليةٍ متقلّبة لتجنُّب خسارة الأموال المُستثمَرَة في صناديقِ معاشاتٍ خاصةٍ يمكنُ أن تختفي فجأةً.

يحكي فرانزن عن شيخوخة أبٍ وأم، زوج من العجائز من الغرب الأوسط أصابهما الخرفُ نتيجة عقودٍ من العمل - المفرط والامتثال. والتصحيحات هي الانزلاقاتُ الصغيرة والتي لا تتوقّف باتجاه نقطة النهاية، رعبُ الشيخوخةِ في حضارة المنافسة، رعبُ الجنسانية في عالم الكفاءة البيوريتانية.

نُشرت تصحيحات عام 2001: يحفر فرانزن عميقًا في طيّات النفس الأمريكية ويصف بتفاصيل دقيقةٍ ابتذالَ العقل الأمريكي، الاكتئاب والخرَف الناتجين عن تعرّضٍ طويلِ الأمد للقصف النفسي للإجهادِ من العمل، والفتور، وذهان التشكك، والنفاقِ البيوريتاني، والصناعةِ الصيدلانية حولهما، التحلُّل النفسي للناس المحبوسين في قوقعة زُهاب الأماكن الضيقة للحماية الاقتصادية المفرطة، طفولية شعبٍ يتظاهر بأنه يُصدّق، أو ربما يصدّق فعلًا خرافة عيد الميلادِ المقيتة للقسوة الليبرالية المتعاطفة. فعند نهاية عشاء عيد الميلادِ الذي طالَ انتظاره، بينما تجتمع بسعادةِ العائلة المريضة نفسيًا، يحاول الأبُ أن ينتحر بإطلاق الرصاص في فمه. لكنه لا ينجح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبدأ **ياكيزاكانا نو أوتا Yakizakana no Uta** بسمكةٍ في لفافة سيلوفان على رفٍ في سوبرماركت. يمسكها صبي ويأخذها إلى خزانة التحصيل، يدفعُ، ويُغادر، ويضعها في سلّة الدراجةِ ويتّجِه إلى الدار.

«صباح الخير يا سيدي الطالب، أنا سعيدةٌ جدًا بأن أكون معك. لا تقلق، أنا لستُ سمكةً تشتكي»، تقول السمكةُ بينما يُبدِّل الطالبُ بخفةٍ متجهًا إلى منزله. 'من اللطيف التعرُّفُ على كائنٍ بشري. أنتم كائناتٌ استثنائية؛ أنتم تقريبًا سادةُ الكون. ولسوء الحظ لستُم دائما مُسالمين، أودُّ أن أعيشَ في عالمٍ مسالم يحبُ فيه الجميع بعضهم بعضًا و يتصافحُ فيه حتى البشرُ والأسماك. آه، لطيفٌ جدًا أن أرى الغروب، أحبه كثيرًا»، تصبح السمكة عاطفيةً وتقفزُ في كيس السيلوفان داخل السلة.

«أستطيع سماع صوت جدولِ ماء ... أحبُ صوتَ الجداول، يُذكّرني بشيءٍ من طفولتي».

حين يبلغان المنزل يفكُّ الصبي لفافةَ السمكة ويضعها في طبق، وينثرُ فوقها القليلَ من الملح، وفيما تُثارُ السمكة وتقول «آه! أحبُ الملح كثيرًا، إنه يُذكّرني بشيءٍ...». يضعها الصبيُ على الشواية في الفرن ويُدير الزرَّ.

تواصل السمكة الثرثرة: «آه يا سيدي الطالب الأمر لطيفٌ هنا، يمكنني أن أرى ضوءًا إلى أسفل .. أحس بالحرارة ... الحرارة ...» حتي يصبح صوتُها متردّدًا. تبدأ في غناءِ أغنية، تزدادُ وهنًا وتفككًا، مثل آل في أوديسا الفضاء بينما يتم نزعُ أسلاكه.

ربما كان **ياكيزاكانا نو أوتا**، من إخراج **يوسوكي ساكاموتو Yusuke Sakamoto**، الأشدَّ وطأةً بين أفلام التحريك التي رأيتها في يونيو 2006 في كايشا فوروم ببرشلونة، خلال مهرجان حكاياتِ تحريك. لكنني استشعرتُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نغمةً مشتركة تجري خلال كل الأعمال المقدمة في المهرجان، نغمة كلبيةٍ متهكمة، إذا سمحتم لي بهذا التعبير. إذ يقص **مكان في الزمن** من إخراج ميجيل سوارس Miguel Soares ملايين السنين من وجهة نظر قملةٍ غير معقولة، حشرةٍ عضوية، بينما يتغير العالمُ حولها. أما **حيوانات مصاحبة** من إخراج روث جومس Ruth Gomes فيستخدم صورًا متوحشةً ليحكي قصةَ جيلٍ من أكلة البشرِ الحسني الهندام، وحوشٍ شابة بربطات العنق، يَغدون ويعدون ليتجنّبوا أن يمسك بهم رفاقٌ، وزملاء، وأصدقاء، وعشاق يجرحونهم، ويقتلونهم، ويأكلونهم فورَ أن يقعوا في قبضتهم، بابتساماتٍ مرعوبة وعيونٍ فاغرة.

هذا الفن ليش شجبًا. فمصطلحات «**الشجب**» و«**الالتزام**» لم يغد لها معنى حين تكونَ سمكةٌ تُعدُّ للطهو.

لم يعد لفن القرن الحادي والعشرين ذلك النوعُ من الطاقة، رغم أنه يواصلُ حتى استخدام تعبيرات القرن العشرين، ربما بدافع التواضع، ربما لأنه خائفٌ من حقيقته الخاصة. لم يعد الفنانون يبحثون عن الطريق لقطيعةٍ، وكيف يمكنهم؟ إنهم يبحثون عن مسارٍ يقودهم إلى حالة اتزانٍ بين التهكم والكلبية يتيحُ لهم تعليقَ الإعدامِ، للحظةٍ على الأقل.

هل الفن هو إرجاءُ الهولوكوست؟

انتقلت كلُّ الطاقة إلى جبهة الحرب.

الحسُّ الوجداني الفني يُسجِّل هذا الانتقالَ وهو عاجزٌ عن معارضته.

(1) العمل الفني الشامل: هو عمل فني يطمح إلى استخدام كل الأشكال الفنية من أجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إخضاعها لغايةٍ واحدة. طوّر المصطلح الفيلسوف الألماني ك. ف. إي تراندورف عام 1827 ثم استخدمه فاجنر عام 1849 وارتبط خصوصًا بأفكاره الجمالية للجمع بين الموسيقى والدراما والمشهد والرقص إلخ. طبّق الاسم في القرن العشرين على العمارة والفيلم والميديا.

(2) بيكا أوفينين: طالب فنلندي في الثامنة عشرة، وواحد من سلسلة مرضى نفسيين نفذوا حوادث دامية. دخل مدرسة يوكيلا العليا في 7 نوفمبر 2007 حاملًا مسدسًا نصف آلي فقتل ثمانية وجرح 12 آخرين قبل أن يطلق الرصاص على نفسه.

(3) الباوهاوس: مدرسة فن ألمانية عملت بين عامي 1919 و1933 وجمعت بين الحرف والفنون الجميلة. اشتهرت بتوحيدها بين الرؤية الفنية الفردية وبين مبادئ الإنتاج بالجملة وجاهدت للجمع بين الجماليات والاستخدامات اليومية. أسسها فالتر جروبيوس في فايمار على أساس فكرة خلق العمل الفني الشامل وضمت فنانين بارزين أمثال باول كلي وفاسيلي كاندينسكي ولازلو موهولي - ناجي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

08. ما بعد- المستقبَليّة

منذ مائة عام، على صفحةِ غلاف مجلة **لو فيجارو** Le Figaro، من أجل الوعيِ الجمالي للعالم، نشر فيليـپو تومَازو مارينيتي البيانَ الذي استهلَّ القرن الذي كان يؤمنُ بالمستقبل. في عام 1909 سرعان ما أطلق البيانُ سيرورةً أصبح فيها الكيانُ العضوي الجماعي آلاتيًا. وقد بلغت هذه الصيرورةُ ـ آلةً ختامَها مع تسلسلاتِ الشبكة الكوكبية وقد أطاح بها الآن انهيارُ النظام المالي القائم على الترحيل المستقبلي futurization للاقتصاد، والدَين والوعد الاقتصادي. انتهى هذا الوعد. لقد بدأت حقبةُ ما بعد - المستقبل.

بيان ما بعد المستقبلية

فرانكو «بيفو» بيراردي

قرأه إبداعيًا بالإنجليزية إريك إمـپـسون وآريانا بوڤيه

1. نُريدُ أن نتَغنّى بخطرِ الحب، بالإبداعِ اليومي لطاقةِ عذبة لا تتَشتّتُ أبدًا.

2. ستكون العناصرُ الجوهرية لشِعرِنا التهكمُ، والرقةُ، والتمرّد.

3. مجّدَت الإيديولوجيا والإعلانُ الاستنفارَ الدائم للطاقاتِ الإنتاجيةِ والعصبية للبشريةِ باتجاه الربحِ والحرب. ونحن نُريدُ أن نُمجّدَ الرّقةَ، النعاسَ والنشوة، زُهدَ الاحتياجات ومُتعةَ الحواس.

4. نُعلنُ أن بهاءَ العالم قد أثراهُ جمالٌ جديد: جمالُ الاستقلالِ الذاتي. كلٌّ بإيقاعهِ الخاص؛ لا يجب إجبارُ أحدٍ على السيرِ بخطوٍ مُوحّدٍ. فقَدت السياراتُ إغواءَ النُدرةِ وفي المقام الأولِ لم تعُد تستطيعُ القيامَ بالمهمة التي تم تَصوُّرها من أجلها: السرعةُ قد أبطأت. السياراتُ بلا حراكٍ مثل سلحفاواتٍ غبيةٍ ناعسةٍ في حركة مرورِ المدينة. البطءُ وحدَهُ سريعٌ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5. نريد أن نَتغنّى بالرجلِ والمرأة اللذين يُلاطفان بعضَهما ليعرفا بعضَهُما والعالمَ أفضل.

6. الشاعر يجب أن يَبذُلَ نفسَه بحرارةٍ وسخاءٍ لزيادةِ سلطةِ الذكاءِ الجماعي وتقليلِ زمنِ العمل المأجور.

7. الجمالُ لا يوجدُ إلّا في الاستقلالِ الذاتي. لا عملَ يُخفقُ في التعبير عن ذكاء المُمكنِ يمكنُ أن يكونَ رائعًا. الشعر جسرٌ ممدودٌ فوق هاويةِ العدمِ ليُتيحَ تشاركَ مُخيّلاتٍ مختلفة ويُحرّر التفرّداتِ.

8. نحن على أقصى حافةِ القرون.. لا بد أن ننظُر إلى الوراء لنتذكّر هاويةَ العنفِ والرعبِ الذي تستطيع العدوانيةُ العسكرية والجهل القومي أن تستحضِرهُ عند أية لحظةٍ في الزمن. لقد عِشنا في الزمنِ الراكِد للدين أطولَ مما ينبغي. وصارت السرعةُ الكلّيةُ الحضورِ والأبديةِ خلقَنا بالفعل، في الإنترنت، وبذلك يمكننا أن ننسىَ قوافيها المُرَخّمة ونعثرَ على إيقاعِنا الفريد.

9. نودّ أن نسخرَ من الحمقى الذين ينشُرونَ خطابَ الحرب: مُتعصّبي المنافسة، مُتعصّبي الآلهةِ المُلتَحِية الذين يُحرِّضون على المذابح، المتعصّبين الذين تُرعبهم أنثويةُ نزعِ السلاح التي تُزهِرُ فينا جميعًا.

10. نطالبُ بأن يتحوّل الفنُ إلى قوةِ تغييرٍ للحياة. نسعى لإلغاءِ الانفصالِ بين الشعر والاتصال الجماهيري، لاستعادةِ سلطةِ الميديا من التجّار وإعادتها إلى الشعراء والحكماء.

11. سنتغنّى بالحشودِ الضخمة التي تستطيعُ أخيرًا تحريرَ نفسها من عبوديةِ العمل المأجور وتتمرّدَ من خلال التضامن ضد الاستغلال. سنتغنّى بالشبكةِ اللامتناهية للمعرفةِ والابتكار، بالتكنولوجيا اللامادّية التي تُحرّرُنا من العناءِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البدني. سنتغنّى بالكوجنيتاريا [الإدراكيتاريا] المتمرِّدة التي على اتصالٍ بجسدها. سنتغنّى بلانهائيةِ الحاضر ونتخلّى عن وهمِ المستقبلِ.

بيان المستقبلية

لو فيجارو - 20 فبراير، 1909 (ترجمة ر. و. فلينت)

1. نعتزمُ أن نتغنّى بحبِ الخطر، بعادةِ الطاقةِ والجسارة.

2. الشجاعةُ، والإقدام، والتمرّد ستكون عناصرَ جوهريةً لشعرنا.

3. حتى الآن مَجّد الأدبُ سكونًا تأمليًا، ونشوةً، ونعاسًا. ونحن نعتزمُ تمجيدَ الفعلِ العدواني، والأرقِ المحموم، وخطوِ المتسابق، والقفزةَ القاتلة، اللّكمةَ والصّفعة.

4. نؤكّدُ أن روعةَ العالمِ قد أثراها جمالٌ جديد: جمالُ السرعة. سيارةُ السِباق التي تُزَيِّنُ غطاءَها أنابيبُ ضخمة، كأفاعٍ ذات نَفَسٍ مُتفَجّر - السيارةُ الهادرة التي يبدو أنها تنطلقُ فوق قنبلةٍ عنقودية أجملُ من **نصر ساموتراقيا***.

5. نريدُ أن نترنّمَ بالرجلِ على عجلة القيادة، الذي يُطلقُ حربَة روحهِ عبر الأرض، على طول دائرةِ مدارها.

6. الشاعر يجب أن يبذل نفسه بحَمِيّةٍ، وبهاءٍ، وسخاء، ليُفعِمَ باتّقادٍ حماسيٍ العناصرَ الأصلية.

7. باستثناء النضالِ، ليس ثمةَ جمالٌ آخر. لا عملَ دونَ طابعٍ عدوانيٍ يمكن أن يكون رائعًا. يجب إدراكُ الشعرِ كهجومٍ عنيفٍ على قوىً مجهولةٍ، ليصرَعَها ويُمَدِّدَها أمام الإنسان.

8. نقفُ على آخرِ حافةِ القرون! لماذا يجبُ أن ننظُرَ إلى الوراء، بينما ما نُريدُه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو أن نُحطّم الأبوابَ السحرية للمستحيل؟ بالأمس ماتَ الزمنُ والفضاءُ. نحنُ نحيا بالفعل في المطلقِ، لأننا قد خلقنَا السرعةَ الأبدية، الكلّيةِ الحضور.

9. سنُمجّدُ الحربَ - صحّةَ العالمِ الوحيدة - النزعةَ العسكرية، الأفكارَ الجميلة التي تستحقُ الموتَ من أجلها، واحتقارَ المرأة.

10. سنُدمّرُ المتاحفَ، والمكتباتِ، والأكاديمياتِ من كل نوع، سنحاربُ النزعةَ الأخلاقية، والنسَوِيةَ، وكلَّ جُبنٍ انتهازي أو نفعي.

11. سنتغنّي بالحشودِ الضحمة التي يُثيرها العملُ، والمتعةُ، والشغب؛ سنتغنّى بموجاتِ المدِّ المُتعدّدةِ الألوان، المُتعدّدةِ الأصواتِ للثورةِ في العواصم الحديثة؛ سنتغنّى بالاتّقادِ الليلي النابضِ للترساناتِ ووِرَشِ السُفن التي تَضوي بأقمارٍ كهربائيةٍ عنيفة؛ بمحطاتِ القطاراتِ النَهِمة التي تلتهمُ أفاعي مُجنّحةٍ بالدُخان؛ بالمصانعِ المُعلّقةِ بالسحبِ بواسطة الخطوطِ المُلتَويةِ لدخانها؛ بالجسورِ التي تخطو فوق الأنهارِ مثل رياضيينَ عمالقة، وهي تلتَمعُ في الشمس بوميضِ السكاكين؛ بالبواخرِ المُغامرةِ التي تستنشقُ الأفقَ؛ بالقاطراتِ البُخارية العميقةِ ـ الصَدرِ التي تضربُ عجلاتُها المساراتِ مثل حوافرِ أحصنةٍ هائلةٍ من الصُلبِ تُلجِمُها المواسير؛ وبالتحليق المصقولِ للطائرات التي تصطَكُّ مراوحها في الريح كالأعلامِ وتبدو أنها تصيحُ كحشدٍ مُتحمّس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مُعجَم

الآلية الذاتية

Automatism

نتحدثُ عن الآلية الذاتية في كل مرةٍ يبدو فيها تتابعُ حالتين للوجود (للغة، وللمجتمع، وللفعل) كسلسلةٍ واحدةٍ لا فكاكَ منها: كتضمينٍ واحدٍ من نمطٍ منطقي، وكتتابعٍ واحد يتحدَّدُ منطقيًا. وفي التاريخ السياسي لعصرنا أصبح الشعورُ بأن المرءَ يجُد نفسَه مأخوذًا في سلسلة من الآليات الذاتية يزداد قوةً. يتولّدُ لدينا الانطباعُ أكثر فأكثر بأن القرارَ السياسي لا يُساوي شيئًا وأنه قاصرٌ على التسجيلِ المخلص وإعادةِ إنتاج الخطوطِ التي أقامتها سلسلةُ الآلياتِ الذاتية المُدمَجةِ في الآلة الاجتماعية. في العصر الحديث، بدا أن العملَ السياسي قادرٌ على تعديلِ مسارِ الأحداث، ليفتحَ منظوراتٍ جديدة، ويقطعَ أو يقلبَ الشروطَ الاجتماعية القائمة. واليوم تُعلّمنا الخبرة أن **قوة** potenza السياسيةِ هذه قد تحلّلت. يكون الفرقُ ضئيلًا جدًا بالنسبة للنشاطِ التشريعي، وللعمل والتنظيم الاقتصادي، ما إذا كانت في الحكومة قوىً سياسيةٌ من اليمين أو من اليسار. فحكمُ الاقتصاد، الدينامياتُ المجرّدة للنمو، والواجبُ المطلق للمنافسة يسودان كقانونٍ أسمي من الإرادة الإنسانية. الآلية الذاتيةُ الاقتصادية هي الدوجما التي يتزلّفُ لها من يريدون الحصولَ على السلطة السياسية، من كلٍ من ائتلافات اليمين واليسار. لكن الدوجمائية الاقتصادية السائدة للزمن الراهن ليست نتيجةً للامتثالِ فحسب. فامتثالُ السياسيين هو جزءٌ لا يتجزأ منها، لكنه ليس العنصرَ الجوهري. العنصرُ الجوهري منقوشٌ بعمقٍ في مِعمار الآلياتِ الذاتية التكنولوجية، والمالية، والاقتصادية، والنفسية التي تُبَنيِنُ سلوكَ الفاعلين البشر بطريقةٍ لا فكاك منها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكوجنيتاريا[الإدراكيتاريا]

Cognitariat

في العصر الصناعي كانت كلمة «البروليتاريا» proletariat تُشير إلى طبقة من ليس لديهم ملكيةٌ سوى prole (الأبناء) وقوةِ سواعدهم. وبسبب عدم امتلاكهم أي ملكيةٍ كان البروليتاريون مُجبَرين على قبولِ شرط عملٍ مأجور، هو شرطُ خدمةِ مدى الحياة واستغلالٍ منهجي. وفي دائرة السميورأسمال، تتكون طبقةُ المنتجين في أغلبها من أناسٍ ليست لديهم ملكيةٌ سوى قدرتهم الإدراكية: طاقة عصبية مُعبَّرٍ عنها في شكل إبداعيةٍ ولغةٍ. عندما تبدأ القدراتُ الإدراكية في العمل، فإن دورَها العيني وقيمتَها الاستعمالية (المعرفة، والتعبير، والاتصال) يتم إخضاعُها للغرض الاقتصادي لزيادة رأس المال. تُحوِّل تكنولوجيات المعلومات كلَّ سيرورةٍ إلى تبادلٍ للعلامات، والكوجنيتاري هو من يُنتج السلعَ من خلال فعل اللغة. ينطوي هذا على نزعِ مِلكية ما هو إنساني بأشدِ الصور حميمية: اللغة. ومن ثم تنفصلُ اللغة عن الحياة اليومية، عن الجسمانيةِ والوجدانية، لتصبح أسيرةً لرأس المال. النشاط الإدراكيّ منفصلٌ عن وظيفته الاجتماعية وعن جسمانيته. وهذا الانفصالُ يؤسسُ الشكلَ النوعي لاستلابِ العمل الإدراكي. الكوجنيتاريا هي «بروليتاريا إدراكية»: هي طبقةٌ اجتماعية لمن يَخْبَرون هذا الانفصال.

تعميم التساوق

Compatibilization

كل فاعلٍ حساس يجب، حتى يصبح إنتاجيًا وتشغيليًا، أن يكون متساوقًا مع الشكل format الذي يُنظِّم التبادلات ويُتيحُ التشغيليةَ - المتبادلة المُعمَّمةَ في النسق. وتتطلّب الديناميةُ التوسعية للإنترنت أن يعمل الفاعلون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذوي الشعور جميعًا مُتَّبعين نفس الشكل الذي يُترجَمُ إلى مبدأ المنافسة الاقتصادية. في نسق تبادلات معلوماتية يعمل الشكلُ كعاملٍ محوري، وانتقائي، وتهميشي بصورةٍ مطلقة. وإذا حاولتَ إرسال علاماتٍ باستخدام شكلٍ مختلفٍ عن الشكلِ المستخدم لبرمجة الإنترنت، ستكون علاماتك غير مقروءةٍ، وغير مفهومة، وغير فعّالة. ومن ثم تكشّفت سلطةُ الإنترنت بسرعة عن كونها سلطةَ نسقٍ نازعٍ للشخصية، أي، إلغاءٍ لعلامات التفرّد. خلقَ النسقُ الوسائطي شروطَ إعادة - إنتاجٍ مُوسَّعةٍ للمعرفة دون فكر، لمعرفةٍ وظيفيةٍ خالصة، وتشغيلية، وتفتقرُ إلى أي جهازٍ للتوجيه - الذاتي.

التركيب والتركيبية

Composition and Compositionism

كيف يحدث لمجموعٍ من الأفراد أن يتمكن من أن يصبح ذاتيةً جماعيةً واعية؟ يتم نشرُ التدفقاتِ التخيلية، والتوقعات العالمية، والعادات الطقسية، والميثولوجيات كما لو كانت عناصرَ كيميائية في الدائرةِ النفسية، ويتيحُ هذا الانتشارُ تحويل المحصّلاتِ التي بلا شكل إلى تجميعاتٍ واعية قادرة على التماهي مؤقتًا بدرجةٍ أو بأخرى في قصديةٍ مشتركة. هذه السيرورة التشكيليةُ للمجموع تُشبه تركيبًا كيميائيًا أكثر مما تُشبه التراكم الميكانيكيَ لأشكالٍ تنظيمية. ثمة، داخل مفهوم التركيب (وإعادة - التركيب)، نقدٌ ضمني للنزعةِ الذاتية السياسية، وفي نفس الوقت، نقدٌ للسوسيولوجيا الإمبيريقية. تصبح السيرورةُ السياسية مفهومةً على أنها صيرورةٌ متنافرة حيث تتدخل شرائحُ تكنولوجية، وترسّباتٌ ثقافية، ومقاصدُ سياسية، وتمثيلاتٌ إيديولوجية، وتسلسلاتٌ ميكانيكية وتوصيلية، وتُفلتُ من النزعة الاختزالية الإرادية والميكانيكية للسياسة والسوسيولوجيا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزمن السيبراني

Cybertime

نطلقُ تسميةَ الزمن السيبراني على الزمنِ العقلي الضروري لمعالجة المثيرات -المعلوماتية الآتية من الفضاء السيبراني. والفضاء السيبراني، بالتعريف، هو فضاءُ توسُّعٍ لا محدود، حيث أنه البعدُ الافتراضي الذي يُنتجه فاعلون سميوطيقيون لا يُحصون يُسقطون إشاراتهم في الفضاء اللامتناهي للإنترنت. وينتج التوسعُ اللامحدود للفضاء السيبراني كتلةً من المثيرات - المعلوماتية أكبر بما لا يُقاس من تلك التي يمكن معالجتها بواسطة العقل الواعي للملاّح السيبراني. وحيث أن توسعَ الفضاء السيبراني يجري داخل شروط اقتصاد السوق، حيث يجبُ للعرضِ أن يُلبّي الطلب حتى يمكن تحقيقُ إنتاج القيمة المضافة، ويكون استثمارُ رأس المال مربحًا، فإن الزمنَ العقلي يتعرّضُ لضغطٍ متواصل: إذ يجب في الحقيقة أن يستقبلَ، ويفكَّ شفرة، ويستهلكَ، الكتلةَ المتزايدة من السلع - المعلوماتية التي يحتويها الفضاء السيبراني. لكن الزمن السيبراني ليس لامحدودًا، بل على العكس، فإن الزمن العقلي المتاح لكيانٍ عضوي واعٍ وحساس محدودٌ بعوامل عضوية (النومِ، المرض، التدهور، حدود الانتباه)، وبعوامل ثقافية (المعتقدات، التوقعات من العالم)، وبعوامل عاطفية (الوجدانيةِ، البطء المطلوب للمعالجة النفسية للإشارات). ومن هنا، تخلق العلاقةُ بين الفضاء السيبراني وبين الزمن السيبراني شروطَ إنتاجٍ - مفرط سميوطيقي مستمر، لها تأثيراتٌ ذُهانيةٌ على العقل المُتعرِّض لتدفق الفضاء السيبراني، وتأثير الإنتاج - المفرط على الاقتصاد.

إبطال التفاعل - الاجتماعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

De-socialization

تُنتج خصخصةُ الزمن والتنافسية المُعمَّمة تأثيرَ إبطال - التفاعل الاجتماعي في ظروفٍ قلقلةٍ. لكن إبطال - التفاعل الاجتماعي هذا لا يُتيح لنا التمتّع بالاستقلال الذاتي للعزلة، لأننا مُعرَّضون لتفاعلٍ اجتماعي غازٍ ممكن دوما وفي كمين. نحن مُجبرون باستمرار على التفاعل الاجتماعي مع الغيريات التنافسيةِ والمعادية: إننا نحيا في شرط إبطالٍ ـ للتفاعل الاجتماعي مصطبغٍ بصورةٍ مفرطة بالطابع الاجتماعي.

العمل الكَسري [التفتيتي]

Fractal work

بمصطلح كسري fractal، يعني بنوا ماندلبروت Benoit Mandelbrot تعريفَ موضوعٍ هندسي متكرّرٍ ببنيته على مقاساتٍ مختلفة. والكلمة مُشتقةٌ من كلمة فراكتوس Fractus اللاتينية (مُنقسم، مكسور، متشقق، بحيث تعني التكسير). وبتعبير التمويل الكسري يعني ماندلبروت ديناميات السوق المالية المعقدة التي تدخل في توليفٍ وإعادة توليفٍ لتزيد باستمرار كتلَ شذراتِ رأس المال المالي المتكافئة فيما بينها. بفضل ديناميات الإنترنت صار ممكنًا باستمرار توليفٌ وإعادة توليفِ شذراتِ زمن العمل. وإلى هذا المدى، يعني التكسُيرُ تفتيت وإعادة توليف زمن العمل تبعاً لتتابعاتٍ مختلفة. بفضل تكسير ومرونة العمل، يتم محوُ الوجود المادي والقانوني للعامل، إذ يُختزَل إلى مُزوِّدٍ قابل للتبادل لشذراتِ زمن سميوطيقي قابل لإعادة التوليف. ومن ثم يصبح العامل آلةً مزوَّدةً بجهازٍ عصبي يمكن استخدامها لفترةٍ متغيِّرةٍ من الزمن، ويُدفع لها مقابل الفترة العرَضية والمؤقتة من الزمن الذي تم استخدامها فيها. ويمكن أيضًا تعريف زمن العمل الكسري بأنه خَلَوي لأنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يُناظرُ خليةً من المحيط الكسري لزمن إعادة التوليف الذي أخذَ مكانَ سوق العمل. يمكن اعتبارُ العمل الإدراكي مُحيطًا من شذرات الزمن، وتتيح التقنيةُ الخلوية (من خلال الهاتف المحمول) التقاءَ وإعادةَ توليفِ هذه الشذرات. إلى هذا الحد، يمكننا اعتبارُ الهاتفِ المحمول خطَ تجميعِ العمل الإدراكي.

العمل - المفرط

Hyper-labor

كشف التنبؤُ بأن تطوُّرَ التكنولوجيات المعلوماتية سيحدِّدُ خفضًا في زمن العمل الاجتماعي بحفز الأتمتة أنه تنبؤٌ زائفٌ. فبدلًا من الاتجاه نحو خفضٍ متزايد لزمن العمل، كما تنبأ أندريه جورز André Gorz، وجيريمي ريفكين Jeremy Rifkin وكثيرون غيرهما من علماء السوسيولوجيا والمستقبل، فإننا نتجه نحو شكلٍ من العمل - المفرط دون ضماناتٍ اجتماعية، ودون قيودٍ قانونية، ودون أي احترامٍ للحياة الإنسانية. منذ الثمانينات تزايد متوسطُ زمنِ العمل بصورةٍ مستمرة، ومنذ بداية القرن الجديد صار تزايد الاستغلال المطلق والنسبي مثيرًا للدهشة. ففي عام 1996 عمل المُستَخدَم النمطي 148 ساعة أكثر من زميله عام 1973. وتزايدت النسبةُ المئوية لمن يعملون أكثر من 49 ساعة أسبوعيًا من 13% عام 1976 إلى 19% تقريبًا عام 1998، طبقًا لمكتب إحصاءات العمل في الولايات المتحدة. وعلاوةً على ذلك، ارتفعت النسبة المئوية من 40% إلى 45% في حالة المديرين. خلال القرن العشرين كان الإنجازُ الأكبر للحركة العمالية هو خفضُ ساعات العمل القانونية إلى أربعين ساعة مع حق تقييد ساعات العمل الإضافية. وقد تم محوُ هذا الحق تمامًا خلال العقد الأخير. تستخدم الرأسماليةُ الكوكبية العملَ العبودي على نطاقٍ واسع. وفي الغالبية العظمى من بلدان العالم، لم تعد للقيود القانونية على الاستغلال أي قيمة.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المُتخيَّل

Imaginary

بكلمة المتخيَّل نُشير إلى تراكمٍ رسوبي وغير مُرتَّبٍ رمزيًا من الصور الغنية بالمطالباتِ المتخيَّلة التي يتلقَّاها الكيانُ العضوي الواعي خلال تعرُّضه للمجال المعلوماتي.

العمل - المعلوماتي

Info-labor

بمقولة «العمل المجرّد» عرّف ماركس سيرورةً لفصل نشاط العمل عن فائدته النوعية والعينية ومن ثم عن شكلِ قدرته الخاص: فأداءُ العملِ يفقد أكثر فأكثر خواصَ الفردية، والنوعية، والتعيُّن خلال سيرورة التجريد، بحيث يُصبح فعلًا تكراريًا للإنتاج المجرّد لقيمةٍ تبادلية. ويُشكّل إضفاءُ المعلوماتية على عمليات الإنتاج قفزةً في سيرورة التجريد. كان العملُ الصناعي يتمثَّلُ في تحويلِ المادة الميكانيكية بواسطة مُشغِّلٍ يُطبِّقُ طاقاته البدنية في عملية إنتاج السلع. وبعد إدخال المعلوماتية في تقنيات الإنتاج، تصبح عملياتُ التحويل بصورةٍ متزايدة عملياتِ معالجةٍ للمعلومات. العمل - المعلوماتي هو النشاطُ الذي يُنتجُ سلعًا ماديةً ولا ماديةً من خلال معالجة المعلومات. تتم الاستثارة العصبية لسيرورة العمل المعلوماتي الاجتماعي بواسطة الشبكة الرقمية، التي تعمل ككيانٍ عضوي - فائق قادرٍ على إدراجِ وتسييلِ شذراتٍ من الزمن البشري المجرّد، والمتجانس، والقابل لإعادة - التوليف.

الدائرة - المعلوماتية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Info-sphere

إذا كان الفضاء السيبراني هو فضاء الارتباط - المتبادل للنشاط العقلي بين فاعلين حساسين لا نهائيين مُزوّدين بأدوات إرسال وتلقّي العلامات، وهو دائرة العلاقة بين الكيانات العضوية البيو - معلوماتية، فإن الدائرة - المعلوماتية إذن هي المجال الذي تدور فيه التدفقات السميوطيقية من مُرسِلين لا يُحصون لتبلغ مُستَقبِلين لا يُحصون. الفضاء السيبراني هو المجالُ الذي تتشكل فيه الكياناتُ العضوية الواعية باعتبارها خلايا مُستقبِلة مترابطةٍ فيما بينها. الدائرة - المعلوماتية هي المجالُ الذي تدور فيه علاماتٌ ذات معنى وقصدية، وهي المجال المُوصِّل للمطالبات المعلوماتية التي تُثير النهايةَ الطرفية terminal البشرية. ومن هنا تعني الدائرة - المعلوماتية المجالَ الذي تدور فيه العلامات الصادرة عن أجهزة الإرسال، ويؤكد الفضاءُ السيبراني خاصية التفاعل بين فاعلين حساسين يرتبطون ارتباطًا متبادلًا مع بعضهم البعض.

المثير - المعلوماتي

Info-stimulus

نطلق كلمة معلوماتٍ على الانتهاك المُرتَّب والقصدي للنظام الإنتروبي entropic ° للكون، أي تسجيل محتوى من المعرفة القابلة للتوصيل على شكل إشارات، ونطلق كلمة المثير - المعلوماتي على المطالبة التي تمارسها أجهزة الإرسال على الكيان العضوي الواعي لتحثّ على استهلاكه للسلع - المعلوماتية. يمارس المثيرُ - المعلوماتي ضغطًا على الانتباه الواعي مُطلِقًا استثارةً يمكن أن تبلغ حد الاستنزاف. للعلامات خاصيةٌ مزدوجة: فهي لا ماديةٌ بقدر ما تكون حاملةً لمعنى، لكنها ماديةٌ بقدر ما تكون مُثيرةً للجهاز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العصبي. للعلامة ماديةٌ خطّية وصوتية، وتُنتج تأثيراتٍ مادية من وجهة النظر العضلية، والوجدانية، والعصبية. المثير - المعلوماتي من ثم هو التأثيرُ المادي الناتجُ على الكيانِ العضوي الواعي والحسّاس بواسطة علاماتٍ تحتوي على معلومات.

الزمن - المعلوماتي في إعادة - التوليف

Info-time in recombination

في الانتقال من أنساقِ الآلات التقليدية إلى أنساق الإنترنت، تنطوي سيرورةُ التجريد على ذات طبيعةِ الزمن البشري، وتُعدِّلُ الإدراكَ الذاتي في الكيان العضوي الواعي. لم يعد رأس المال بحاجةٍ إلى أن يستخدم كائنًا بشريًا كي يستخلص الزمنَ الموضوعي الذي يملكه الشخص. إذ يمكنه أن يتملّك شذراتٍ منفصلة من زمن العامل كي يُعيد توليفها في دائرةٍ منفصلة عن حياته الفردية. ومن ثم يحدث انفصالٌ مطلق بين الإدراك الذاتي للزمن الذي يتدفق وبين إعادة التوليفِ الموضوعية للزمن في إنتاج القيمة. لم يعد الرأسماليون بحاجةٍ إلى شراء مجمل زمنِ حياة العامل، بل يكفي أسرُ شذراتٍ معزولة من الزمن، لحظاتِ انتباه وتشغيلية. والعمل المطلوب لجعل الإنترنت تعمل ليس عملًا مُركّزًا في شخصٍ واحد. إنه مجرّةٌ من اللحظات المعزولة في الفضاء ومتكسّرة في الزمن، يُعاد توليفها في آلة الإنترنت السيّالة. وحتى يتم دمجُها بواسطة الإنترنت، يجب جعلُ شذراتِ زمن العمل متساوقة، ومُختزلةً إلى شكل format واحدٍ يتيح تشغيليةً ـ متبادلةً عامة.

نشاطية الميديا

Media activism

نشاطية الميديا تحيا في وضع التباس: فهي تشاركُ في سيرورة التحول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما بعد - الإنساني، لكنها تحاول تغيير المسار، لتمنع فقدان ما يجعلُ الحياةَ الإنسانية قيّمةً وسارّةً في تلك السيرورة، أي، التواصلِ بين الكيانات العضوية الواعية والحسّاسة. ليست مهمة نشاطية الميديا لا أن تُعارِض التحوّل الاتصالي الجاري، ولا أن تحكمه. خلال مسار التحول تكون مهمتها أن تُبقي حيةً تلك الكفاءاتِ الإدراكية، النشطة، الإبداعية، الجمالية، الأخلاقية التي يكون استمرارُها مُهدَّدًا.

دائرة - الميديا

Media-sphere

يمكن تعريفها بأنها تجميعة assemblage أجهزة الإرسال التخيلية - السميوطيقية التي تستثيرُ الدائرةَ - المعلوماتية بتدفقاتها.

الريزومة العصبية - الاتصالية عن بعد

Neuro-telematic Rhizome

الفضاء السيبراني هو افتراضٌ عالمي تتداخل فيه الأبعاد الأنطولوجية[الخاصة بفلسفة الوجود] والمعرفية [الخاصة بفلسفة المعرفة]. العالم هو كلّيةُ إسقاطاتِ حالاتٍ عقلية فعّالة وممكنة (الخبرات الافتراضية)؛ لكن العالم هو أيضًا مكانُ المفاجأة، والمخيلة، والخبراتِ التي لم تُجرَّب بعد، واكتشافِ وخلق أبعادٍ جديدة لخبرةٍ لم تتحقق فعليًا بعد. تنخرط «الذهنية» الإسقاطية في تحوّلٍ متهوِّر للمناخ الذي يحيا فيه الإنسان، ويفكر، ويتواصل. هذا التحول يرجعُ إلى الانتشار اللامحدود لأدواتٍ تقنية للتضخيم، وإعادة الإنتاج، والمشابهة. الجهاز العصبي مضفورٌ مع الخطوط اللانهائية للاتصال الشبكي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التقلقل

Precarity

المُقلقل هو شخصٌ لا يستطيعُ معرفةَ شيءٍ عن مستقبله الخاص ومن ثم مُعلَّقٌ بالحاضر ويُناشدُ الربَّ أن يُنقذه من الجحيم الأرضي (مصطلح التقلقل مُشتقٌ من المناشدة). نتحدث عن عملٍ مُقلقل حين يكون العملُ خاضعًا لشكلٍ من الاستغلال المرن وغير الخاضعِ لضوابط، خاضعًا للتذبذباتِ اليومية لسوق العمل، ومُجبرًا على تحمّل ابتزاز أجرٍ مُتقطّع. العامل المقلقل ليس مُستخدَمًا بصورةٍ رسمية، إلّا أن وجوده ليس حرًا على الإطلاق، العلاقة المأجورة متقطّعة وعرَضية، لكن التبعية مستمرةٌ ومليئةٌ بالقلق.

في السبعينات والثمانينات حين بدأ تفكيكُ النسق الفوردي والأجورِ المضمونة المربوطة بالإنتاج الصناعي، ظهرت ظروفُ العمل المقلقلة كظاهرةٍ هامشية وعارِضة كانت تتعلق قبل كل شيءٍ بالعمال الشباب الذين دخلوا إلى سوق العمل. واليوم من الواضح أن تقلقلَ العمل لم يعد ظرفًا هامشيًا، لكنه القلبُ الأسود لسيرورةِ الإنتاج الرأسمالي الكوكبي. فرضُ التقلقل هو نتيجةُ نزعِ توطين كل جوانب الإنتاج. ليس ثمة استمراريةٌ في خبرة العمل: فالمرء لا يذهبُ إلى نفسِ المصنع، ولا يقطعُ نفس الرحلة، ولا يقابلُ نفسَ الناس كل يوم، كما كان الحالُ في العصر الصناعي. ومن ثم ليس من الممكن تطبيقُ أشكالِ التنظيم الاجتماعي الدائمة. وحيث أن العمل أصبح مقلقلًا بفضل تحولٍ خلوي وشبكي، فإن مشكلة التنظيم المستقل ذاتيًا للعمل يجب أن يُعادَ التفكيرُ فيها بشكلٍ كامل. وما زلنا لا نعرف بأية طريقةٍ يمكن بناءُ هذا التنظيم: هذه هي المشكلةُ السياسية الرئيسية للمستقبل.

الدائرة - النفسية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Psycho-sphere

الدائرة - النفسية هي الوجهُ اللّين للدائرة - المعلوماتية، هي المجالُ الذي يجري فيه التسجيلُ والمعالجة النفسية للمؤثرات - المعلوماتية. تتبدّى في الدائرة - النفسية عواقبُ «الغزو - المعلوماتي» info-vasion، الإجهادُ العصبي، واختراق الصيدلة - النفسية، والتفتيت الكّسري لزمنِ العمل والزمن الوجودي. الدائرة - النفسية هي التأثيرُ غيرُ القابلِ للتنبؤ الذي تُنتجه أدوات الغزو - المعلوماتي في العقل الكوكبي المتصل فيما بينه. ويبدو أن تسارعَ وتّكثيفَ المثيراتِ العصبية على الكيان العضوي الواعي قد أنحلّت الغشاءَ الإدراكي الذي نسميه الحسَّ الوجداني. وبينما تتزايدُ كتلةُ المثيرات - المعلوماتية، يتناقصُ الزمن المتاحُ لمعالجة المثيرات العصبية. يُسارع الكيانُ العضوي الواعي الارتِكاسية الإدراكية، والإيمائية، والحركية. ونتيجةً لذلك، يبدو أن قدرتَنا التقمصية تتناقص.

إعادة - التوليف

Recombination/recombinant

يظهر مفهومُ إعادةِ التوليف كنتيجةٍ لاكتشاف الحمض النووي DNA في المجالات البيولوجية والبيو - جينية خصوصًا. وحتى قبل تبدّيه على المستوى المعرفي، جرى تداولُ مفهوم إعادة التوليف في الكتابات من تجارب OULIPO * إلى كتابات ريمون روسل Raymond Roussel، من الرُفات الباذخ cadavre exquis للسورياليين وروايات ناني بالستريني Nanni Balestrini. إعادة التوليف هو منهجٌ إدراكي وتشغيلي يعبرُ المجالاتِ الأشد دينامية للبحث والفعل. وبالعبور من التناظري إلى الرقمي، تمارسُ تدفقات الكلام، والصورة، والصوت عملَها كنشاطٍ للتقطيع والحياكة، للتفريق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتجميع إلى مقاييس متزايدةِ الضيق. إذا قبلنا فكرةً أن مبدأ أعادة التوليف هو مفتاحُ التكنولوجيات ما بعد - الميكانيكية، وافترضنا هذا المبدأ كنموذجٍ معياري معرفي عابرٍ للتخصصات، فإننا نلاحظ أنه يحدِّدُ مجالًا مشتركًا مع ظواهر الحياة واللغة. فالتكنولوجيات المعلوماتية والبيوجينية قائمةٌ على

Telegram:@mbooks90

منطقِ إعادة التوليف، الذي هو منطقٌ بلا معنى وليس جدليًا: إذ تنبثقُ أشكالٌ قابلةٌ للتعرف وتجميعاتٌ ذات معنى من تتابعاتٍ معلوماتية خالصة (مثلًا الصفر والواحد التي تُظهِرُ الصورةَ على شاشة الكمبيوتر، والمكونات الأربعة للـ DNA التي تُظهِرُ الكيانات العضوية الحية). يقول دولوز وجواتاري في ضد - أوديب: أنا لا أكترثُ على الإطلاق بأمي وأبي، بأوديب، أو بالصدمةِ الأصلية وما إلى ذلك. أنا مهتمٌ بمعرفة كيف تُفكِّكُ اللغةُ وتُعِيدُ ترتيبَ الواقع، أنا مهتمٌ بمعرفة كيفية إعادةِ توليف العلاماتِ والإيماءاتِ والأجساد كي أجدَ مخرجًا، كي أحرِّرَ الرغبةَ من المتاهة.

السميو- رأسمالية

Semio-capitalism

السميوطيقا هي العلمُ الذي يدرس العلامات. نسمي الرأسمالية نسقًا اجتماعيًا قائمًا على استغلال العمل ويستهدف مراكمةَ رأس المال. ونتحدث عن السميو -رأسمالية حين تُتيحُ التكنولوجياتُ المعلوماتية التكاملَ التام للعمل اللغوي مع إكسابِ القيمة الرأسمالي. بديهيٌ أن تكاملَ اللغةِ في عملية إكساب القيمة يتضمَّنُ نتائجَ هامة في كلٍ من المجال الاقتصادي والدائرة اللغوية. وفي الحقيقة من الممكن حسابُ زمنِ العمل الضروري لتنفيذ عمليةٍ ميكانيكية، لكن ليس من الممكن حسابُ متوسط زمن العمل المطلوب اجتماعيًا لمعالجة العلاماتِ وخلقِ أشكالٍ جديدة بطريقةٍ دقيقة. ومن هنا لا يمكن اختزال العمل اللغوي إلى قانون القيمةِ الماركسي، ومن ثم يدمجُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاقتصادُ عوامل جديدةٌ لعدم الاستقرار وعدم التحدُّدِ فور أن يصبح إكسابُ القيمة معتمدًا على اللغة. وبالمقابل تدمجُ اللغةُ قواعدَ المنافسة، والنقص، والإنتاج - المفرط. هذه هي الطريقة التي يتولّدُ بها إفراطٌ في العلامات (عَزض) لا يمكن استهلاكُه ومعالجتُه في زمن الانتباه الاجتماعي (طَلَب). وعواقبُ الإنتاجِ -المفرط السميوطيقي ليست اقتصاديةً فحسب، بل نفسيةٌ أيضًا، حيث أن اللغةَ تُمارسُ فعلها مباشرةً على الدائرة - النفسية.

الحسُّ الوجداني/الحساسية

Sensibility/Sensitivity

الحس الوجداني هو الملَكةُ التي تُتيح للبشر فهمَ المضامين النفسيةَ التي ليست، ولا يمكن صياغتُها في، كلمات. الحس الوجداني يشكل غلالةً تجعلُ الاتصالَ التقمُّصي بين الكيانات العضوية الواعية ممكنًا. الحس الوجداني هو الملكة التي تُتيح لنا الاتصال بالتطورِ - المشترك لكائناتٍ لا - متوازية ليس لها أية علاقةٍ ببعضها. بعبارةٍ أخرى، هو ملكة الدخول في تناغمٍ مع الريزومة. وإذا كان الحس الوجداني إذن هو القدرةُ على التقاط معنىً ما لا يمكُن التعبيرُ عنه في كلمات، فإن الحساسية هي القدرةُ على الشعور بجلدِ الآخر بطريقةٍ ممتعة. هاتان الملكتان معا تُتيحان ما تسمّيه البوذيةُ التعاطفَ العظيم، الذي هو القدرةُ على الإدراكِ الحسي لجسدِ الآخر كاستمرارٍ لجسدِ المرء ذاته، إمكانيةُ الشعور بمتعة الآخرِ كمتعة المرء ذاته، وبألمِ الآخرِ كألمِ المرءِ ذاته. لكن، حين تنفتحُ فجوةٌ بين هاتين الملكتين، يصبحُ اضطرابُ الإدراكِ الحسي الجِلدي للواحد هو العجزُ عن فهم معنى العلاماتِ التي تأتي من الآخر. هكذا تسودُ الحربُ بين البشر.

التَوطِين/نزعُ التوطين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Territorialization/Deterritorialization

التوطين هو تأثيرُ الإقرارِ من جانب كيانٍ عضوي واعٍ بموطنٍ مُتخَيَّل وطقسي، من خلال شفرةِ هويةٍ يمكن أن تتبدّى في قيمٍ أخلاقية، وذكرياتٍ مشتركة، وميثولوجيات. وشفرةُ الهوية عمومًا لها تأثيرٌ استبعادي وتُتيح استنفارَ الطاقات العدوانية صوب الآخر الذي لا يملكُ نفسَ الشفرة، ومن ثم لا ينتمي إلى الموطن. ونزع التوطين هو فصلُ الكيانِ العضوي الواعي عن شفرة هويته، هو تأثيرُ عدم - الإقرار بالموطن المُتخَيَّل، والنفسي، والطقسي. تاريخ الرأسمالية هو تاريخُ سيرورةٍ متصلة من نزع التوطين. ورغم ذلك، لما كانت الشريحةُ السُفلِية الثقافية والنفسية التي تؤسِّس الرأسمالية هي شريحةٌ سفلية للهوية، فإن حركةَ إعادة توطين تتبعُ كلَّ نزعِ توطين، وتتبدّى من خلال طقوس إعادةِ - تماهِي عدوانية: عنف، وعنصرية، وحرب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم الرفع بواسطة
Telegram :@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner